أخلاقيات الحروب في

سيرة الحبيب المحبوب ﷺ



كتبه

عبد العزيز أحمد عبد العزيز

(أبو أنس)

أولاد الشيخ

مكتبة أولاد الشيخ للتراث



سيرة الحبيب المحبوب ﷺ

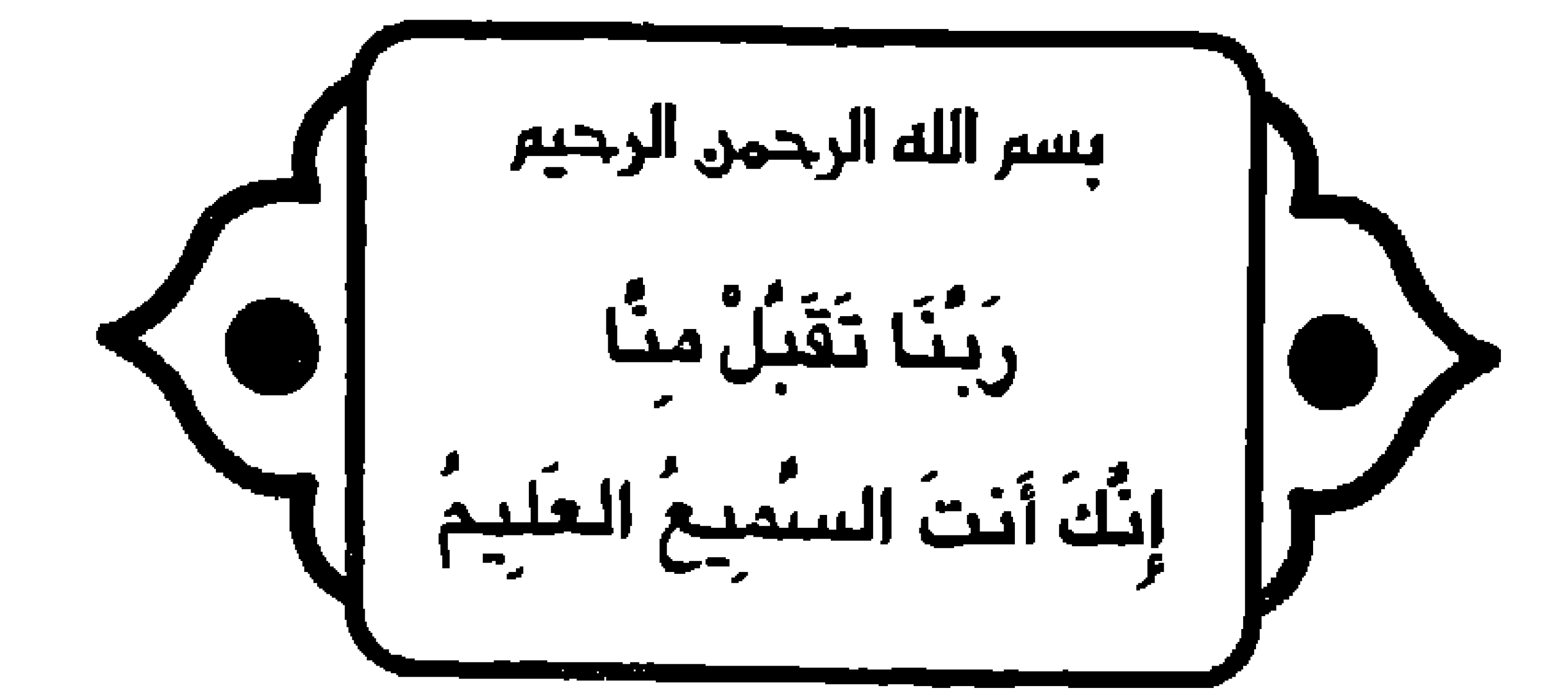
كتبه

عبد العزيز أحمد عبد العزيز

(أبو أنس)

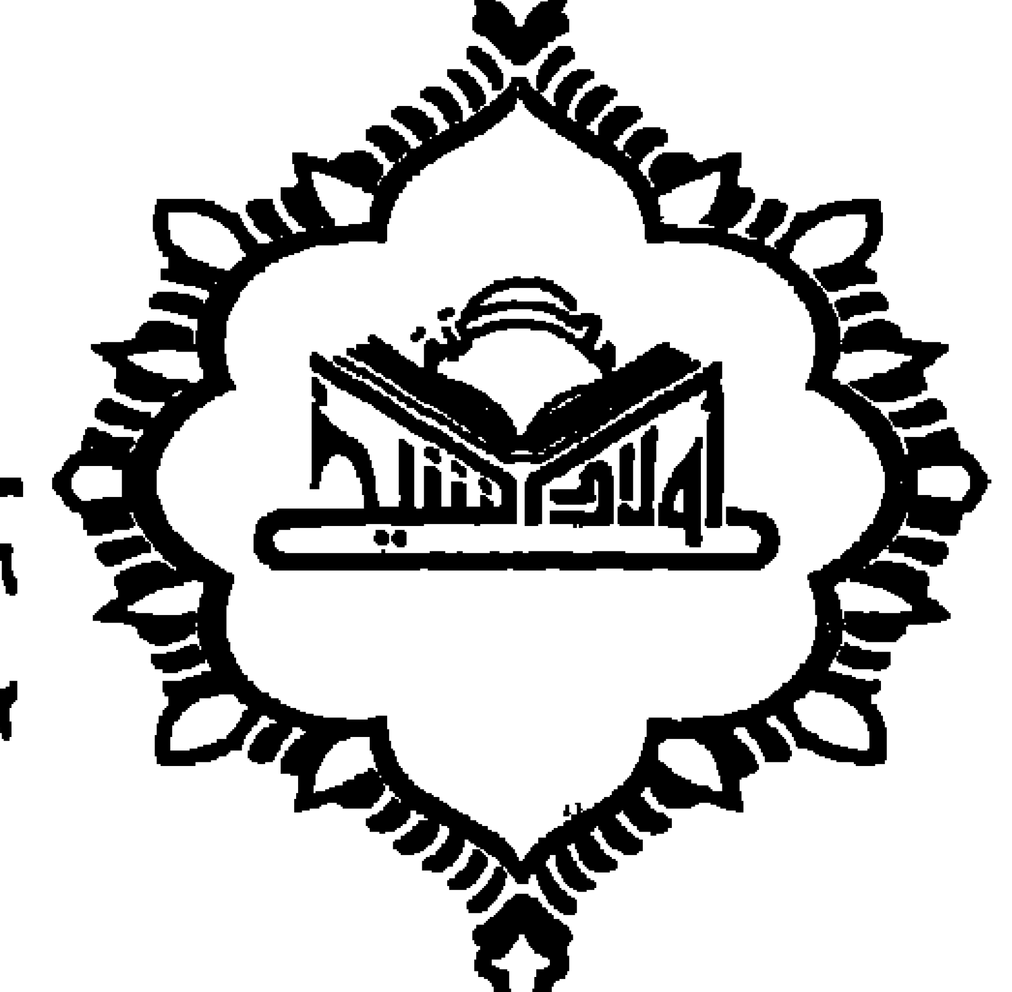


الهرم / ٣٥٦٢٨٣١٨ فيصل / ٣٧٤١٠٧٠٤



فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد العزيز، عبد العزيز أحمد
أخلاقيات الحروب في سيرة الحبيب المحبوب صلى الله عليه وسلم
كتبه/ عبد العزيز أحمد عبد العزيز (أبو أنس . مستعار)
الجيزة / مكتبة أولاد الشيخ للتراث
٢٤٠ص ، ٢٤سم ط١ - ٢٠٠٧ ٢٤x١٧
تدمك : 977-371-207-9
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٦٩٢٥ ديوى ٢٣٩,٦
١ - أخلاق الرسول .
٢ - السيرة النبوية .
أ - العنوان .



مكتبة أولاد الشيخ للتراث

٣٦ ش اليابان - عمرانية غربية - الهرم تليفون / ٣٥٦٢٨٣١٨
٤٢ ش إبراهيم عبد الله من ش المنشية - فيصل / ٣٧٤١٠٧٠٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، جلَّ في عُلاه، وتبارك في أرضِه وسماه، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يعز ويذل، يهدي ويضل، نحمده أن خلقنا مسلمين، وفطرنا موحِّدين، وجعلنا من أمةِ أفضل الأنبياءِ وأشرف المرسلين.

والصلاة والسلام على من أرسله اللهُ ليعلمَ الناسَ الخير، ويحذرَهم من كلِّ شرٍّ ويُذهبَ عنهم كلَّ أذىً وضَير، جاءنا بالآياتِ الواضحاتِ والحُجَج، وأنزل اللهُ ﷻ عليه قرآنا غيرَ ذي عوج، وعلى آل بيتِه الأطهار، وأصحابه الأبرار الأخيار .

وبعد؛

فإنّ السيرة النبوية العطرة منبعٌ صافٍ للواردين، ومنهلٌ رويّ للمتقدمين من هذه الأمة والمتأخرين، جُمعت فيها حياة النبي الأعظم والرسول الأكرم، محمد بن عبد الله ﷺ، الذي ختم الله ﷻ به كوكبة الأنبياء فكان مسكَ ختامِهم، وأكمل به صرحَ المرسلين فكان بدرَ تمامِهم.

وقد جَمعت سيرة النبي ﷺ الدينَ الإسلاميَّ باختلاف شُعَبه، فكم من قضيةٍ عقدية أوضحت وجلَّت؟ وكم من مسألةٍ فقهية بيَّنت وحلَّت؟ وكم من مبدأ أخلاقي كريم أرست وأصَّلت؟ وكأن الله ﷻ أنزل على هذه الأمةِ قرآنين! أحدُهما نظري وهو الموجودُ بين دِفتي المصحف، والآخر عملي تطبيقي وهو النبي ﷺ، فعن سعد بن هشام قال: «أتيتُ عائشة فقلت: يا أمَّ المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن!؟ يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]»[(١)].

(١) رواه الإمام أحمد – وهذا لفظه – (٢٤٦٤٥)، أبو يعلى (٤٨٦٢).

وإن أخلاقَ الإنسان لتحكمُ على عقيدتِه التي يؤمن بها، من حيثُ الصحة أو الفساد، وعلى عباداتِه التي يمارسُها، من حيث الصوابِ أو الخطأ، فقلما يُوجدُ إنسانٌ عقيدته صحيحة وعباداته صائبة، وتقبحُ أخلاقياته أوتسوءُ سلوكياته، لذا كان رسولُ الله ﷺ أكرمَ الخلق خلقًا، وأحسنَهم أدبًا وذوقًا، وخيرَهم هديًا وسمتًا:

صلاةُ اللهِ مع أزكى سلامِ ... على محبوبِنا بدرِ التمامِ
حبيبِ الحقِّ خيرِ الخلقِ طُرًّا ... وآلٍ ثُمَّ أصحابٍ كِرامِ
حبَاك اللهُ أكرمَ كلِّ خُلْقٍ ... ففُقْتَ بذاكَ أخلاقَ العِظامِ
فأنت الصادقُ المصدوقُ حقًا ... وأنت أمينُ ربِّك يا تِهامِي[1]

ولذا كان للنبيِّ ﷺ في كلِّ أمر من أمور الحياة، أو حركةٍ من حركاتِها، أدبٌ خاصٌّ به، وله في كل جانبٍ من الجوانبِ التي يعيشُها الإنسانُ ويحياها خلقٌ وهَديٌ، أثِرا عنه في سنتِه وسيرته، وبمقدار تمسُّكِ الإنسان بآدابِ النبي ﷺ والتحلي بأخلاقه، يكون حبُّ الله له ورضاه عنه، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

ومن أهمِّ هذه الجوانبِ التي أرسى فيها النبي ﷺ الكثير من المبادئ الأخلاقية الجانبُ الحربي، خاصة وأن حروبَ النبي ﷺ قد احتلت من زمن حياةِ دعوتِه المباركة حيِّزًا كبيرًا، واستوعبت من صفحاتِ سيرته العطرة قطاعًا عريضًا، وإن الأخلاقياتِ العسكرية النبوية، لا ترقى إليها أيّة أخلاق قبله أو بعده، ومن الواجب على الأمةِ الإسلامية أن ينشروا هذه الأخلاقيات، حتى يُدرِّسَها المهتمون بالنظرياتِ الأخلاقية، والمتخصصون في الاستراتيجياتِ العسكرية - على حدٍّ سواء-، في المجامع العلمية العالمية، فضلًا عن أن يتعلمها علماءُ الأمة وينفعوا بها أمتهم.

وكان من دواعي سروري وحسن حظي، أن عشت أثناء تأليف هذا الكتاب

---

(١) من قصيدة للمؤلف افتتح بها كتابه: «رأيت النبي ﷺ».

أيامًا- من أجمل أيام عمري- في أحضان سيرة النبي ﷺ، أستمتع بتقليبِ صفحاتِها، وأستنشقُ عبيرَها ونفحاتِها، وأصحبُ المبارَكين من شخصياتِها، وأعجب من كثرة مواقفها التربوية، التي لا تتجمع في حياة المئات من عظماء قادة البشر!

ولا يظننَّ ظانٌّ إذا سمع - أو قرأ - جملة «أخلاقيات الحروب في الإسلام» أننا نتحدث عن سماحةِ الإسلام وعفوه ولينه فحسب - وإن كانت هذه الصفاتُ من أهم خصائص الإسلام، ومن أروع مميزاته - ولكن الشرع الإسلاميَّ الكامل لا يُلزم أتباعَه بتطبيقِ مقولة «إذا ضربك أحدٌ على خدِّك الأيمن، فأدِر له خدَّك الأيسر!»، فليس كلُّ الناس - حين يُظلمون أو يُعتدى عليهم - على حدٍّ سواء في قدراتهم، وليس - كذلك - كلُّ من ظلم أو اعتدى ثم عفوتَ عنه، يُقلع عن ظلمِه، ويردُّه العفوُ واللين عن غيِّه، بل ربما يزيدُه العفو عتوًا وطغيانًا! فيرتكبُ الحماقات، وينشرُ الجهالات، ويعيثُ في الأرض فسادًا! مُتفرعِنًا قائلًا: ﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، أو متنمْردًا ودعواه: ﴿...أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ...﴾ [البقرة:٢٥٨]، وما أروعَ ما قال أبو الطيِّبِ المتنبي:

وما قتلَ الأحرارَ كالعفوِ عنهُمُ	ومَن لك بالحُرِّ الذي يحفظُ اليَدَا؟
إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ	وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمَرَّدَا!
ووضعُ النَّدَى في موضعِ السَّيفِ بالعُلا	مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدَى!

ولكن الشريعة الإسلامية أنزلها الله لكلِّ المستويات، وخاطب بها جميعَ المجتمعات، فهي صالحة لكلِّ مِصر ومكان، ومُتواكبة مع كلِّ عصر وزمان، وملائمة لكلِّ ظرفٍ وطبيعة، ونزلت لإصلاح الأرواح والنفوس والقلوب والعقول والأجسام جميعًا، وليسعدَ بها الأفرادُ والجماعات.

فللسماحةِ والعفو واللين أوقاتُها، وأهلُها الذين يصلحون لها، وللشدةِ والحزم والقسوةِ أحيانُها، ونوعياتٌ من البشر لا تستقيمُ إلا بها، وما أجملَ ما

قال أبو تمام الطائيُّ:

فقسَا لتزدَجِروا ومن يكُ حازمًا فليقسُ أحيانًا وحينًا يرحَمُ!

وأخافكُم كي تُغمِدوا أسيافكم إنَّ الدَّمَ المُغْتَرَّ يَحرُسُهُ الدَّمُ!

لذا جمعتُ - بعون الله - كلَّ ما وفقني الله لجمعِه من هذه السجايا والصفات الحربية، وكلَّ ما تيسَّر لي من الأخلاق والآدابِ العسكرية النبوية، على ضوء فهم أهل السنة والجماعة.

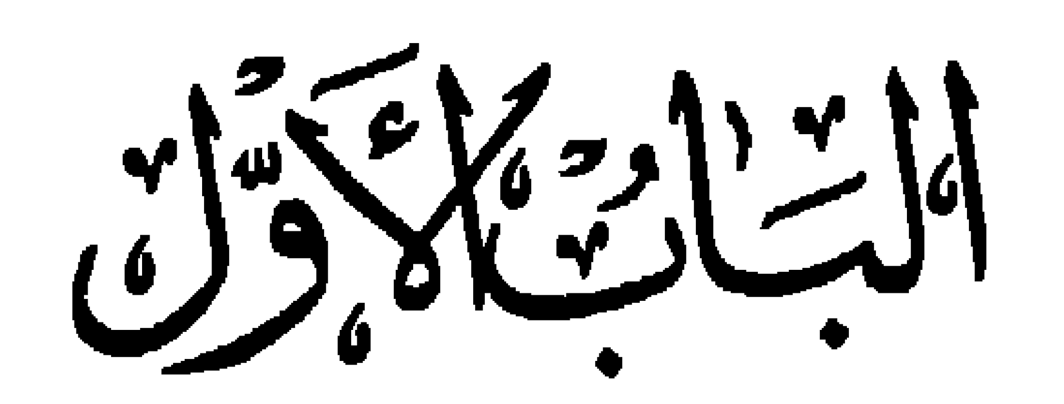
وما كان في هذا الكتاب من حق وخير، فهو من فضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ أوزلل، فهو من النفس المُضِلة والشيطان المُزيِّن، فنستغفر الله منه، ونستنزل منه الهداية والرشد، ونسأله أن يخلص نيَّاتِنا، ويكتب لنا عنده القبول، آمين آمين.

وصلِّ اللهمَّ على سيدنا وحبيبنا محمد، الرحمةِ المهداة، والنعمةِ المسداة، وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

عبد العزيز أحمد عبد العزيز

(أبو أنس)

٠١١/٢٨٢٩٥٨١ - ٠١٢/٤٠٠٨٣٢٤



عظمة الإسلام

الفصل الأول: عظمة الإسلام في الجانب الأخلاقي

الفصل الثاني: حكم الحروب والحكمة منها

الفصل الثالث: شبهة لا بد من دحضها

الفصل الأول

عظمة الإسلام في الجانب الأخلاقي

إن من أسماء الله الحسنى أنه العظيم، قال الله ﷻ في أعظم آية من آيات القرآن: ﴿...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكما أنه عظيم، فإن عرشه عرش عظيم، قال ربنا ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وإن من آمن بالله وأطاعه كان فوزه فوزًا عظيمًا قال ﷻ: ﴿... وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١]، وإن من كفر به وعصاه كان عذابه عذابًا عظيمًا، قال ﷻ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]، وما عرفنا هذا إلا من القرآن، لأنه الكتاب العظيم، وفيه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحِجر:٨٧]، وما أنزل هذا الكتابُ إلا على مسك ختام الأنبياء العظماء، وبدر تمام المرسلين الكرماء، وإنه لأشرفهم وأعظمهم، وإن عظمته ظاهرة لائحة في كل شيء، ففي خلقه يقول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وفي فضله عليه يقول ﷻ: ﴿...وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

ولا عجب حين يُجمِّع أحد الكافرين سجلًا، يجمع فيه العظماء الخالدين – من وجهة نظره – فيسمي هذا السجل (الخالدون مائة وأعظمهم محمد)!!

الله أكبرُ إن دينَ محمدٍ	وكتابَه أقوى وأقومُ قيلا
لا تذكر الكتبَ السوالفَ قبله	طلع الصباحُ فأطفئ القنديلا

فديننا دينُ العظمة، لأنه دينٌ كامل، ونظامٌ شامل، وصالح لكل زمان ومكان، وما من خير إلا وحثنا عليه، ودعانا إليه، وما من شر إلا ونهانا عنه، وحذرنا منه، قال ﷻ: ﴿...مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام:٣٨]، ولا عجب أن يلحظ العدوُّ هذا - فضلًا عن الحبيب -! فقد قال رجل كافر لسلمان الفارسي ؓ: «قد علمكم نبيُّكم كلَّ شيء حتى الخِراءة! فقال: أجل...»[1] وقد قلتُ في مدح مَن أنزلت عليه هذه الشريعة ﷺ:

أضاءَ هذا الكونَا	مشى برفقٍ هَوْنَا
بهديهِ علَوْنَا	صلى عليهِ اللهُ
رسولُنا محمَّدُ	مُكرَّمٌ مُؤَيَّدُ
حتى العَدُوُّ يشهَدُ	صلى عليهِ اللهُ

وإن الإسلام ينقسم إلى ثلاث شعب رئيسية، هي: العقيدة والشريعة - العبادات والمعاملات - والأخلاق، ولو شبَّهنا صرحَ الإسلام العظيم بالقصر الجميل الأنيق، فإن العقيدة تكون في مقابل القواعدِ والأسس، وإن الشريعة تكون بمثابةِ الجدران والسقف، وإن الأخلاق تمثل المكمِّلاتِ والمجمِّلاتِ والتزيينَ والتلوين، التي لا تتضحُ محاسنُ معالم ذاك القصر إلا بها.

ولو شبَّهنا بنيانَ الإسلام بشجرةٍ جميلة طيبة، لكانت العقيدة كجذر الشجرة وساقِها، ولأشبهت الشريعة فروعَها وأغصانها، ولكانت الأخلاق بمثابةِ الثمار اللذيذةِ الناضجة، والأزهار المتفتحةِ ذات الرائحة الطيبة.

ولم يُعْنَ دينٌ أو مذهب بالأخلاق والآداب، كما عُني الإسلام بمبادئها، وكما

---

(١) مسلم - واللفظ له - (٢٦٢)، أبو داود (٧)، النسائي في «الكبرى» (٤٠)، وفي «المجتبى» (٤١)، الترمذي (١٦)، ابن ماجه (٣١٦)، أحمد (٢٣٧٧٠)، ابن خزيمة (٧٤)، ابن أبي شيبة (١٦٠٠)، البزار (٢٥٠٢)، البيهقي في «السنن» (٤٣٤).

اهتم بالحديث عن فوائدِها وجزاءِ أهلِها، ويكفي أن النبي يقصِرُ بعثته ورسالته في إتمام الأخلاق وإكمالها فيقول ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاق»[(١)].

ويكفي أن يتحدث النبيُّ ﷺ عن منزلةِ ذوي الأخلاق الكريمة الفاضلة، فيبين أن منزلتهم في الآخرة فوق كل المنازل، فيقول: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربَض الجنة، لمن ترك المراءَ وإن كان مُحقًّا، وببيتٍ في وسطِ الجنة، لمن ترك الكذبَ وإن كان مازحًا، وببيتٍ في أعلى الجنة، لمن حسن[(٢)] خلقه»[(٣)].

وإن المسلمَ الحق من يفوقُ غيرَه بحسن خلقِه، ويبُزُّهم بكريم ذوقِه، لا في جانبٍ واحدٍ من جوانبِ الحياة، أو في وقتٍ محددٍ من أوقاتِها، أو مع شريحةٍ معينة من شرائح الناس فيها، بل في كل الجوانبِ والنواحي، وفي جميع الأوقاتِ واللحظات، ومع مختلفِ الشرائح والطبقات.

وإن لم يكن الخلقُ الحسن طبيعةَ المرءِ وسجيتَه، فبمقدار محاولةِ اكتسابه، وتعويدِ نفسه على التخلق به، يكونُ حبُّ الله له، وتكون ارتفاعُ درجته عنده في الآخرة، وليس بينه وبين كريم الخصال، ونبيل الخِلال، في الأقوال والأفعال، إلا أن ينويَ ويعزم، ويحاولَ ويجاهد، ويتشبَّه بأهل الخلق والصلاح، ويسألَ الله العونَ والمساعدة، فمن سار على الدربِ وصل، وما أروعَ قولَ أبي العيناء:

إذا أعجبتْكَ خصالُ امرئٍ ... فكُنْه يكنْ منكَ ما يُعجبُكْ
فليس على المجدِ والمكرُماتِ ... إذا جئتَها حاجبٌ يحجبُكْ

---

(١) أحمد (٨٩٣٩)، ابن أبي شيبة (٣١٧٧٣)، الحاكم (٤٢٢١)، البيهقي في «السنن» (جـ١٠ صـ١٩٢) ورواه بلفظ: «...لأتمِّمَ حسنَ الأخلاق» مالك - بلاغًا - (١٦٠٩)، وبلفظ: «... لأتمم محاسن الأخلاق» البزار (٢٦٤٨).

(٢) تقرأ: «حسُن خلقُه»، و«حسَّن خلقَه».

(٣) أبو داود (٤٨٠٠)، الطبراني في «الكبير» (٧٤٨٨)، وفي «الصغير» - واللفظ لغيره - (٨٠٥)، البيهقي في «السنن» (جـ١٠ صـ٢٤٩).

والمسلمُ يلتزم بالأخلاق الكريمة مع والديه وأولاده وأقاربه، ومع إخوانه المسلمين في مجتمعِه الذي يعيش فيه وفي غيره من المجتمعات، بل إنه يكون ذا أخلاق حسنة حتى مع أعداءِه! وحتى حينما تبلغ القلوبُ الحناجر، فتقطعُ الرؤوس! وتبقرُ البطون، وتتناثر الأشلاء، في الإطار الذي شرعه له دينُه، ووفقَ الضوابطِ التي أمره بها ربُّه.

وما أروعَ ما رُوي من قصص هذه الأخلاقيات، في سيرة النبي وسيَر أصحابه! ومن ذلك ما روي عن خبيب بن عدي ﷺ، حين أسرته قريشٌ عندها ، منتظرة انصرامَ الأشهر الحرم حتى ينفذوا فيه حكمَ الإعدام، وحتى يجمعوا أكبرَ عددٍ من أعداءِه ليتشفوا فيه، ويشمتوا بقتله، ولنترك الحديثَ لتلكم المرأةِ[1] المُنصفة، التي حُبس خبيب ﷺ في بيتها بمكة، حتى تنقلَ لنا طرفًا مما جرى.

قالت ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب: «والله ما رأيتُ أحدًا خيرًا من خبيب... فلما انسلخت الأشهرُ الحرم، وأجمعوا على قتلِه، أتيته فأخبرته، فوالله ما رأيته اكترث[2] لذلك!

وقال: ابعثي إلي بحديدةٍ أستصلح[3] بها، قالت: فبعثت إليه بموسَى مع ابني، قالت: فلما ولى الغلام قلت: أدرَك - والله - الرجلُ ثأرَه! أي شيء صنعت، بعثت هذا الغلامَ بهذه الحديدة فيقتله ويقول: رجُلٌ برجل!؟

فلما أتاه ابني بالحديدة تناولها منه، ثم قال ممازحًا له: وأبيك إنك لجريء! أما خشيَتْ أمُّك غدري، حين بعثتْ معك بحديدة، وأنتم تريدون قتلي؟ قالت ماوية: وأنا أسمع ذلك، فقلت: يا خبيب إنما ائتمنتك بأمان الله، وأعطيتك بإلهك ولم أعطك

---

(١) أسلمت فيما بعد وحسن إسلامها، فرضي الله عنها.

(٢) اكترث: اهتم واعتنى.

(٣) الحديدة والموسى: الشفرة، والاستصلاح: الاستحداد وإزالة شعر العانة أو حلقها.

لتقتلَ ابني، فقال خبيب: ما كنتُ لأقتله، وما نستحلُّ في دينِنا الغدر»[١].

«فانظر إلى معجزةِ التربيةِ الإسلامية للإنسان! خبيبٌ هذا، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموتَ ظلمًا وعدوانًا، عربٌ أنبتتهم أرضٌ واحدة، وأظلتهم طبائعُ وتقاليد واحدة.

ولكن خبيبا اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنسانًا آخر، وأولئك عكفوا على ضلالاتِهم، فحبستهم ضلالاتُهم في طبائعِهم المتوحشة الغادرة، فما أعظمَ ما يفعله الإسلام في الطبيعةِ الإنسانية من تغيير وتحويل!»[٢].

«وقد يُعجبُ بعضُ الناس من أن الفضيلة تحكم في وسط السيوف، وحيث يُستباح الإنسان، فإنه حيث استبيح لا يبقى من القيود شيء يُحترم، ولكنا نقول:

إنها حربٌ مقيَّدة بقانون السماء، وهي حربُ الفضيلةِ المقاومة للرذيلة المعتدية، وليس من المعقول أن يكون باعثَ الحربِ الدفاعُ عن الفضيلة، وتُنتهك حرماتُها في الميدان من أهلِها مجاراة للمعتدين!»[٣].

قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

علَّمتَهم كُلَّ شيءٍ يجهلون بهِ	حتى القتالَ وما فيهِ من الذمَمِ
دعوتَهم لجهادٍ فيه سُؤْدَدُهم	والحربُ اسُّ نظام الكون والأممِ

وكم من مرةٍ يطلبُ الصحابة من نبيِّهم ﷺ أن يدعوَ ربه على من كفروا به وآذوه، وأذاقوا أصحابه صنوفَ العذاب، وصدُّوا عن الدين الذي أكرمه الله به، فيأبى النبيُّ ﷺ الدعاءَ عليهم، ويسألُ الله أن يهديَهم وذريتَهم!؟ بل يقول النبي ﷺ هذا القولَ لرسل ربه من الملائكة، لما أرسلهم الله إليه، مخبرين أنهم وفقَ أمره، وطوعَ

---

(١) ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (جـ٨ صـ٣٠١، ٣٠٢).

(٢) «فقه السيرة للبوطي» (صـ١٨٨).

(٣) «العلاقات الدولية في الإسلام» (صـ١٠٣).

رغبتِه، وما بين تدميرهم لمن كفر به ونسفِهم، إلا أن يأذنَ النبيُّ ويُبديَ موافقته، ولكن الرحمة المهداة يدعو لهم!

فعن عائشة ﵂ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومِك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب!

فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل! فناداني فقال: إن الله ﷻ قد سمع قولَ قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال، لتأمره بما شئت فيهم».

قال ﷺ: «فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قولَ قومِك لك، وأنا ملكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبقَ عليهم الأخشبين![1] فقال النبي: بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيئًا»[2].

وإذا بالله ﷻ يستجيب لدعاء نبيه، ويؤيد الدين ببعض هؤلاء الذين طالما ناصبوه العداء! وبالكثير ممن خرج من أصلابهم! فيثبِّت اللهُ - فيما بعد - بهم دعائمَ الدين، وينشر بهم ألويته، ويجعلهم مشاعلَ هداية للعالمين، ومضارب أمثال للأولين والآخرين!

فأخرج اللهُ ﷻ من العاص بن وائل السهميِّ عمرَو بن العاص ﵁! ومن أبي جهلٍ عكرمة بنَ أبي جهل ﵁! ومن الوليدِ بن المغيرةِ المخزوميِّ خالدَ بن الوليد

---

(١) الأخشبان: جبلان كبيران.

(٢) البخاري (٣٠٥٩)، مسلم (١٧٩٥)، النسائي في «الكبرى» (٧٧٠٦)، ابن حبان (٦٥٦١)، الطبراني في «الأوسط» (٨٩٠٢).

رضي الله عنه! ومن أمية بن خلفٍ صفوانَ بنَ أمية رضي الله عنه!

فهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي طالما قاد الجيوش ضد المسلمين، وحمل لواءَ السفارة للملوكِ محرِّضًا لهم على المسلمين، يلينُ ويخشع قلبه، ويستخدم كلَّ طاقاتِه وقواه الجسدية والعقلية، لنصرةِ الإسلام والدعوة إليه في ربوع الأرض! وها هو يتذكر حياته كلها - بتغيراتِها وتقلباتها - في ساعةِ احتضاره، فيحدِّث من شهده يومها بذلك كله.

فعن ابن شماسة المهريِّ قال: «حضرنا عمرَو بنَ العاص وهو في سياقةِ الموت، فبكى طويلًا وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنُه يقول: يا أبتاه أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

إني قد كنتُ على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته! فلو متُّ على تلك الحال لكنتُ من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي! قال: مالك يا عمرو!؟ قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدمُ ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له! ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه! ولو متُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها؟ فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنُّوا علي التراب شنًا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزورٌ

ويقسم لحمُها، حتى أستأنسَ بكم، وأنظرَ ماذا أراجعُ به رسلَ ربي»[١].

وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي دوخ المسلمين قبل إسلامه، والذي كتب الله له أن ينطلق هو وعمرو معًا إلى النبي ﷺ في نفس اليوم، لإعلان دخولهما في هذا الدين، فيندم على ما كان منه من تفريطٍ في جنب الله عز وجل، ويريد أن يعوض ما فاته من خير وبذل، عساه أن يسبق بعض من سبقه!

مَن لي بمثل مشيكَ المُدَلَّل؟ تمشي رُويدًا وتجي في الأوَّل!

فقدَّم رضي الله عنه كلَّ ما يمكن تقديمُه، ورصد أمواله وجميعَ أسلحتِه لجيش المسلمين، فمن أراد أن يجاهد من المسلمين، وكان معه سلاحٌ فلينطلق بسلاحِه، ومن لم يكن له سلاحٌ أو فرس، فليأخذ من أسلحةِ خالدٍ المُرصَدة، أو من أفراسِه المسوَّمة! فعل خالدٌ رضي الله عنه ذلك حتى صارت زكاة المال غيرَ واجبة عليه، مع ما كان عنده من ثرواتٍ طائلة! فكيف تجبُ الزكاة في مال من صار ماله كله في سبيل الله؟

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «ما ينقمُ ابنُ جميل إلا أنه كان فقيرا فأغناه الله! وأما خالدٌ فإنكم تظلمون خالدا! قد احتبس أدراعَه وأعتادَه في سبيل الله! وأما العباسُ فهي علي ومثلها معها»، ثم قال: «يا عمر أما شعرتَ أن عمَّ الرجل صنوُ أبيه؟»[٢].

وكما رصد خالدٌ رضي الله عنه أمواله لرفع رايةِ الإسلام، فإنه رصد أنفاسه وكل ما يملك لهذا الدين، حتى قيل في وصفه: إنه كان لا ينام ولا يُنيم! ورحم الله شاعر

---

(١) مسلم - بلفظه - (١٢١)، ابن خزيمة مختصرًا (٢٥١٥).

(٢) البخاري (١٣٩٩)، مسلم - بهذا اللفظ - (٩٨٣)، أبو داود (١٦٢٣)، النسائي في «الكبرى» (٢٢٤٣)، والمجتبى (٢٤٦٤)، أحمد (٨٢٦٧)، ابن خزيمة (٢٣٣٠)، ابن حبان (٣٢٧٣)، البيهقي في «السنن» (١١٦٩٥).

النيل حافظ إبراهيم حين قال:

ما واقع الرومَ إلا فرَّ قارحُها ... ولا رمى الفُرسَ إلا طاش راميها

ولم يَجُز بلدةً إلا سمعتَ بها ... (اللهُ أكبرُ) تدوي في نواحيها

تِسعُون موقعةً مرَّت مُحجَّلةً ... من بعدِ عشرٍ بنانُ الفتحِ يُحصيها

وخالدٌ في سبيلِ اللهِ موقدُها ... وخالدٌ في سبيلِ اللهِ صاليها

وهذا عكرمة رضي الله عنه الذي نبت في بيت رأس الكفر أبي جهل، يقلبُ مقلبُ القلوبِ قلبَه، فيتسرب النور إلى قلبه، ويذوق فؤادُه حلاوة هذا الدين! فتتغير أمورُه، ويرافق المصحفَ فيما تبقى من رحلة عمره، وكله شوق إليه وحبٌّ له، فيصنع الأعاجيب (فكان من حسن إسلامه، أنه إذا نشر المصحف يقول: هذا كلام ربي فيغشى عليه!)[1].

ويأبى إلا أن يبرهن على ما خالط شغافَ قلبه من إيمان، ولم يجد أشد برهنة على ذلك، من أن يجلل أعماله بذروةِ سنام الإسلام، ويسطر ذلك على صفحةِ جسده الطاهر بالسيوفِ والسهام! فقد قال رضي الله عنه يوم اليرموك: «قاتلتُ رسولَ الله في كل موطن، وأفرُّ منكم اليوم!؟ ثم نادى: من يبايعُ على الموت؟ فبايعه الحارثُ بن هشام وضرارُ بن الأزور في أربعمائةٍ من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاطِ خالد، حتى أثبتوا جميعًا جراحًا وقتلوا إلا من برأ!»[2].

وهذا سهيل بن عمرو رضي الله عنه الذي أُسِر يوم بدر كافرًا، وكان خطيبَ قريش، فقال عمر: يا رسول الله انزع ثنيته يدلعْ لسانه، فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا، فقال ﷺ: «دعه، فعسى أن يقوم مقامًا تحمده!»[3]، فتتحققُ نبوءة النبي فيه، فبعد أن فارق

(١) «فيض القدير» (جـ٤ صـ٥١٥).

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٣٨)، «الإصابة» (جـ٤ صـ٥٣٨).

(٣) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٢٠٠)، «الاستيعاب» (جـ٢ صـ٦٦٩).

النبيُّ دنيا الناس، وعظم الخطب على أصحابه، وزلت عقولُ بعضهم من هول المصاب، واحتاج الناس إلى من يثبِّت الإيمان في قلوبهم، ويردُّ الرشد إلى عقولهم، ويعود بالأمور إلى نصابها.

وكان على رأس هؤلاء صدِّيق الأمة ﷺ في المدينة المنورة، ولكن من لأختها مكة أم القرى؟ إنه سهيلٌ ﷺ الذي سهل الله به أمر صلح الحديبية من قبل، حينما كان في صف قريش، «فقد قام بمكة خطيبًا، لما ارتد من ارتد من العرب عند وفاة رسول الله ﷺ، بنحو من خطبة الصديق بالمدينة! فسكَّنهم وعظم الإسلام»[1].

أسلم سهيلٌ ﷺ فحسن إسلامه، وصدق اللهَ فصدقه الله، و«بلغ من إسلامه أنه هاجر إلى الشام وقتل شهيدًا، وخطب يوم اليرموك خطبة بلغت من الناس مبلغًا كانت سببًا للفتح!»[2].

وهذا حكيم بن حزام ﷺ وقد كان عمودًا من أعمدة جيش الكفر، تتحقق فيه نبوءة النبي ﷺ، فينضم إلى ركب من ﴿...يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩]، فيتاجر مع الله بُغية ثوابه وجزاءِه، وطمعا في أجره وعطاءِه، فقد «باع داره من معاوية ﷺ بستين ألفًا، فقالوا: غبنك والله معاوية، فقال: ما أخذتها في الجاهلية إلا بزقِّ خمر! أشهدُكم أنها في سبيل الله والمساكين والرقاب، وأيُّنا المغبون؟»[3].

أقبل حكيم على الله بمجامع نفسه، وطرح ما كان من معتقداتٍ جاهلية، ومن تفاخر وتباهي بها هدمه الإسلام في نفوس معتنقيه، فقيل: «إنه باع دار الندوة من معاوية بمئةِ ألف، فقال له ابن الزبير ﷺ: أتبيع مكرمة قريش!؟ فقال: ذهبت المكارمُ يا ابن أخي إلا التقوى، إني اشتريت بها دارًا في الجنة، أشهدكم أني

(١) «الاستيعاب» (جـ٣ صـ٦٧٠)، «سير أعلام النبلاء» (جـ١ صـ١٩٤).
(٢) «فيض القدير» (جـ٤ صـ٥١٥).
(٣) الطبراني في «الكبير» (٣٠٧٣).

قد جعلتها لله»[1].

وقد استعذب حكيمٌ ﷺ تقديم ما عنده من نعم الله ابتغاء مرضاة المُنعم، فما من مناسبةٍ تمرُّ به، إلا ويريد أن يُري اللهَ صدق نفسه، وأن يقيم برهانًا منه على أن الشحَّ قد انسل منها، يوم انسلال الكفر وابتعاده عنه إلى غير رجعة، فعن مصعب بن ثابت قال: «بلغني - والله - أن حكيم بن حزام حضر يوم عرفة ومعه مئة رقبة، ومئة بدنة، ومئة بقرة، ومئة شاة، فقال: الكلُّ لله!»[2].

«فالجهاد لا يعني الحقدَ على الكافرين، وقد دل على ذلك أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله ﷺ عند منصرفهم لحصار الطائف: ادع الله على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفًا، وأتِ بهم»[3]، وهذا يعني أن الجهاد ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإنما هي مسؤولية الناس كلهم بعضهم تجاه بعض، لمحاولة إعتاق أنفسهم يوم القيامة، ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين لا ينبغي أن يتجه إلى غيرهم إلا بالهداية والإصلاح، لأن هذه الغاية هي الحكمة من مشروعية الجهاد»[4].

هذه هي العظمة التي جاء بها الإسلام، وهذه هي الأخلاق التي جاء النبي ﷺ لغرس مبادئها، وإرساء دعائمها وأسسها، وبهذا انتصرت الأمة وارتفعت رايتها، حين عظم إيمان الأتباع بالإسلام، وتوفر فهمهم الشمولي للدين، وبذلوا كل ما في وسعهم لنصرته، وقد صدق فاروق الأمة عمر بن الخطاب ﷺ فقد قال: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[5]،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (جـ٣ صـ٥٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (جـ٣ صـ ٥٠).

(٣) رواه أحمد (١٤٧٤٣)، ابن أبي شيبة - واللفظ له - (٣٢٤٩٦، ٣٦٤٥٩).

(٤) «فقه السيرة للبوطي» (صـ ٢٩٣).

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٠٧).

ولله در القائل:

وجيلُ النصرِ لا يُبنَى بغيرِ الدِّينِ والدرس
جهادٌ دون إيمانٍ كبنيانٍ بلا أُسٍّ
يعيشُ ليُرضيَ الرحمنَ لا للبطنِ والجنس
ويلزمُ منهجَ الإسلامِ إذ يُضحي وإذ يُمسي
وينصرُه ببذلِ الروحِ كالخزرجِ والأوس
يفكرُ كابنِ خلدونَ وفي اليدِ سيفُ بيبرس
يرى المصحفَ والرشاشَ خِدْنَيْ دربِه القدسي
فيُرسلُ نارَه حُمَمًا ويقرأ آيةَ الكرسي!
يردُّ الرمحَ بالرمحِ ويرمي القوسَ بالقوس!
ويدعو اللهَ في سحرٍ وفي صلواتِه الخمس
ولا يرتاعُ من جنٍّ ولا يَوجلُ من إنس!

□□□

الفصل الثاني

حكم الحروب والحكمة منها

إن من أجال النظر في تاريخ الأمم والشعوب، في شرق الأرض وغربها، وفي مختلف عصورها، رأى أن الأرض لم تطمئن يومًا، ولم ينعم أهلها بخلوها من الحرب والقتال، وقد سجل القرآن الكريم بعض هذه الحروب التي دارت بين أهلها، وساق لنا طرفًا من عجلة هذا الصراع التي دارت بين أهل الخير والشر، بدءًا بابني آدم الذين قتل أحدهما أخاه!

قال الله - مصورًا هذه الواقعة، وآمرًا نبيه أن يتلوها على من تبعه، ليقدروا بشاعة القتل، وخطورة القتال وإن كان من فرد واحد -: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢٧- ٣٠].

ويستعرض القرآن طرفًا من الحرب، التي أمر الله نبيه موسى ﷺ أن يخوضها هو وقومه ضد أعدائهم، ولكنهم جبنوا وتركوه وأخاه ليس معهما أحد منهم إلا القليل! فيقول ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا

لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

وها هم بعد موسى، يسألون أحدَ أنبيائهم أن يبعث لهم ملكًا ينضوون تحت لواءه مقاتلين، فقد وقع عليهم الظلم، وذاقوا الذل، فيسجل الله ﷻ هذا قائلًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ويتحدث القرآن عن حرب من الحروب التي خاضها نبيُّ الله داود ﷺ، فانتصر فيها وقتل عدوه، فأنعم الله عليه بنعمتي الملك والحكمة فيقول: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ...﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

ويذكر الله جملة من الحروب مرة واحدة، وأن أنبياءَ كثيرين خاضوها مقاتلين، وأن المخلصين من أتباعهم كانوا في أوائل الصفوف، لم يتخلوا عنهم برغم ما عانَوه وقاسَوه منها، يقول ربنا ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ...﴾ [آل عمران: ١٤٦] .

والعقلاء من الناس - قديمًا وحديثًا - يعرفون أضرار القتال ومفاسد الحروب،

وأنها تزهق الأرواح، وتهلك الحرث والنسل، وتقضي على الأخضر واليابس، وتمحو الأمن والأمان، وتشل بها حركة الحياة، فلا يحس الإنسان بطعم راحة، ولا يذوق للنعيم حلاوة، وقد وصف طرفًا من هذا أحدُ عقلاء الجاهلية، وهو يذكِّر قومه بأخطارها، وينبههم إلى ما تجرُّه على الناس من ويلات، وهو زهير بن أبي سلمى فقال:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّم

متى تَبعثوها تَبعثوها ذميمةً ... وتضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرَم

فتعرُككم عرْكَ الرَّحى بثِفالِها ... وَتلقحْ كِشافًا ثمَّ تَحملْ فتُتئِم

فتُنتِجْ لكم غِلمانَ أشأمَ كلُّهُم ... كأحمرِ عادٍ ثمَّ تُرضِعْ فتفطم

وقال أخٌ له في العصر الحديث، وهو الشاعر أحمد محرم - وهو يبين أن شبح الحرب لا يخلِّف وراءه إلا الدمار والهلاك-:

الحربُ هادمةُ الشعوبِ وإنها ... للشرِّ بينَ العالمينَ لِقاحُ

تَخبو وتَقتدحُ الحقودُ رمادَها ... كالنار هاج كمينَها المِقداحُ

صَدْعٌ وإن طال المَدى مُتفاقِمٌ ... ودَمٌ وإن جفَّ الثَّرى نضَّاحُ

أرأيتَ مَن ذهبَ الرَّدى بعتادِها ... فإذا العَتادُ تفجُّعٌ ونُواحُ؟

وإذا الحياةُ سفينةٌ لعبتْ بها ... هُوجُ الرِّياح وخانها المَلاحُ

لذلك نهى ديننا الإسلامي عن القتل، وعدَّه من كبائر الذنوب والمخالفات الشرعية، قال المولى ﷻ: ﴿...وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ [الأنعام:١٥١، الإسراء:٣٣]، وبيَّن أن استحياءَ النفس واستبقاءها أو التسببَ في إنقاذها، هو بمثابة إنقاذ الناس كلهم، لأنه ليس هناك فرق بين هذه النفس التي أُنقِذت، وبين النفس الأولى[1] التي خلق الله منها البشر، ووزعهم على ظهر هذه البسيطة، قال ربنا ﷻ:

---

(١) النفس الأولى هي: نفس آدم، وليس هناك فرق بينهما في أن كلا من النفسين يجب أن تحترم =

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾[1] [المائدة:٣٢].

والإسلام يَعُدُّ الأمن في المجتمعات، والسلام بين الناس، وعدم المواجهة بينهم في الحروب، من أعظم نعم الله التي يكرم بها عباده، فيتحدث الله ﷻ إلى أصحاب النبي ﷺ ممتنا عليهم بذلك قائلًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح:٢٤]، وقال ﷻ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥]، قال قتادة: «قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا...﴾ وذلك يوم أبي سفيان والأحزاب، رد الله أبا سفيان وأصحابه بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال بالجنود من عنده، والريح التي بعث عليهم»[2].

وقالت عائشة: «﴿...الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ها هنا أبو سفيان وعيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تهامة، ورجع عيينة إلى نجد، ﴿...وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ...﴾ بأن أرسل عليهم ريحًا وجنودًا حتى رجعوا، ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم، فكفى أمر قريظة بالرعب، ﴿...وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا...﴾ أمره ﴿...عَزِيزًا﴾ لا يغلب»[3].

وكيف لا يكون الأمر كذلك، وقد أمره ربه أن يقبل الصلح مع خصومه، وأن يجنح إلى السلم معهم، ما جنحت نفوسهم إليه، وصدقت فيه نياتهم، فقال له: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١].

= وتصان ولا تهدر، وإن كان آدم هو صفوة الله.

(١) إن كانت هذه الآية تبين أن الحكم كتبه الله على بني إسرائيل، فإن علماء الأصول يقولون: شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد نص يخالفه، وهذه الآية ليس في الشرع ما يخالفها.

(٢) «تفسير الطبري» (جـ٢١ صـ١٤٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (جـ١٤ صـ١٦٠).

وهذا هو السبب في أن النبي ينهى أمته، أن تتمنى نشوب الحرب ووقوعها بينهم وبين الأعداء، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي قال: **«لا تمنَّوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا»**[(١)]، وأمر أصحابه يوم بدر بالكف عن مجموعة معينة، وما ذاك إلا لأنهم خرجوا مستكرهين، ولأن بعضهم لم يشترك في إيذاء المسلمين بمكة، بل شاركوا في نقض الصحيفة الجائرة، التي علقت على الكعبة، وقوامها قطع العلاقات بين المجتمع الواحد، وهو بهذا يطمع في إيمانهم.

فعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: **«إني قد عرفت أن رجالًا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهًا»**[(٢)]، «وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري، لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيءٌ يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب»[(٣)].

ولهذا أيضًا كان النبي ﷺ يشجع أصحابه على دعوة أعداءه قبل الحرب، عسى الدماء أن تحقن، وعسى هداية الله أن تتنزل عليهم فيعيشوا إخوانًا مع المسلمين، ويحلف أن غنائم الحروب، وكنوز الأرض كلها، لا تعدل عنده هداية رجل واحد من الذين يقاتلونه، فعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر: **«لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»**، فبات الناس ليلتهم: أيهم يعطي؟ فغدوا كلهم يرجونه، فقال: **«أين علي؟»** فقيل: يشتكي عينيه،

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٣)، مسلم (١٧٤١)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٣٤)، أحمد (١٠٧٨٤) عن أبي هريرة، وفي رواية ابن أبي أوفى زاد: «واسألوا الله العافية» وهي في «الصحيحين» وغيرهما.

(٢) «تاريخ الأمم والملوك» (جـ٢ صـ٣٤).

(٣) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (جـ٤ صـ١٤٦٠).

فبصق في عينيه، ودعا له فبرأ، كأن لم يكن به وجع!

فأعطاه، فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلِك، حتى تنزل بساحتِهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلًا، خيرٌ لك من أن يكون لك حُمُرُ النعم»[1].

وكان النبي ﷺ إذا ما وقع من أصحابه قتل - ولو كان على سبيل الاجتهاد الخطأ غير المقصود - يغضب ويُعرف هذا في وجهه، ويبرأ من هذا الفعل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث النبي خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر!

ودفع إلى كلِّ رجل منا أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كلُّ رجل منا أسيرَه، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي فذكرناه، فرفع النبي يديه فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين»[2].

بل إن النبي ﷺ لم يكتف بغضبه على القاتلين، ولا ببراءته من أفعالهم، وإنما أرسل من يمثله إلى أهل القتلى معتذرًا، وبعث إليهم دياتٍ من قتل منهم، وتعويضًا عما أصابهم من إتلاف، وزادهم حتى رضوا!

فعن محمد الباقر رحمه الله قال: «دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك،

---

(١) البخاري - واللفظ له - (٢٨٤٧)، مسلم (٢٤٠٦)، النسائي في «الكبرى» (٨١٤٩)، ابن حبان (٦٩٣٢)، أبو يعلى (٣٤٥)، الطبراني في «الكبير» (٥٨١٨).

(٢) البخاري (٤٠٨٤، ٦٧٦٦)، النسائي في «الكبرى» (٥٩٦١)، وفي «المجتبى» (٥٤٠٥)، أحمد (٦٣٨٢)، عبد الرزاق (٩٤٣٤)، ابن حبان (٤٧٤٩).

فخرج علي حتى جاءهم، ومعه مال قد بعث به رسول الله، فَوَدَى[1] لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال، حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب!

حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال، ومعه بقية من المال، فقال لهم عليٌّ حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يُوْدَ لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطًا لرسول الله ﷺ، مما يعلم ولا تعلمون، ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: أصبت وأحسنت»[2].

وقد حدث هذا الغضب أيضًا من النبي ﷺ، مع عبد الله بن جحش رضي الله عنه وسريته، حين بعثهم إلى نخلة[3] يرصدون قريشًا، ويأتونه بأخبارهم، ولم يأمرهم بقتال، فاجتهدوا فوقع منهم قتل وأسر، وظل الأمر كذلك حتى أنزل الله قرآنًا يصوّب ما فعله عبد الله وأصحابه، لأن قريشًا كانت قد ظلمت المسلمين كثيرًا، وهذا سردٌ لما حدث:

«... فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن رضي الله عنه وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمِنوا، وقالوا: عُمَّار لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلُنَّ الحرم فليمتنعُن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنَّهم في الشهر الحرام!

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسَهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي رضي الله عنه

---

(١) ودَى: دفع الديات.

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ٩٦)، محمد الباقر، وأبوه زين العابدين - رحمهما الله - لم يدركا النبي ﷺ.

(٣) نخلة: اسم موضع من المواضع القريبة من مكة.

عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم.

وأقبل عبد الله بن جحش ﷺ وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فلما قدموا على رسول الله المدينة قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام! فوقف العيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام! وسفكوا فيه الدم! وأخذو فيه الأموال! وأسروا فيه الرجال!

وقالت يهود - تفاءَلُ بذلك على رسول الله -: عمرو بن الحضرم قتله واقد بن عبد الله! عمرو عمرت الحرب! والحضرم حضرت الحرب! وواقد بن عبد الله وقدت الحرب!

فجعل الله ذلك عليهم لا لهم، فلما أكثر الناسُ في ذلك أنزل الله ﷻ على رسول الله ﷺ: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ... ﴾ [البقرة:٢١٧] أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه - وأنتم أهله - أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ﴿...وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ...﴾ [البقرة:٢١٧] أي: قد كانوا يفتنون من أسلم في دينِه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانِه، فذلك أكبرُ عند الله من القتل ﴿...وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...﴾ [البقرة:٢١٧] أي: هم مقيمون على أخبث من ذلك غير تائبين ولا نازعين، فلما نزل القرآنُ بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله العيرَ والأسيرين»[1].

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٥، ١٦)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٤٨: ١٥٠)، ورواه =

ومع هذا كله فقد وُجد في بني آدم من يتجاهل أضرارَ الحروب ويغضُّ طرفه عنها! ووجد من يسوم الخلق سوءَ العذاب! ومن يعتدي على الآمنين ويبطش بهم! ومن لا يدين بالحق والعدل، ولا يرى للآخرين حرية ولا عزة ولا كرامة! فيعتدي على أرواحِهم ومقدساتهم وممتلكاتهم، ولا يستجيبُ لصوت العقل وداعي الضمير!

فكان لابد من وقفة مع هؤلاء، ترد الأمور إلى نصابها، فتوقف طغيان المتجبرين، وتحُد من اعتدائهم وبغيهم، وتضمن للصالحين المسالمين ما يضمن لهم معيشة هادئة، وحياة سعيدة مستقرة، حتى لا تفسد الحياة على هذه الأرض: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، فأنزل الله ﷻ لهذا السبب قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٣٩- ٤٠]، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

فلابد للحق من جيش يدافع عنه ويحميه، «والدولُ تحتاج إلى الكتائب في البر، والأساطيل في البحر والجو، وكلُّ سلاح عونٌ لأخيه في إدراك النصر، وأسبقُ الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلًا من العدو، وأرعاهم لذمام أمته وشرف عقيدته، سواء مشى، أم رمى، أم أبحر، أم طار»[1].

= مختصرًا - النسائي في «الكبرى» (٨٨٠٣)، أبو يعلى في «مسنده» (١٥٣٤)، الطبراني في «الكبير» (١٦٧٠).

(١) «فقه السيرة للغزالي» (صـ ٢٢٨).

فالحربُ بمثابة الدواء المرّ، الذي يجب على المريض أن يتناوله، لما يترتب عليه - بإذن الله - من بُرء وعافية، وهي كعملية البتر للعضو الفاسد، الذي إن بقي أضر ببقية الأعضاء، وتسبب في إتلاف الجسد كله، فهي «أبغض الأشياء إلى النفس المؤمنة، ذلك أن قوام الحرب قتل النفس البشرية، والمؤمن لا تسوِّغ له نفسه أن يهدم ما بناه الله، ولذلك ذكر القرآن الكريم أن الحرب أمر مبغَّض للمؤمنين، لا يحبونه ولا يرتضونه لذاته، ولكن قد يقبلونه إذا أمر الله به وكتبه عليهم لأنه خير لهم.

وإن هذا الأمر المبغَّض قد تقتضيه الرحمة الإنسانية ذاتها، فإن ترك الطغيان يتحكم في الضعفاء، لا يعد ذلك من الرحمة في شيء، والرحمة الحقيقية توجب رد الطغيان.

وإن الرحمة الإنسانية العامة، التي دعا إليها النبيون - وخصوصًا نبينا محمد -، لتوجب ألا تُترك الرذيلة تعتدي على الفضيلة، ولا الشر يطغى على الخير، بل إن الرحمة توجب نصر الحق والفضيلة وردّ الشر.

فالحرب في الإسلام ضرورة، أوجبها قانونُ الرحمة العادل، وقانونُ الأخلاق والسلوك الإنساني السليم»[1].

وإن نظرنا إلى الحرب والقتال، وما يترتب عليهما من أضرار ومفاسد، فلا يجب علينا أن نغضَّ الطرف - بقدر الضرورة - عما يكون كامنا فيهما من بعض المنافع والفوائد التي تكون لصالح البشرية، فرُبَّ ضارةٍ نافعة، وفي هذا قال الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

لذا نجد الأمر القرآني موجهًا للنبي ﷺ بأن يكون هو ومن تبعه غِلاظًا شدادًا، مع من لا يُجدي معه الرفق واللين، ولا يُفيد معه منطق العقل والفكر، فيقول له ربه

---

(١) «العلاقات الدولية في الإسلام» (صـ٨٩).

ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣] ويقول ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

فيستجيب النبيُّ ﷺ لأمر ربه، ويجعل الجهاد - بضوابطه وشروطه - في أعلى مرتبة من مراتب هذا الدين، وفي قمة صرحه الشامخ، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «... **ألا أخبرك برأس الأمر وعمودِه وذروةِ سنامه؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروة سنامه الجهاد..** »[1]

ويجعل النبيُّ الموت في قتال كهذا نوعًا من أنواع الشهادة، التي ينال صاحبها أعلى درجات الجنة، ويحصل بسببها على رضوان الله، فيقول ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**»[2].

قال أحمد شوقي:

الحربُ في حقٍّ لديكَ شريعةٌ ... ومن السُّمومِ الناقعاتِ دَواءُ!

«وإذا كانت القاعدة هي السلام، والحربُ هي الاستثناء، فلا مسوِّغ لهذه الحرب - في نظر الإسلام - مهما كانت الظروف، إلا في إحدى حالتين:

الحالة الأولى: حالة الدفاع عن النفس، والعِرض، والمال، والوطن عند الاعتداء...

---

(١) النسائي في «الكبرى» (١١٣٩٤)، الترمذي (٢٦١٦)، ابن ماجه (٣٩٧٣)، أحمد (٢٢٠٦٩)، الحاكم (٢٤٠٨)، الطبراني في «الكبير» (جـ٢٠ صـ١٤٣)، البيهقي في «الشعب» (٢٨٠٦).

(٢) البخاري (٢٣٤٨)، مسلم (١٤١)، أبو داود (٤٧٧٢)، النسائي في «الكبرى» (٣٥٤٧)، الترمذي (١٤١٨)، ابن ماجه (٢٥٨٠)، أحمد (٧٠٣٠)، ابن أبي شيبة (٢٨٠٤٧)، الحاكم (٦٦٩٧)، ابن حبان (٣١٩٤). البزار (١٢٠٧)، أبو يعلى (١١٣).

الحالة الثانية: حالة الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف أحد في سبيلها بتعذيب من آمن بها، أو بصدِّ من أراد الدخول فيها، أو بمنع الداعي من تبليغها...»[1].

ومع هذا «فهي حرب رفيقة تتسم بالتأليف لا بالتقتيل، وبالمحافظة على الأنفس لا باستباحتها من غير ضرورة، وهي تمنع الإتلاف في الأنفس أو الأموال إلا لضرورة تلجئ»[2].

❑ ❑ ❑

(١) «فقه السنة» (جـ٣ صـ١٧).

(٢) «العلاقات الدولية في الإسلام» (صـ٩٦).

الفصل الثالث

شبهة لا بد من دحضها
وهي قولهم: [إن الإسلام انتشر بالسيف]

إن عداء أعداء الإسلام له ولأهله أمر قديم، وهم يبذلون في سبيل هذا العداء كل غال ونفيس! ويجندون كل طاقاتهم الحسية والمعنوية في سبيل النيل من الإسلام وأهله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، وإنهم لا يرضون لأمة الإسلام الخير، ولا يصْفون لها إلا إذا ما تزحزحت عن دينها واعتنقت أديانهم، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...﴾ [البقرة:١٢٠]، ولا ينقادون للبراهين مهما كانت ساطعة! ولا للأدلة مهما كانت قاطعة! قال المولى ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ...﴾ [البقرة:١٤٥]، ولله در الفرزدق إذ قال:

ولو اسقيتُهم عسلا مُصَفّى	بماء النيلِ أو ماء الفراتِ
لقالوا: إنه مِلحٌ أجاجٌ	أراد به لنا إحدى الهَنَاتِ!

ولكنَّ الله قد طمأن أهلَ الإيمان به، بأنه حافظٌ دينه مهما كاد له الكائدون، ومُتمٌ نورَه مهما حاولوا إطفاءَه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]، وبأنه ناصر من تمسك بهذا الدين ودافع عنه، قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وبأنه خاذل من عاداه وناوأه، قال الله ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ

﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

ومن وسائل محاربتهم لهذا الدين، أنهم يُثيرون الشبهات حوله، ويبحثون عن العيوب والنقائص ليلزقوها به، فيشوِّهوا سمعته، ويدنسوا ثوبه النظيف الطاهر، فمرة ينتقصون الله أو كتابَه! وتارة يعيبون النبي أو أصحابَه! وحينًا يلمزون السنة النبوية! وأخرى يقدحون في الأحكام الشرعية! وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على حقدِهم الدفين، وجهلِهم بهذا الدين، فمن جهل شيئًا عاداه، وهو- كذلك - يدل على التواء فطرهم، وخبث قلوبهم التي انطوت على هذا، قال المولى ﷻ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ...﴾ [الأعراف:٥٨]، ثم عبَّرت الألسنة عن بعض ما تكنُّه القلوب وتخفيه، ﴿...قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ...﴾ [آل عمران:١١٨] .

ومن هذه الشبهات التي أثارها أعداءُ الإسلام، قولهم: إن الإسلام انتشر بالسيف! ولم يدخل من دخل فيه إلا بمنطق القوة والبطش! وإن رسوله محمدًا كان مصَّاصًا للدماء! ما إن يفرغ من غزوةٍ حتى يستأنفَ غيرها! وما إن ينتهي من إبادة قبيلة إلا ويجددُ العزمَ على البطش بأختِها! وجاءوا بهذه الشبهة - كغيرها من الشبهات - وحاكوها ونسجوا ثوبها، وروَّجوا لها بكل ما يستطيعون من دعايةٍ وإعلام، لدرجةِ أن بعض المسلمين من أنصاف المتعلمين وغيرهم، كادوا أن يتشككوا، أو - على الأقل - بدأوا يسألون عن إجابةٍ عن هذه الشبهة، أو ردٌّ على من يروِّجونها.

وإننا نقول: إن هذه الشبهة لا تساوي الحبرَ الذي كتبت به، وإنهم جهلوا فقالوا! وحيث وجب عليهم أن يسجدوا بالوا! ﴿...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، وإننا سنُجمل ردنا على هذه الشبهة في النقاط الآتية:

١- لم يبتدع الإسلامُ الحربَ والقتال، وإنما كانا موجودين من القديم، وعند

كل الأمم، ويكفي أن الأمة العربية التي اختار الله منها نبيه محمدًا ﷺ، كان القتال فيها يجري في دماءهم، ويستحوذ على جُلِّ أوقاتهم، لدرجة أن بعض الحروب كانت تستغرق عشرات السنين، من أجل شيء حقير تافه!

وإن مجرد نظرة في تراثهم الذي سجل حياتهم وأيامهم، لكافية في تصوير ما كانوا يعيشونه من حروب، فإن سمع الواحدُ منهم صوتًا يدعو إلى الحرب، طار إليه ملبيًا من غير أن يسأل: مع من؟ أو: أين؟ أو: لم؟ قال قريط العنبري:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحدانا!

لا يسألون أخاهم حين يندُبُهم ... في النائباتِ على ما قال برهانا!

وكان من حبِّهم للحروب وتعوُّدِهم عليها، أنهم إن وجدوا من يتقاتلون معهم تقاتلوا، وإن لم يجدوا شنوا الحرب على أنفسهم وإخوانهم! قال القطاميُّ التغلبي:

وأحيانًا على بكرٍ أخينا ... إذا ما لم نجدْ إلا أخانا!

وهم في حروبهم لا تأخذهم رأفة أو شفقة، فلا عليهم إن قضَوا على القبيلة كلها، أو استأصلوا شأفتها، فأصبحت خبرًا بعد عين، صوَّر هذا المعنى أحدُ شعراءهم وفرسانهم، في إحدى القصائد التي كتبت بماءِ الذهب وعلقت على الكعبة، وهو عمرو بن كلثوم فقال:

متى ننقلْ إلى قومٍ رَحانا ... يكونوا في اللقاءِ لها طحينا!

يكونُ ثِفالُها شرقيَّ نجدٍ ... ولُهوتُها قُضاعَةَ أجمعينا!

وهذا الحارثُ بن عبَّاد، بعد أن قُتل ابنه بُجير، يُعرض عن الصلح ولا يقبله، إلا بعد شرط واحد اشترطه على نفسه، وهو أن يملأ كلَّ صحراءَ في أرض العرب، من رؤوس أعداءِه بعد أن يفصلها عن جثثِها! فيقول:

يا بُجَيرَ الخيراتِ لاصلحَ حَتى ... نملأ البيدَ من رُؤوس الرجال!

وَتقرَّ العُيونُ بعدَ بُكاها ... حينَ تَسقي الدِّما صُدورَ العَوالي!

وما حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، ويوم بُعاث، وحرب الفِجار وغيرها، بخفيةٍ عمن يقلب في صفحات تاريخ هذه الأمة العربية، أو يستعيد أشعارها، وكذلك كان الحال مع بقية أمم الأرض وشعوبها، فكم من حرب خاضها الهكسوس والفراعنة والبابليون والآشوريُّون والفينيقيُّون والروم والفرس والهنود وغيرهم؟

ولما جاء الإسلام قضى على الكثير من العداوات، وأخمد العديد من نيران الخصومات والفتن، ولا يخفى علينا ما كان قائمًا قبيل هجرة النبي ﷺ، بين الأوس والخزرج من قتال، فقضى الإسلام عليه، وغرس مكانه الحب والأخوة والإيثار، وذكَّرهم الله بنعمته في ذلك فقال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وإنك لترى أصحابَ النبي ﷺ من مختلف قبائل العرب وبطونها، فأبو بكر قرشيّ، وأبو أمامة باهلي، وأبو موسى أشعري، وأبو هريرة دوسي، والمغيرة بن شعبة ثقفي، وكعب بن زهير مُزني، وسعد بن معاذ أوسي، وسعد بن عبادة خزرجي! ولو تجاوزتَ البطونَ والقبائل إلى الأمم والشعوب والأديان، لرأيت مثل ذلك، فعليٌّ بن أبي طالب عربي، وبلال بن رباح حبشي، وسلمان فارسي، وصهيب رومي، وعبد الله بن سلام كان من أحبار اليهود، وعدي بن حاتم كان يدين بالنصرانية! وقد سوى الإسلام بينهم جميعًا، ولم يزنْ إلا بميزان التقوى والعمل الصالح.

٢- إن النبي ﷺ لم يخض معركة، ولم يدخل حربًا، إلا مضطرًا بعد أن استنفد كل أساليب السلم، ووسائل الحوار، وطرق التفاهم، فكانت هذه الحروبُ بمثابة الشر الذي لابد منه، لإزالة شرور أخطر منه، فلم يُفرَض القتال إلا بعد الهجرة، وقد بقي النبي ﷺ قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة، وهو يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله

تفلحوا، ثم حمل السيف بعد الهجرة مرغمًا، بعد أن أنزل الله ﷻ عليه قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...﴾ [الحج:٣٩]، ولم يقاتل لينشر دعوته بالسيف، كما ادعى أصحاب هذه الشبهة.

«وقد فطِن لسُخفِ هذا الادعاء كاتبٌ غربي كبير، هو توماس كارليل صاحب كتاب (الأبطال وعبادة البطولة)، فإنه اتخذ محمدًا مثلًا لبطولة النبوة! وقال ما معناه: إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخفٌ غير مفهوم! إذ ليس مما يجوز في الفهم، أن يُشهرَ رجل فردٌ سيفه، ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها»[1]، ورحم الله أحمد شوقي فقد قال:

قالوا: غزوتَ ورُسْلُ اللهِ ما بُعثوا	بقتل نفس ولا جاءُوا لسفكِ دمِ
جهلٌ وتضليلُ أحلام وسفسطة	فتحتَ بالسيفِ بعد الفتح بالقلم
والشرُّ إن تلقهُ بالخير ضقتَ بهِ	ذرعًا وإن تلقهُ بالشرِّ ينحسم

وقال الشيخ الغزالي: «دخل الإسلام المدينة، وأحزابُ الكفر تطارده من كل ناحية، فأوى المسلمون إلى مهجرهم، كما يأوي الجنديُّ إلى قلعته الشامخة، وأخذوا يستعدون حتى لا تُقتحم عليهم من أقطارها، وهم تعلموا من السنين الغبر، التي مرت عليهم في مكة، أن الضعف مدرجة إلى الهوان، مزلقة إلى الفتنة، والمرء لا يقدِّر العافية حقَّ قدرها، إلا بعد الإبلال من المرض، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلص من ذل الحاجة.

ومَن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادةِ من عبر الماضي؟ ذلك نبيُّهم تعقبه

(١) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (صـ١٨٧).

القتلة ألف ميل ليغتالوه، وذلك سواد المهاجرين نُهب مالهم، وسلبت دورهم، وشردوا من البلد الحرام، إن حالة الحرب قائمة - يقينًا - بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد، ومن السَّفهِ تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام»[1].

٣- إن المسلمين لم يقاتلوا إلا من قاتلهم، ولم يجاهدوا إلا ردا على الاعتداء الذي وقع عليهم، كما قال الله ﷻ: ﴿... فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩١]، وقال ﷻ: ﴿... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ...﴾ [البقرة:١٩٤]، ويعرف هذا من نظر نظرة عابرة - إن كان منصفًا - إلى قول المولى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ... ﴾ [الفتح:٢٥].

قال العقاد: «ولم يعمد المسلمون قط إلى القوة، إلا لمحاربة القوة التي تصدهم عن الاقتناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها، لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء.

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها، ولذلك حاربوا الفرس، لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب النبي ﷺ، أو ضرب عنقه، وإرسال رأسه إليه! وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك، فبادرهم النبي ﷺ بتجريد السرية المشهورة إلى تخوم الحجاز الشمالية، وعادت السرية بغير قتال، حين وجدت في تبوك أن الروم لا يتأهَّبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام»[2].

٤- إن النبي ما أراد حربًا، ولا رغب في قتال، وقد خاض ما خاضه كارهًا، وإن كلماته التي خرجت من فمه الطاهر، في المواقف المختلفة، لتنِمُّ عما كان يجول في خاطره، من كره للقتل والقتال، ومن إشفاقه على الأعداء، ورأفته بهم، ومن رغبته

---

(١) «فقه السيرة للغزالي» (صـ ٢٢٤).

(٢) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (صـ ١٨٨).

في السلم وحقن الدماء.

من ذلك أنه لما سمع بأبي سفيان مقبلًا من الشام ندب المسلمين إليه، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله يلقى حربًا»[١].

ومن ذلك أنه ﷺ «خرج عام الحديبية، يريد زيارة البيت، لا يريد قتالًا، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة نفر...»[٢].

ومنها أيضًا أنه ﷺ عندما علم أن قريشًا تريد منعه قال: «... يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب! ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[٣]...»[٤].

ومن ذلك أنه ﷺ وهو في طريقه للحديبية، كره أن يصطدم أصحابه بقريش، فأراد أن يسير في طريق بعيد عنهم، فقال ﷺ: «من رجل يخرج بنا عن طريقهم التي هم بها؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا أجرل بين شعاب...[٥].

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٢٣)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٥٢، ١٥٣).

(٢) أحمد (جـ٤ صـ٣٢٣)، ابن خزيمة (٢٩٠٦)، الطبراني في «الكبير» (جـ٢٠ صـ١٥)، البيهقي في «السنن» (٩٩٧٧).

(٣) تنفرد السالفة: تقطع الرقبة بالموت.

(٤) أحمد (جـ٤ صـ٣٢٣)،الطبراني في «الكبير» (جـ٢٠ صـ١٥).

(٥) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٧٦).

ومن رغبتِه في السلم قوله ﷺ: «...أما والله لا يدعوني اليوم إلى خطة، يعظمون فيها حرمة، ولا يدعوني فيها إلى صلة، إلا أجبتهم إليها... »[١].

٥- إن النبي كان يأمر أصحابَه بالعدل مع الغير، وعدم ظلم أهل الملل المخالفة، والكفِّ عن إلحاق الأذى والضرر بأي أحد، قال رسول الله ﷺ: «ألا من ظلم معاهَدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجُه يوم القيامة»[٢].

وقال ﷺ: «من قتل معاهَدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجدُ من مسيرة أربعين عامًا»[٣]، وقال ﷺ: «لا ضرر ولاضرار»[٤].

٦- «كان جميعُ ما غزا رسولُ الله ﷺ بنفسه سبعًا وعشرين غزوة:

١- غزوة ودان (الأبواء)
٢- غزوة بواط
٣- غزوة العشيرة
٤- غزوة بدر الأولى
٥- غزوة بدر الكبرى
٦- غزوة بني سليم
٧- غزوة السويق
٨- غزوة غطفان (ذي أمر)
٩- غزوة بحران
١٠- غزوة أحد
١١- غزوة حمراء الأسد
١٢- غزوة بني النضير

---

(١) أحمد (جـ٤ صـ٣٢٣)، ابن أبي شيبة - واللفظ له - (٣٦٨٥٥).
(٢) أبو داود (٣٠٥٢)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٢٠٥).
(٣) البخاري - واللفظ له - (٢٩٩٥)، أبو داود (٢٧٦٠)، النسائي في «الكبرى» (٨٧٤٢)، ابن ماجه (٢٦٨٦)، أحمد (٦٧٤٥)، الحاكم (٢٥٨١)، الدارمي (٢٥٠٤)، البزار (٢٣٧٣).
(٤) مالك (١٤٢٩)، أحمد - واللفظ لها - (٢٨٦٧)، ابن ماجه (٢٣٤١)، أبو يعلى (٢٥٢٠)، الطبراني في «الكبير» (١٣٨٧)، الحاكم (٢٣٤٥)، البيهقي في «السنن» (١١١٦٦)، وزادا: «من ضارَّ ضره الله، ومن شاق شقَّ الله عليه».

١٣- غزوة ذات الرقاع
١٤- غزوة بدر الآخرة
١٥- غزوة دومة الجندل
١٦- غزوة الخندق
١٧- غزوة بني قريظة
١٨- غزوة بني لحيان
١٩- غزوة ذي قرد
٢٠- غزوة بني المصطلق
٢١- غزوة الحديبية
٢٢- غزوة خيبر
٢٣- غزوة القضاء
٢٤- غزوة الفتح
٢٥- غزوة حنين
٢٦- غزوة الطائف
٢٧- غزوة تبوك

«قاتل منها ﷺ في تسع غزوات: بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف وكانت بعوثه وسراياه ثمانيًا وثلاثين، من بين بعث وسرية»[1].

ولو تتبعنا كل هذه المشاهد والغزوات، التي التقى فيها النبي ﷺ بأعداءه، لوجدنا أن لها أسبابًا دعت إليها، أو أنها كانت دفاعًا وردًّا لهجوم لا هجومًا، وسوف نختار منها على سبيل المثال ما يأتي:

سبب غزوة أُحُد

لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعِيره، مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمدًا قد وَتَرَكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا،

(١) «سيرة ابن هشام» - باختصار - (جـ٦ صـ١٨، ١٩).

ففيهم أنزل الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦].

بهذا يتبين أن كفار قريش، هم الذين أشعلوا نار حرب غزوة أحد، وهم الذين دعوا إليها، وجمعوا وأعدُّوا لها، ورحلوا من أجل القتال، من موطنهم مكة إلى أن ذهبوا لملاقاة النبي وصحبه بالمدينة، فهل يقف المسلمون مكتوفي الأيدي مستسلمين، من غير أن يحمُوا أرواحهم، ويدافعوا عن وطنهم، ويذودوا عن أعراضِهم وممتلكاتهم!؟

سبب غزوة ذي قرد

ندع أول من خاض غمار غزوة ذي قرد، وأول من سمع باعتداء غطفان على بعض مواشٍ لرسول الله وسلبها والفرار بها، وهو سلمة بن الأكوع، ليقصَّ علينا ما حدث: عن سَلمة بن الأكوع ﵁ قال: «خرجت قبل أن يؤذن بالأولى، وكانت لقاح[1] رسول الله ترعى بذي قرد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أخِذتْ لقاحُ رسول الله! فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان، قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه، قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة! ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم بذي قرد! ومعهم الشاة يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي وكنت راميًا، وأقول:

خذها أنا ابنُ الأكوع   واليومَ يومُ الرُّضَّع[2]

فأرتجز حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة! قال: وجاء النبيُّ والناس، فقلت: يا نبي الله إني قد حميت[3] القوم الماء وهم عطاش، فابعث

---

(١) اللقاح: تطلق على البهائم التي في بطونها أولادها من الشاة وغيرها.

(٢) يوم الرضع: جمع رضيع، أي: لئيم، والمعنى: يوم هلاك اللئام، وقيل للئيم راضع: لأنه يمتص اللبن من الضرع، لئلا يسمع الحلب فيطلب منه! «فتح الباري» (جـ١ صـ١٢٣).

(٣) حميت القوم الماء: منعتهم من شربه.

إليهم الساعة، فقال: يا ابن الأكوع، ملكت فأسجح، قال: ثم رجعنا ويردفني رسول الله على ناقته، حتى دخلنا المدينة»[١].

وقال ابن إسحاق: «أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة في اللقاح!»[٢].

وبهذا يتبين أن النبي وأصحابه ما خرجوا لغزوة ذي قرد، إلا لاستنقاذ ما سلبه المعتدون، وردِّ ما أخذته غطفان منهم بدون وجه حق، ومع ذلك لما أشار سلمة بن الأكوع - بعد استرجاع ما أخذه الخاطفون - على النبي ﷺ، بتتبع الأعداء وهم في حالة ضعف وعطش، آثر النبي أن يعفو عن القوم، وفضَّل الرجوع إلى المدينة حقنًا للدماء.

سبب غزوة بني النضير

«خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري ﷺ، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، - وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وصلة - فلما أتاهم رسول الله يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه! - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه!؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال: أنا لذلك،

(١) البخاري (٣٩٥٨)، مسلم (١٨٠٦)، النسائي في «الكبرى» (١٠٨١٤)، ابن حبان (٤٥٢٩).

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٤٣).

فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه - فيهم أبو بكر وعمر وعلي-.

فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم! فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث[1] النبيَّ أصحابُه قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم»[2].

هذا هو سبب غزوة بني النضير، قوم يستأمنهم الرسول فيأتيهم في عُقر دارهم، حقنًا لدماءٍ قد تراق بين المسلمين وبني عامر حلفاء بني النضير، وإرجاعًا للحقوق إلى أهلها، فيُقابَل منهم بالخيانة والغدر والتخطيط لاغتياله ﷺ! فهل يسكت النبي عنهم، بعد أن تبين أنهم لا عهد لهم ولا ذمة، وأنهم خونة غادرون!؟

سبب إجلاء بني قينقاع

«كان من أمر بني قينقاع، أن امرأة من العرب قدمت بجلب[3] لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى الصائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبَت! فعمد الصائغ إلى طرفِ ثوبها فعقدَه[4] إلى ظهرها!

فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها! فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه،

---

(١) استلبثوه: استبطؤوا رجوعه إليهم.

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ١٤٤)، «تفسير القرآن» (جـ٤ صـ٣٣٢)، «فتح الباري» (جـ٧ صـ٣٣١).

(٣) الجلب: ما يُجلب إلى السوق من طعام أو متاع أو غيرهما للبيع.

(٤) عقده: ربطه.

فاصترخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع»[١].

فهل أهل هذه الأخلاق الدنيئة، يستحقون أن يعيشوا فوق أرض المدينة المنورة، ليؤذوا عباد الله، ويذيقوهم ما تمليه عليهم نفوسُهم الخبيثة، وفطرُهم المنكوسة، وعقولهم الماكرة؟ فكان من النبي ﷺ أن عفا عنهم، ولم يتعرض لدمائِهم، ولكن أخرجهم بعيدًا عن المدينة.

سبب غزوة بني المصطلق

«بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، فلما سمع رسول الله بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: المريسيع، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق»[٢].

وقد كان اليهود الموجودون بالمدينة المنورة – على اختلاف فصائلهم – متعنتين مع النبي، وما كانوا يخفون صلفهم وعداءهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أصاب رسولُ الله قريشًا يوم بدر وقدم المدينة، جمع اليهودَ في سوق بني قينقاع، فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قريشا، قالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس! وأنك لم تلق مثلنا! فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ أصحاب رسول الله ببدر، ﴿...وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ...﴾، إلى قوله: ﴿...لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:١٢-١٣].

وكما كان اليهود – مجموعاتٍ وفصائل – يجاهرون بالعداء، ويشاركون أعداء

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٣١٤).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (جـ٢٤ صـ ٦٠)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٥٢).

المسلمين ويخططون لهم، فقد كان أفراد اليهود على نفس الوتيرة، وسنضرب مثالًا بشخص واحد من شخصيات اليهود، ألا وهو كعب بن الأشرف، لنعرف طرفًا مما قام به من تأليب ضد المسلمين:

«لما أصيب أصحاب بدر، وقدم زيد بن حارثة ﷺ إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة ﷺ إلى العالية بشيرين، بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عليه، وقتل من قتل من المشركين، قال كعب بن الأشرف حين بلغه من الخبر: أحق هذا؟ أترون محمدًا قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس! والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها!»[1].

«فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، فنزل على المطلب بن أبي وَداعة السهمي، وعنده عاتكة بنت أبي العاص بن أمية فأنزلته وأكرمته! وجعل يحرض على رسول الله ﷺ، ويُنشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر! فقال:

قُتِلتْ سراةُ الناس حولَ حياضِهم ... لا تبعُدوا إن الملوكَ تُصَرَّعُ!

كم قد أصيبَ به منَ ابيضَ ماجدٍ ... ذي بهجةٍ يأوي إليهِ الضُّيَّعُ؟

ويقول أقوامٌ - أسَرُّ بسخطِهم -: ... إن ابنَ الاشرفِ ظلَّ كعبًا يجزعُ!

صدقوا فليت الأرضَ ساعة قُتِّلوا ... ظلت تسوخُ بأهلِها وتُصدَّعُ!

نُبِّئتُ أن بني المغيرةِ كلَّهم ... خشعُوا لقتلِ أبي الحكيمِ وجُدِّعُوا

نبئت أن الحارثَ بنَ هشامِهم ... في الناس يبني الصالحاتِ ويجمعُ!

ليزورَ يثربَ بالجموعِ وإنما ... يحمى على الحسبِ الكريمُ الأروعُ[2]

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ ٢ صـ٥٢)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٣١٨).

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٣١٩).

«ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشبَّب[١] بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال رسول الله ﷺ: «**من لي بابن الأشرف؟**» فقال له محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله أنا أقتله، قال: «**فافعل إن قدرت على ذلك**»[٢].

هذا هو كعب بن الأشرف، وهذه هي بعضُ مكايدِه ضد المسلمين، وهذا هو تطاوله على المسلمين رجالًا ونساء، فحاق به سوءُ مكره، وذاق وبالَ أمره، وقُتل فاستراح منه المسلمون، ودُفنت فتنته معه، وخاف من هو على شاكلتِه.

قال الشيخ الغزالي: «وصاح كعبٌ صيحة، لم يبق معها حصن إلا أوقِدت عليه النار استجلاء للخبر، فلما طلع الصباح، علمت يهودٌ بمصرع جبارها، فدبَّ الرعبُ في القلوب العنيدة، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها.

لقد أجْدَتْ العصا حين أعيَت النصيحة وبطل المقال، ولزم اليهود حدودَهم فلم يتجرأوا على المسلمين بسَبّ، وظهر كأنهم لم يهالئوا على الله ورسوله مشركًا قبل اليوم!»[٣].

٧- «**وأيسر من استقصاءِ الحروب وأسبابها في صدر الإسلام، أن نلقي نظرة عامة على خريطةِ العالم في الوقت الحاضر، لنعلم أن السيف لم يعمل في انتشار هذا الدين، إلا القليلَ مما عمله الإقناع والقدوة الحسنة.**

فإن البلاد التي قلَّت فيها حروب الإسلام، هي البلاد التي يقيم فيها اليومَ أكثرُ مسلمي العالم، وهي بلاد إندونيسية والهندِ والصين وسواحل القارة الإفريقية وما يليها من سهول الصحراء الواسعة، فإن عدد المسلمين فيها قريب من ثلاثمائة مليون[٤]، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل، الذي

---

(١) التشبيب: التغزل بالنساء، وذكر مفاتنهن مما لا يُذكر.

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٥٣)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٣٢١).

(٣) «فقه السيرة للغزالي» (صـ٢٦٤).

(٤) هذا في حياة المؤلف رحمه الله، من نصف قرن تقريبًا.

لا يُجدي في تحويل الآلاف عن دينهم بَلْهَ الملايين.

ونقارن بين هذه البلاد، والبلاد التي اتجهت إليها غزوات المسلمين لأول مرة، في صدر الدعوة الإسلامية - وهي بلاد العراق والشام -، فإن عدد المسلمين فيها اليوم، قلما يزيد على عشرة ملايين! يعيش بينهم من اختاروا البقاءَ على دينِهم، من المسيحيين واليهود والوثنيين وأشباه الوثنيين.

ومن المفيد في هذا الصدد أن نعقد المقارنة بين البلاد التي قامت فيها الدولة الإسلامية، والبلاد التي قامت فيها الدولة المسيحية من القارة الأوربية، فلم يبق في هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية، وقد أقام المسلمون قرونًا في الأندلس وخرجوا منها، وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون»[1].

٨- وهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون، أو يريدون أن يلوثوا ثوبَ الإسلام الطاهر، ويسودوا صفحته البيضاء الناصعة، ما بالُهم يغضُّون الطرف عما صنعه أجدادهم وسلفهم بأهل الإسلام!؟ مِن قتل للأمم، وتعذيب للشعوب، وانتهاك للأعراض والحرمات، وتدمير للممتلكات، وإتلاف لكل ما فيه منفعة للبشرية، مرورا بما فعلوه في الحروب الصليبية، وما صنعوه في بلاد الأندلس.

وما فعله أحفاد أولئكم في العصر الحديث ليس بخافٍ على أحد، وإن التاريخ قد سطره واحتفظ به شاهدًا على وحشيتهم واعتداءاتهم، وما هيروشيما وناجازاكي والاستعمار وصبرا وشاتيلا وسجن أبي غريب - والكثير غير ذلك - ببعيد منا زمانًا ولا مكانًا! وهذه بعض المقتطفات التي سجلها بعضُ أبناء جلدتِهم في كتبهم، مستنكرين هذه الجنايات التي لا تصدر إلا عمن خلا من الدين القويم والخلق الكريم، وربما استحيت الحيواناتُ المفترسة المتوحشة من ارتكابه!

---

(١) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (صـ١٩١، ١٩٢).

(قال ابن الأثير: «وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى، ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف وقد افتخر بعض الصليبيين بما ارتكبوا في المسجد الأقصى، من قتل المسلمين في مذبحة وحشية رهيبة فقال: حتى إن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين!»)[١].

«ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث وشاهدها فقال: إنه عندما زار الحرمَ الشريف، أثناء المذبحة الرهيبة، التي ارتكبها الصليبيون، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين، إلا في صعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه!»[٢].

(ويدل سلوكُ القواتِ الصليبية، في جميع المعارك التي خاضتها ضد الإسلام، على أنهم من أشد الوحوش حماقة، فقد كانوا لا يفرقون بين المقاتلين والعزل من النساء والشيوخ والأطفال! فقد خرجوا عن طورهم الآدمي، «وكان من أحب ضروب اللهو إليهم، قتل من يلاقون من الأطفال! وتقطيعهم إربًا إربًا وشيِّهم! كما روت آن كومنين بنت قيصر الروم»)[٣].

ذكر الكاهن ريموند داجيل خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر، فعرض الوصف الآتي: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح، وكأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها! فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة، لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة

---

(١) «جهاد المسلمين في الحروب الصليبية» (صـ١١٣).

(٢) «جهاد المسلمين في الحروب الصليبية» (صـ ١١٤).

(٣) «جهاد المسلمين في الحروب الصليبية» (صـ١١٤)، ونقل الفقرة الأخيرة من كتاب: (حضارة العرب) لغوستاف لوبون.

من ذلك إلا بمشقة!»[1].

وقد صوَّر جزءًا من ذلك الشاعر حين قال:

عاد الصليبيون ثانية وجالوا في البطاحْ
عاثوا فسادا في الديار كأنها كلأ مباحْ!
عادوا يريقون الدما ءَ ولا حياءَ من افتضاحْ!
ارأيتَ من حملوا أنا جيلَ البشارةِ والسَّماحْ؟!
ما هم من الإنجيلِ إلا مثلُ أبناء السفاحْ

وليس هناك مجال للمقارنة من أي وجه، بين ما فعله هؤلاء وما فعله المسلمون، لا من ناحية المعاملة، ولا من ناحية عدد القتلى، ولا من أية ناحية غير ذلك، فقد كانت (جملة من ماتوا في جميع الفتوحات (الغزوات) الإسلامية، بين شهداء وقتلى، لم يزيدوا على ٣٨٦ ثلاثمائة وستة وثمانين!)[2] وما وصفنا ووصفهم إلا كما قال أبو الفوارس الحيص بيص:

ملكنا فكان العفوُ منَّا سجيَّةً فلمَّا ملكتم سال بالدَّمِ أبطَحُ!
وحلَّلتُمُ قتلَ الأسارَى وطالما غدونا عن الأسرى نعِفُّ ونصفحُ
فحسبُكُمُ هذا التفاوتُ بيننا وكلُّ إناءٍ بالذي فيهِ ينضَحُ

٩- وهؤلاء الأعداء بهذه الشبهة، أرادوا أن يصلوا إلى أمر من أمرين:

أ) أن يصوروا للناس أن الإسلام هو دين العنف والإرهاب، وأن حشو تعاليمه القسوة والغلظة، وأنه يربِّي أتباعه، ويغرس في قلوب معتنقيه، كراهية غير المسلمين، وتمنِّي زوالهم من فوق هذه الأرض، وبهذا يستطيعون أن يصدوا من لم

---

(١) «جهاد المسلمين في الحروب الصليبية» (صـ١١٥)، وقد نقل من كتاب: (حضارة العرب) لغوستاف لوبون.

(٢) «سيد رسل الله وأباطيل خصومه» (صـ٤٩).

يدخل الإسلام عن الدخول، ويزعزعوا إيمان من دخل، ويشككوه في تعاليم الإسلام السمحة.

ب) أن يعمِّقوا هذا المعنى، حتى يضطر بعض المسلمين، من ضعاف العقيدة، أو أنصاف المتعلمين - وقد حصل ذلك - إلى أن يردوا ردودا مهتزة، حشوها التخلي عن الجهاد، ولا يبرزوا من جوانب الدين إلا السماحة والعفو، حتى وإن كان هذا مع من لا يزيده العفو والسماحة إلا تجبرًا وطغيانًا! حتى وإن ضاعت - مع هذا - الحقوقُ من أهلها! حتى وإن كان هذا العفوُ عفوَ الذليل الضعيف لا عفوَ القوي القادر! حتى يتثنى لهؤلاء فيما بعد - وقد حدث - أن يدعوا إلى حذفِ آيات الجهاد وأحاديثِ الدفاع عن النفس والوطن، من المقررات الدراسية، ومن وسائل الإعلام، فتبقى في حيز الذكريات!

ولكننا نقول: ما انتشر الإسلام بالسيف، وإنما انتشر بفضل الله ﷻ ثم بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالأخلاق الكريمة الفاضلة، وما كان محمد مصاصًا للدماء، وإنما كان نبيًا كريمًا، ورؤوفًا رحيمًا، ولكن مع ذلك كان له سيفٌ يؤدب به الطغاة والمعتدين، ويرفعه في وجوه الجائرين الظالمين، وكان يدافع به عن الطيبين المصلحين، وقد صدق الدكتور القرضاوي حين عبَّر عن ذلك فقال:

نحن بالتوحيد أعلينا الجباهْ ... نحن بالأخلاق نوَّرنا الحياهْ
نحن للحقِّ دُعاةٌ ورُعاهْ ... نحن بالبتَّار أدَّبنا الطُّغاهْ
ذلكم تاريخُنا يا سائلونْ

وتظهر ملامح هذه العزة، التي أراد الله ﷻ أن يربيَ عليها هذه الأمة، في أمثال قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٥]، وقوله ﷻ: ﴿...وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

فهذا هو ديننا، وهذه هي أخلاقه، وقد توالت له الشهادات والاعترافات حتى من أعدائه، فمن أبصرها فبنور فطرته، ومن قال غير ذلك فإن جحوده وإنكاره من أجل الحسد والبغض الذين استوليا على قلبه، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ [النساء:٥٤]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾ [النمل:١٤]، ولا يكون العيب في ديننا، وإنما في بصر وبصيرة من لم ير روعته وجماله، ولم يشاهد عظمته وجلاله، وما أروعَ قول أبي الطيب المتنبي:

وكم من عائبٍ قولا صحيحاً ... وآفتُه من الفهمِ السَّقيم؟
ولكن تأخذُ الآذانُ منهُ ... على قدرِ القرائحِ والعلوم

فليمت الحاقدون بغيظهم، وليحترق أهل الحسد بحسدهم، ولتلتهب أحشاؤهم بشدة غضبهم:

قل للمبشِّرِ ذاك دينُ نبيِّنا ... أتُراكَ من دينِ النبيِّ غضوبا؟
فإذا غضبتَ ففي البحارِ ومائِها ... سَعةٌ فقمْ واشربْه كوبًا كوبًا!

❑ ❑ ❑



الباب الثاني

أخلاقيات قبل المعارك

الفصل الأول: أخلاقيات المجاهدين مع الله

الفصل الثاني: محاولة تجنب الحرب

الفصل الثالث: الاستعداد والتجهز لها

الفصل الأول

أخلاقيات المجاهدين مع الله

اتصف النبي الكريم ﷺ وأصحابه العظام، في جهادهم وأثناء حروبهم التي خاضوها، بأخلاقيات عالية لم تتوفر في جيل من أجيال البشر، وكانت هذه الأخلاقيات مضربًا للأمثال، مما دعا الكثيرين من غير المسلمين إلى اعتناق الإسلام، ومما بهر البعض منهم فدعاهم إلى إعلان الشهادة بهذه العظمة، ومن هذه الأخلاقيات:

الإخلاص لله

لم يخض المسلمون معاركهم طمعًا في مال، أو طلبًا لشهرة وصيت، وإنما خرجوا تلبية لأمر الله، وتنفيذا لهذا الواجب الشرعي الذي أمرهم الله ﷻ به، وكيف لا يكون الأمر كذلك، والله أدبهم حين نهاهم عن الخروج للجهاد، مستصحبين البطر والرياء في قلوبهم، كما فعل فريق من الناس؟ قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٧-٤٨].

وكيف لا يستحضرون الإخلاص لله في جهادِهم، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن

في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[(١)].

وهناك العديد من الأمثلة المدللة على هذا الإخلاص لله، الذي امتلأت به قلوبهم، ويكفي سوق هذا المثال لأبي موسى الأشعري، فعنه ﷺ قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه[(٢)]! فنقبت أقدامنا! ونقبت قدماي! وسقطت أظفاري! وكنا نلف على أرجلنا الخِرَق! فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا- وحدث أبو موسى بهذا، ثم كره ذاك-، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره - كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه -»[(٣)].

الولاءُ للهِ لا لغيره

ومن أخلاقياتهم مع الله في حروبهم، أنها مبنية على الولاء لله وأوليائه، والبراء من أعدائه، ومن ذلك ما روي عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: «لما حاربت بنو قينقاع رسول الله، تشبَّث بأمرهم عبدالله بن أبي بن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت ﷺ إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله رسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

قال: «ففيه وفي عبدالله بن أبي نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ

---

(١) البخاري (٢٦٥٥)، مسلم (١٩٠٤)، أبو داود (٢٥١٧)، النسائي في «الكبرى» (٤٣٤٤)، وفي «المجتبى» (٣١٣٦)، ابن ماجه (٢٧٨٣)، أحمد (جـ٤ صـ٤٠١)، البزار (٣٠١٢)، أبو يعلى (٧٢٥٣)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ١٦٧)، وفي «الشعب» (٤٢٦٣).

(٢) اعتقاب البعير: أن يركب البعير اثنان فأكثر، يتناوبونه واحدًا بعد الآخر.

(٣) البخاري (٣٨٩٩)، مسلم (١٨١٦)، ابن حبان (٤٧٣٤)، أبو يعلى (٧٣٠٤).

عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١ - ٥٢]».

الاعتقاد بأن النصر بيد الله وحده

لأن الله ربَّاهم على هذه العقيدة، وأمرهم بالتخلق بهذا الخلق، حين أخبرهم قائلًا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، وحين قال لهم: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠]، وحين بين لهم أن المقاتل حينما يرمي أعداءه، فإنما يرميهم بقوة أودعها الله فيه، ولولا مشيئة الله ما استطاع أن يرمي، ولما كانت رميته صائبة، قال الله: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ...﴾ [الأنفال:١٧].

التصديق بوعد الله بالنصر

فهم يصدقون بوعده، ويعلمون أن الله جعل النصر من نصيب أهل الإيمان، إذا أخلصت قلوبهم، وحسنت نياتهم، ونفذوا ما طلبه الله منهم، بين الله ﷻ لهم هذه السنة في كتابه فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وتحدث في موضع آخر عن استخلافهم في الأرض، إذا نفذوا شروط التمكين، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

وأخبرهم الله ﷻ أن هذا الوعد مكتوب في كتاب عنده، وأنه مسطر في قضاءه الأزلي وقدره السابق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١]، وقد أراهم بأعينهم في يوم بدر تطبيقًا عمليًا لوعده، حين أخبرهم قبل المعركة قائلًا: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ﴾ [القمر:٤٥-٤٦].

عدم الاعتماد على الماديات والاغترار بها

لأنها وإن كانت مطلوبة، وأمر الشرع بإعدادها والسعي لاكتسابها، فإن الاعتماد يجب أن يكون على الله، فكم انتصر ضعيف متضعف، وانهزم قوي متجبر!؟ وكم تفوق قليل العدد على أضعافهم!؟ لأن وراء الأسباب المادية أسبابًا معنوية، ووراء الأجساد أرواحًا وإيمانًا وبركات، وقد علَّم الله أولياءه المؤمنين هذا، بسوق بعض أقوال إخوانهم السابقين، قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وقد علمهم ببعض ماجرى في زمنهم مع أعدائهم، وأن الله دمر هؤلاء الأعداء بطريقة ما كانت تخطر لهم على بال! قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

فهم لا يغترون بما في أيديهم مهما كثر فيهم عدد الجنود، وتوفر لديهم السلاح والعتاد، وهم يوقنون أن القوة الروحية أهم، وكيف يغترون بشيء من هذا بعد أن كادوا أن يهزموا في غزوة حنين، بسبب دخول الإعجاب بالكثرة في قلوبهم، لولا أن تداركتهم عناية الله؟ وقد سجل الله لهم هذا الموقف في دستوره الخالد حتى لا يُنسى فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

بل وذكرهم المولى بموقف معاكس لهذا - ليعلمهم أيضا -، حينما كانوا قلة قليلة ضعفاء، فنصرهم الله على أعدائهم الذين تفوقوا عليهم في السلاح، وفاقوهم في العدد، فقال لهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤- ١٢٥].

اليقين بتثبيت الله

ومن أخلاقياتهم أنهم يؤمنون بأن الله سوف يثبتهم وينصرهم، وسوف يزلزل أقدام أعدائهم ويهزمهم، بجند من جنوده الظاهرة أو الباطنة، ﴿...وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ [المدثر: ٣١]، فقد آمنوا بقول الله ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وها هو ذا ربهم يذكرهم بما ساقه من أجلهم من جنود، وما هيأه من أجل هزيمة الأعداء من أسباب، وبما أمر به جنوده من الملائكة فقال ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ٩- ١٢].

وكما أن النعاس من جنود الله التي يثبت بها عباده لينتصروا، فإن الرؤى المنامية - التي هي نوع من أنواع الوحي -[1] من جنود الله التي يثبّت بها من شاء من عباده،

(١) قال النبي: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة». البخاري (٦٥٨٨)، =

قال الله ﷻ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال:٤٣- ٤٤].

وكم من مرة يُري اللهُ جنودَه المسلمين طرفًا من قدرته، في نصر عباده، وهزيمة من حادّ اللهَ وناوأه، حتى يثبتهم فيما يستقبلونه من أيام، وفيما سوف يمر عليهم بعد ذلك من ظروف قاسية، قال المولى ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٦- ٢٧].

قال عماد الدين بن كثير: «... إنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي! وليس من يعلم كمن لا يعلم، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القتال، انشمر المشركون، ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا! وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا! وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة، ولهذا قال الله: ﴿...فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ...﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء»[1].

وقد لاحظ الأعداءُ هذا، وعلموا أن المسلمين مؤيدون من قِبَل الله، ولكن عميت بصائرهم، وطبع على قلوبهم، فاستمروا في حروبهم ضد المسلمين، وهذه هي حال الفريقين!

= النسائي في «الكبرى» (١٠٧٤٠)، ابن ماجه (٣٩١٤)، ابن أبي شيبة (٣٠٤٤٩)، أبو يعلى (٢٣٦١).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (جـ٣ صـ٤٧٩).

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

واللهِ ما شمُّوا روائحَ دينه ... يا زكمةً أعيتْ طبيبَ زمان

يا من يُشِبُّ الحربَ جهلا مالكم ... بقتال حزبِ اللهِ قطُّ يدان

أنى يقاتلُ جندُكم لجنودِهم ... وهم الهداة وعسكرُ القرآن؟!

التصديقُ بتأييدِ الملائكة

ومن أخلاقياتهم مع الله، أنهم يؤمنون بتأييد الملائكة لهم بأمر من الله، قال ربنا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

وربما - من شدة إيمانهم بالغيبيات - يسمعون أصوات الملائكة المقاتلة معهم، ويشاهدون آثار قتلهم للأعداء! فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (... بينما رجل من المسلمين يومئذ (في يوم بدر) يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم[1]! إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيًا! فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة سوط! فاخضر ذاك أجمع! فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة...»)[2].

وربما أطلع الله بعض أوليائه، ممن ارتفعت مؤشرات الإيمان في قلوبهم، فأراهم الملائكة المؤيِّدة لهم بأعينهم! فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لقد رأيت يوم أحد، عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد!»[3].

---

(١) حيزوم: اسم الفرس الذي كان يركبه سيدنا جبريل عليه السلام.

(٢) مسلم (١٧٦٣)، ابن حبان (٤٧٩٣)، البزار (١٩٦).

(٣) البخاري (٣٨٢٨، ٥٤٨٨)، مسلم - واللفظ له - (٢٣٠٦)، أحمد (١٤٦٨)، ابن أبي شيبة =

قال الشيخ الغزالي: أما خصومهم فإن قوى الكون المسخر بإذن الله، هي التي فضت جموعهم، وفلَّت حدودهم (في غزوة الأحزاب)، فلا غرو إذا قال رسول الله ﷺ للمؤمنين - محدثًا عن روح القدس -: «ما وضعت الملائكة السلاح بعد... إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم»[1].

المواظبة على ذكر الله

وكما أن المسلمين يواظبون على ذكر الله في السلم على كل حالة، وفي كل زمان ومكان: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، فإنهم لا ينسون الله في أوقات الحروب! بل يواظبون على الإكثار من ذكر الله، قبل الحرب وأثناءها وبعد الفراغ منها، فقد أوصاهم الله قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، لذا كان النبي يكثر من ذكر الله ومناجاته، فقد كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: **«اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل»**[2].

وبين الله ﷻ للمسلمين أن الذين يتركون الذكر ولا يواظبون عليه، قد تسلط عليهم الشيطان، واستحوذ على عقولهم، وسبا قلوبهم، فأدخلهم في حزبه، وأنساهم ربهم، قال الله ﷻ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩]، وقد قال لهم النبي ﷺ: **«مثل الذي يذكر ربه والذي**

= (٣٢١٥٣، ٣٦٧٤٩)، ابن حبان (٦٩٨٧)، البزار (١٢٣٨) وزاد ابن أبي شيبة، وابن حبان، ومسلم في إحدى رواياته: «يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام».

(١) «فقه السيرة للغزالي» (صـ ٣٣١).

(٢) رواه عن أنس: أبو داود - وهذا لفظه- (٢٦٣٢)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٣٠، ١٠٤٤٠)، ورواه عن أبي مجلز: أبو يعلى (٣١٣٣)، وابن أبي شيبة (٢٩٥٨٥، ٣٣٤٢٤)، وعبد الرزاق (٩٥١٧).

لا يذكر مثل الحي والميت»[(١)].

كثرة الدعاء والتضرع

ومن أخلاقيات الحروب عند المسلمين الإكثار من الدعاء والتضرع لله، بتثبيت الأقدام، والربط على القلوب، وإنزال النصر، والاستعاذة من الهزيمة، كما كان إخوانهم السابقون من الأنبياء والصالحين يفعلون، قال المولى ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦- ١٤٨]، وقال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

وقد كان النبي ﷺ يكثر في غزواته من الدعاء وسؤال الله، والتضرع إليه، حتى يشفق عليه أصحابه! وربما سقط رداؤه عنه من شدة استغراقه في المناجاة! فعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله قال - وهو في قبة يوم بدر -: **«اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم»**، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥]) [(٢)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله القبلة،

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٤).

(٢) البخاري (٢٧٥٨، ٤٥٩٤، ٤٥٩٦)، النسائي في «الكبرى» (١١٥٥٧)، أحمد (٣٠٤٣)، الطبراني في «الكبير» (١١٩٧٦)، وفي «الأوسط» (٢٧٤٦)، البيهقي في «الكبرى» (جـ٩ صـ٤٦).

ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض!»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه!

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]) [(١)].

وعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: دعا رسول الله ﷺ يوم الأحزاب على المشركين، فقال: «منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[(٢)].

وعن أنس ﷺ «أن النبي أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه ﷺ على قومهم، فأمدهم النبي بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم القراء، يحطبون بالنهار، ويصلون بالليل! فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة، غدروا بهم وقتلوهم! فقنت شهرًا يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان»[(٣)].

وعن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، وعصيَّة عصت الله ورسوله، اللهم العن رعل وذكوان وبني لحيان»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)، الترمذي (٣٠٨١)، أحمد (٢٠٨)، ابن أبي شيبة (٣٦٦٨٤)، رواه ابن حبان (٤٧٩٣)، البزار (١٩٦)، وزاد: «فأمده الله بالملائكة».

(٢) البخاري (٢٧٧٥، ٣٨٨٩، ٦٠٢٩)، مسلم (١٧٤٢)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٣٢، ١٠٤٣٨)، ابن ماجه (٢٧٩٦)، الترمذي (١٦٧٨)، أحمد (جـ٤ صـ٣٥٣)، ابن أبي شيبة (٢٩٥٨٦، ٣٣٤٢٥)، عبد الرزاق (٩٥١٦).

(٣) البخاري (٢٨٩٩، ٣٨٦٢)، أحمد (١٢٠٨٣).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٦٠٩٢).

وقد عدَّ النبي ضمن أوقات قبول الدعاء، وبين ساعات انفتاح السماء له، وقت الحرب، وساعة التقاء الصفين، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء، عند حضور الصلاة، وعند الصف في سبيل الله»[(١)]، وعنه أيضًا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا تردان، أو قلما تردان، الدعاء عند النداء، وعند البأس، حين يلحم بعضهم بعضا»[(٢)].

المحافظة على الصلاة

ومن أخلاقيات المسلمين مع الله في الحروب، أنهم يواظبون على أداء الصلاة حتى في أوقات المعمعة! وأثناءَ تطاير الرؤوس، وبقر البطون، وبتر الأيدي والأرجل، وإزهاق الأرواح! حتى إن الشرع سمَّى الصلاة أثناء الحرب صلاة الخوف، وقد بين الله أحكامها وكيفية أداءها فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٠٢].

وكما أن أهل الإيمان يواظبون في الحروب على أداء الصلاة المفروضة، فإنهم لم يحرموا أنفسهم من التلذذ بالقيام بين يدي ربهم، بأداء النوافل والمستحبات كقيام الليل وغيره، وليس أدلَّ على ذلك من قول الحق ﷻ - حينما بين السبب في التخفيف

---

(١) رواه ابن حبان (١٧٢٠، ١٧٦٤)، ابن أبي شيبة (٢٩٢٤٢)، الطبراني في «الكبير» (٥٧٧٤، ٥٨٤٧)، ورواه موقوفًا مالك (١٥٣)، وعبد الرزاق (١٩١٠)، والبيهقي في «السنن» (١٧٩٦).

(٢) أبو داود (٢٥٤٠)، الدارمي (١٢٠٠)، الحاكم (٧١٢، ٢٥٣٤)، الطبراني في «الكبير» (٥٧٥٦)، البيهقي في «السنن» (١٧٩٥، ٦٢٥١).

على الأمة، بنسخ فرضية قيام الليل، وتحويل الحكم إلى السنة والاستحباب -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل:٢٠].

وقد ضرب أصحابُ النبي في ذلك أروع الأمثلة، ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله قافلًا، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دما في أصحاب محمد!

فخرج يتبع أثر النبي، فنزل النبي منزلًا فقال: «من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟»، فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «فكونا بفم الشعب»، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أيُّ الليل أحبُّ إليك أن أكفيكه، أوله أو آخره؟

قال: اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي[1]، وأتى الرجل فلما رأي شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، فنزعه فوضعه وثبت قائمًا! ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه فوضعه وثبت قائمًا! ثم عاد له بثالث فوضعه فيه، فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد! ثم أهبَّ صاحبَه[2]...

---

(١) صاحب هذه القصة هو عبَّاد بن بشر الأنصاري.

(٢) أهبَّ صاحبه: أقامه من نومه ليحرس مكانه.

فقال: اجلس فقد أُتيت[١].

فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا به فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله ألا أهببتني!؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع الرمي ركعت فأريتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها!)[٢].

ولا عجب في هذا، فإن الله ﷻ لما تحدث عن نبيه ﷺ وأصحابه، وصفهم قائلًا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ...﴾ [الفتح:٢٩].

❑ ❑ ❑

(١) أُتيت – بالبناء للمجهول –: أصيب جسدي.

(٢) أحمد (١٤٧٤٥)، ابن خزيمة (٣٦)، ابن حبان (١٠٩٦)، الحاكم (٥٥٧)، البيهقي في «السنن» (٦٤٧).

الفصل الثاني

محاولة تجنب الحرب

إن النبي محمدًا ﷺ هو الرحمة المهداة، وهو النعمة المسداة، قال عنه ربه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ما أحبَّ حربًا، وما رغب في قتال، وما ترك وسيلة من وسائل تجنب الحرب والبعد عنها إلا استخدمها، وأمر أصحابه وأتباعه بها، وهذه بعض الوسائل والأساليب، التي وردت إلينا في سيرته وسنته:

لا تتمنوها

أمر النبيُّ ﷺ أمته بالحرص على السلم، وعدم تعلق قلوبهم بالحرب أوتمنيها، لِما فيها من دمار وخراب، ولما يترتب عليها من عواقبَ وخيمة، ونتائجَ سيئة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تمنَّوا لقاءَ العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا»[1].

الدعوة أولاً

وكان من هديه أن يأمر أمراءَه وقواده حينما ينطلقون، بأن يدْعوا أعداءهم أولًا للدخول في هذا الدين، فإنهم إن أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم، وصار لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، فعن بريدة بن حصيب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيرًا.

---

(١) البخاري (٢٨٦٣)، مسلم (١٧٤١)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٣٤)، أحمد (١٠٧٨٤)، عن أبي هريرة، وزاد ابن أبي أوفى: «واسألوا الله العافية»، وهو في «الصحيحين» وغيرهما.

وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فأيتها أجابوك إليها، فاقبل منهم وكف عنهم:

١- ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.

٢- ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك، أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

٣- فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»[1].

يجير المستجير

وكان من هديه ﷺ أيضًا أنه إذا استجار أحد من أعدائه به أن يُجيره، ولا يتعرض له بأذى، بل كان يحميه، ويأمر أصحابه بالكف عنه، ثم يعرض عليه ما جاء به من عند الله من الهدى والنور، بأسلوب رقيق مبسط، ثم يأمر بتوصيله إلى المكان الذي يحس فيه بالأمن على نفسه وماله، وفقًا لأمر الله له في هذا الأمر القرآني: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

بل إنه كان يقبل جوار أي شخص من الكفار، إذا أجاره أي أحد من أصحابه، حتى وإن كان المجير له امرأة! فعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: ذهبت إلى

(١) مسلم (١٧٣١)، أبو داود (٢٦١٢)، النسائي في «الكبرى» (٨٥٨٦، ٨٦٨٠، ٨٧٨٢)، الترمذي (١٦١٧)، ابن ماجه (٢٨٥٨)، أحمد (٢٣٠٢٨، ٢٣٠٨٠)، ابن أبي شيبة (٣٣٠٥٤)، ابن حبان (٤٧٣٩)، الدارمي (٢٤٤٢)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٤٩).

رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: «من هذه؟»، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحبًا بأم هانئ»، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات، ملتحفًا في ثوب واحد.

فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابن أمي[1] أنه قاتلٌ رجلًا قد أجرته، فلان بن هبيرة! فقال رسول الله ﷺ: **«قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ»**، قالت أم هانئ: وذاك ضحى[2].

وما حصلت عليه السيدة أم هانئ من النبي ﷺ، من قبول استجارة حمو من أحماءها، قد حصلت عليه السيدة زينب بنت النبي ﷺ، حينما أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع حين استجار بها[3]، فقد أقبل أبو العاص بن الربيع تحت جنح الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله، فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صُفَّة النساء[4]: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة، أقبل على الناس فقال: **«أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟»**، قالوا: نعم، قال: **«والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت، إنه يجير على المسلمين أدناهم»**، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته، فقال: **«أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحِلين له»**[5].

---

(١) ابن أمها: تعني أخاها علي بن أبي طالب ﷺ.

(٢) البخاري (٣٥٠، ٣٠٠٠)، مسلم (٣٣٦)، مالك في «الموطأ» (٣٥٦)، أحمد (٢٧٤٢٨)، النسائي في «الكبرى» - مختصرًا- (٨٦٨٥)، ابن حبان (١١٨٨)، الطبراني في «الكبير» (١٠١٧).

(٣) راجع عفو النبي ﷺ عنه في فصل: (أخلاقيات المجاهدين مع الأسرى).

(٤) صُفة النساء: المكان المعدّ لصلاتهن.

(٥) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٢٠٧)، «سير أعلام النبلاء» (جـ١ صـ٣٣٣).

ولم يتنافَ النبي إجارة السيدة زينب لزوجها محاباة لها، وإنما لأنها عضو من أعضاء هذه الأمة الإسلامية التي قال النبي ﷺ في وصف أفرادها: «المسلمون يد على من سواهم، يُجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم»[١].

كما أن أبا العاص هذا كانت مواقفه - في الجاهلية - مشرِّفه، وأخلاقه عالية مع ابنة النبي ﷺ، بعكس ما كان عليه عتبة بن أبي لهب، قال محمد بن إسحاق: «... وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب إحدى بنتيه رقية أو أم كلثوم، فلما بادى قريشًا بأمر الله وبالعداوة قالوا: إنكم قد فرَّغتم محمدًا من همِّه، فرُدُّوا عليه بناته فاشغلوه بهن! فمشوا إلى أبي العاص، فقالوا له: فارق صاحبتك، ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت! قال: لا والله لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش! وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره خيرًا.

ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب فقالوا له: طلق بنت محمد، ونحن ننكحك أي امرأة من قريش شئت! فقال: إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص فارقتها، فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها! ولم يكن عدو الله دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامة لها، وهوانًا له، وخلف عثمان بن عفان عليها بعده...»[٢].

وكذلك كان بعد إسلامه، ومن أعظم مواقفه الدالة على وفاءه وأمانته عند إسلامه، أنه «احتمل الأموال إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ومن كان أبضع معه[٣]، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا

(١) أحمد (٧٠١٢)، ابن خزيمة - بهذا اللفظ- (٢٢٨٠)، الحاكم (٦٨٤٢)، ابن أبي شيبة (٣٣٣٨٧)، ابن حبان (٥٩٩٦)، البزار (١٢٨٨)، الطبراني في «الأوسط» (٤٨٢٣).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٠)، «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٤٣).

(٣) أبضع معه: أعطاه بضاعة ليبيعها مع بضاعته ويتاجر له فيها.

إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفي أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكم! فلما أداها الله إليكم، وفرغت منها أسلمت، ثم خرج حتى قدم على رسول الله»[١].

يُعطي الأمانَ لطالبه

ومن وسائل تجنب النبي ﷺ للحرب، أنه كان إذا سأله أحد من أعدائه أمانًا لنفسه، أو استأمن له أحد، أن يعطيه الأمان، وينشر هذا الأمان ويعلن عنه، حتى لا يعترض طريق من أمَّنه أحد من الصحابة، وما أكثر من أمّنهم النبي ﷺ، وهذه صورة من صور التأمين للأعداء.

«خرج صفوان بن أمية يريد جدة، ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هاربًا منك، ليقذف نفسه في البحر! فأمَّنه، قال: هو آمن، قال يا رسول الله أعطني آية يعرف بها أنه أمانك، فأعطاه رسول الله عمامته التي دخل فيها مكة.

فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب في البحر، فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي، اللهَ الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله قد جئتك به، قال: ويحك اغرب عني فلا تكلمني، قال: أي صفوان فداك أبي وأمي، أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.

قال: إني أخافه على نفسى، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتنى، قال: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر!»[٢].

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٤٤)، الطبراني في «الكبير» (١٠٥٠)، «الاستيعاب» (جـ٤ صـ١٧٠٣).

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٦٢).

لين النبي ﷺ وحكمته

ومن وسائل تجنب النبي ﷺ للحرب، أنه كان يلين مع أعداءه أثناء التصالح معهم، ويتصرف معهم بحكمة وعقل، حتى يجنب نفسه وأصحابه، بل وأعداءه وخصومه، وقوع الصدام والقتال، وحتى يوقف ما قد يجري من سيل للدماء وإزهاق للأرواح.

ومن ذلك ما حدث منه مع أعداءه في صلح الحديبية، مع ما في الأمر من شدة على نفوس أصحابه، ورغم ما في شروط الصلح من إجحاف على المسلمين، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما أحصر النبي ﷺ عند البيت، صالحه أهل مكة على أن يدخلها فيقيم بها ثلاثًا، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح، السيف وقرابة، ولا يخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحدًا يمكث بها ممن كان معه.

فقال لعلي: اكتب الشرط بيننا: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك. وفي رواية: بايعناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فأمر عليًا أن يمحاها، فقال علي: لا والله لا أمحاها!

فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها»، فأراه مكانها فمحاها، وكتب: «ابن عبد الله»، فأقام بها ثلاثة أيام، فلما أن كان يوم الثالث قالوا لعلي: هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فأمره فليخرج، فأخبره بذلك فقال: «نعم» فخرج[1].

قال العلماء: وافقهم النبي في ترك كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنه كتب «باسمك اللهم»، وكذا وافقهم في «محمد بن عبد الله» وترك كتابة «رسول الله»، وكذا وافقهم في رد من جاء منهم إلينا، دون من ذهب منا إليهم، وإنما وافقهم في

---

(١) البخاري (٢٥٥٢)، مسلم - واللفظ له - (١٧٨٣)، النسائي في «الكبرى» (٨٥٧٦)، ابن أبي شيبة (٣٦٨٤١).

هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور.

أما «البسملة» و«باسمك اللهم» فمعناهما واحد، وكذا قوله: «محمد بن عبد الله» هو أيضًا «رسول الله»، وليس في ترك وصف الله في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصفه أيضًا هنا بالرسالة ما ينفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب مالا يحل، من تعظيم آلهتهم وغير ذلك»[1].

هذا هو أسلوبُه الحكيم في تصالحه، وهذا هو لينُ جانبه، برغم ما في الأمر من شدة، وإن هذه الشدة العصيبة التي مرت بالصحابة، كانوا يتذكرونها فيما بعد، بل كانوا يذكِّرون بها أنفسهم، ويوصون بها في المواقف المشابهة لهذا الموقف.

فعن أبي وائل قال: (قام سهل بن حنيف يوم صفين فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه **فأتى رسول الله فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم!؟ فقال: «يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا»**.

قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظًا، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم!؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا، قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أَوَ فتحٌ هو!؟

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (جـ١٢ صـ١٣٩).

قال: «نعم»، فطابت نفسه ورجع)[١].

تعنُّت الكفار

لقد سلك النبي هذا المسلك الحكيم، وتصرف هذا التصرف المتزن، مع من لم يكن يجد منهم عشر معشار ذلك، ولك أن تقارن بين موقف النبي ﷺ السابق، وبين مواقف بعض خصومه المتعنتة قبيل غزوة بدر، حينما رفضوا دعوة العقل من العقلاء، وامتنعوا عن سماع نداء الحكمة من الحكماء، فحاق بهم ما حاق بسبب ذلك، ولك أن تقرأ هذه الأسطر التاريخية.

(لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره[٢]، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نردَ بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجُزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها فامضوا!)[٣].

(قال الأخنس بن شريق الثقفي - وكان حليفًا لبني زهرة -: يا بني زهرة، قد نجَّى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا لي جُبنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في ضيعة! لا ما يقول هذا - يعني أبا جهل -، فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعًا)[٤].

---

(١) البخاري (٣٠١١)، مسلم (١٧٨٥)، النسائي في «الكبرى» (١١٥٠٤)، أحمد (جـ٣ صـ٤٨٥)، ابن أبي شيبة (٣٦٨٤٧)، أبو يعلى (٤٧٣)، الطبراني في «الكبير» (٥٦٠٤).

(٢) أحرزها: حصنها وحماها ووصل بها إلى بر الأمان.

(٣) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٢٨، ٢٩)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ٢ صـ٣١٥).

(٤) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٦٦).

(لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احرزوا لنا أصحاب محمد[1]، فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مئة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون! ولكن أمهلوني حتى أنظر الِلقوم كمِين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئًا.

فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلكم؟ فرُوا رأيكم)[2].

(ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه وابن خاله أو رجالًا من عشيرته، فارجعوا أو خلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوا فذاك الذي أردتم.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعًا له من جرابها فهو يهيئها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال، فقال: انتفخ والله سَحْرُه[3] حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد! وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه!

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت

---

(١) احرزوهم: قدِّروا أعدادهم، وخمِّنوا كم يكون العدد على وجه التقريب.

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٠).

(٣) السَّحر: الرئة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السرة، وانتفاخ السَّحر: كناية عن الخوف.

ثأرك بعينك! فتم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي، فاكتشف ثم صرخ واعمراه واعمراه! فحميت الحرب وحقب الناس واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة)[١].

سد باب الفتنة وحسن التصرف

هكذا كان النبي ﷺ حكيم التصرف في صلحه، وكذلك كان إذا ما رأى ببعد نظره دنو فتنة، فما رأى بابًا سيؤدي بالناس إلى فتنة إلا بادر بإغلاقه، ووأد الفتنة في مهدها، ولتمتع عقلك وقلبك - ليزداد العقل ذكاء، والقلب حبًا للنبي - بهذا الموقف الرائع، وهذا التصرف الذي يعجز عنه كبار الدهاة والساسة، والذي لا يستطيعون أن يقفوا أمام عظمته إلا منكسي الرؤوس ومطأطئي الهامات، إجلالًا وإعجابًا واندهاشًا!

قال رسول الله ﷺ (يوم الفتح): «ألا إن راية الأنصار في يد سعد بن عبادة...»، فبينما سعد واقف - والأنصار حوله - إذ نظر فلم ير حوله إلا الأنصار، فقال: اليومَ يومُ الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة، ودخل معهم من المهاجرين من لا يُفطن له، فاشتد[٢] وهم لا يعلمون.

فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره بما سمع من سعد بن عبادة، فقال له: «أنت سمعته يقول هذا؟»، قال: نعم، قال: «من ههنا يدعو إلي قيس بن سعد بن عبادة؟» فجاءه الرسول وهو واقف مع أبيه، والراية في يد أبيه، وقال: يا قيس يدعوك رسول الله، فجاءه فقال: «يا قيس»، قال: لبيك يا رسول الله، فقال: «اذهب فخذ الراية من سعد»، قال: نعم يا رسول الله.

فجاءه - والأنصار حوله - فقال: أعطني الراية، قال: لا، لا أم لك!

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣١)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣صـ١٧٠، ١٧١).

(٢) اشتد وهم لا يعلمون: انسل من بينهم خفية مسرعًا ليُعلم النبي بما قال سعد.

قال: أعطنيها ولا تحمق نفسك، قال: لا، إلا أن يكون رسول الله أمرك بهذا! قال: أمرني بذلك رسول الله، قال: فسمعًا وطاعة، ودفع الراية إلى قيس ابنه، فدخل رسول الله ﷺ مكة، والراية مع قيس بن سعد بن عبادة[1].

فانظر - وفقك الله - كيف بادر النبي ﷺ إلى القضاء على فتنة، كادت تنشب بين فريقي الصحابة (المهاجرين والأنصار)!؟ وكيف استطاع أن يوقف سيلًا من دماء أهل مكة كاد أن يسيل!؟ وكيف استطاع أن ينزع ما قد يعلق بقلوب بعض الأنصار - قبل أن يعلق -، حين أمر بأخذ الراية من يد سيد الخزرج رضي الله عنه، ولم يأمر بوضعها إلا في يد ولده قيس بن سعد رضي الله عنه!؟ ثم انظر إلى سرعة ذلك كله ومسابقته للزمن، وفي سِرِّية بقدر المستطاع!؟

ولم يكتف النبي بهذا، بل طيب القلوب، وغير ما بدر من سعد بحسن أسلوب، قال ابن عبد البر: «فأقبل رسول الله ﷺ في كتيبة الأنصار، حتى إذا حاذى أبا سفيان، ناداه: يا رسول الله أمرتَ بقتل قومك، فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا؟ وقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا! وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم، فقال رسول الله: لا يا أبا سفيان، اليومَ يومُ المرحمة، اليوم أعز الله قريشًا»[2].

يتجنب الحرب

كان النبي يتجنب الحرب بكل صورة، ومن ذلك أنه وهو في طريقه للحديبية، كره أن يصطدم أصحابه بقريش، فأراد أن يسير في طريق بعيد عنهم، فقال ﷺ: «من رجل يخرج بنا عن طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا أجرل بين شعاب...»[3].

---

(١) «أخبار مكة» (١٧٦).

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (جـ٢ صـ٥٩٧).

(٣) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٧٦).

وكم جرى على لسانه ﷺ من أمثال قوله: «...أما والله لا يدعوني اليوم إلى خطة، يعظمون فيها حرمة، ولا يدعوني فيها إلى صلة، إلا أجبتهم إليها... »[١]؟

ومن هذا المعنى ما صنعه النبي مع أبي سفيان أثناء فتح مكة، وقد أمر عمه العباس أن يقف به في طريق كتائب جيوش المسلمين، حتى يرى ما عندهم من عدد وقوة، فينقل ما يراه لأهل مكة، فينصحهم بعدم التعرض للمسلمين حقنًا للدماء.

قال الشيخ الغزالي: «وأراد رسول الله أن يستوثق من سير الأمور، بعيدًا عن الحرب والضرب، فضمَّ إلى ذلك المسلك[٢] مع أبي سفيان، أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي، حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها، فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة، وهو سيد مكة المتبوع»[٣].

❑ ❑ ❑

(١) رواه أحمد (جـ٤ صـ٣٢٣)، ابن أبي شيبة - واللفظ له- (٣٦٨٥٥).

(٢) وهو قوله ﷺ لأبي سفيان: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...».

(٣) «فقه السيرة للغزالي» (صـ٤٠٠).

الفصل الثالث

الاستعدادُ والتجهُّز لها

كان من أخلاق النبي ﷺ في الحروب، أن يستعد لها قبل نشوبها، ويتجهز لها بكل أهبتِها، ويعِدَّ لها سلاحها الحسي والمعنوي، ولا يتباطأ حتى يبغته العدو، فيجده على غير استعداد، وصور استعداد النبي وتجهُّزه للحرب عديدة، والكلام عن هذا الجانب طويل، ولكننا سنحاول اختصاره في هذه النقاط:

بكل ما أوتي من قوة

أمر الله نبيه وأمته بالاستعداد لمجاهدة الأعداء، بكل ما عندهم من طاقة، وأن يبذلوا في سبيل ذلك كل الإمكانيات، فقال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠]، فالتزم النبي ﷺ بأمر ربه، وحث أصحابه على ذلك، بعد أن بين لهم المعنى المراد من الآية الكريمة، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ - وهو على المنبر - يقول: **«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»**[(١)].

وإن كان النبي فسَّر القوة بالرمي - والرمي هو التصويب على الأهداف والتنشين عليها، وهو خاص في زمنه بالرمي بالسهام - فإن المعنى شامل عام لكل

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٩١٧).

نوع من أنواع الرمي، بل ولكل نوع من أنواع القوة، سواء برمي السهام، أو بطعن الرماح، أو بضرب السيوف، أو بالرمي بأي نوع من أنواع الرمي المتقدمة الحديثة، كالرمي بالمسدس أو البندقية أو المدفع أو غيرها، وإن كان الظاهر أن النبي قصر القوة في الرمي، لأن الرمي من أهم أنواع القوى الحسية.

وقد استخدم النبي ﷺ - وأصحابه - كل ما أتيحت له الفرصة باستخدامه، سواء القوى الحسية أو المعنوية، فاشترى السلاح، وأخذه من غيره على سبيل الرهن، ودرب جنوده واهتم بلياقتهم وقوة وصحة أبدانهم، كما نظم وخطط لمعاركه، واستشار وأخذ بالنصيحة، كما أنه عُني قبل ذلك بالقوة الروحية الإيمانية.

ينتقي لهم كلمة السر

كلمة السر كلمة يتفق عليها الجيش، ويحفظها كل جندي فيه، ويحافظ على سريتها خوف اطلاع العدو عليها، حتى إذا ما خلا أحد من الجنود بشخص، لا يعرف أنه تابع لجيشه أم لجيش العدو، طلب منه أن يذكر كلمة السر المتفق عليها، فإن قالها عرف الجندي أن هذا الشخص ليس من أعداءه، فكف عنه وساعده، وإن لم يقلها أو قال كلمة غيرها، عرف أنه من أعداءه، وكان له معه موقف آخر.

وكلمة السر يغيرها الجيش في كل معركة من معاركه، وربما احتاج الأمر إلى تغييرها في المعركة الواحدة إن كان هذا ممكنا، وإن الجيوش في العصر الحديث تستخدم هذا الأسلوب، في تعرف أفرادهم بعضهم على بعض، خاصة في أوقات الالتحام، كما أنهم يُضطرون إلى تغيير الشفرة السرية الخاصة بهم، والتي يستخدمها سلاح الإشارة[1]، في توصيل المعلومات العسكرية، إذا شكوا في أن العدو ربما يكون قد اكتشفها، أو تسربت له بعض المعلومات عنها.

---

(١) سلاح الإشارة من أخطر الأسلحة، لذا يقال: الإشارة عصب المعركة.

ومن نظر إلى سيرة النبي ﷺ، وتتبع غزواته التي خاضها بنفسه، أو التي سيَّرها وأمَّر عليها بعض أمراءه، علم أن النبي ﷺ كان يختار لكل غزوة شعارًا أو كلمة سر، فقد قال النبي ﷺ ليلة الخندق: «إني لا أرى القوم إلا مبيتيكم، فإن شعاركم: حم لا ينصرون»[١]، وعن سنان بن وبرة الجهني ﷺ قال: «غزونا مع رسول الله غزوة المريسيع فكان شعارنا: يا منصورُ أمت»[٢]، وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: «غزونا مع أبي بكر زمن رسول الله[٣] فكان شعارنا: أمِت أمِت»[٤].

وإذا نظرت إلى هذه الشعارات أو كلمات السر التي اختارها النبي ﷺ، وجدت فيها أمورًا تدل على الحكمة والذكاء، منها:

١- أنها قصيرة مختصرة، مكونة من كلمة أو كلمتين، يتلفظ بها الجندي سريعًا، حتى لا يستغرق وقتًا، فإن المعارك لا تنتظر أحدًا.

٢- أنها سهلة الحفظ، حتى لا ينساها الجندي، فإن نسيها كانت روحه وربما أرواح إخوانه ثمنًا لهذا النسيان.

٣- أنها كلمات ملؤها التفاؤل، ففيها ذكر النصر والغلبة لجيش المسلمين، وذكر للهزيمة والموت لجيش الأعداء.

٤- أنها كلمات حشوها البركة، فقد اختير بعضها من بعض كلمات القرآن وآياته، فكلمة ﴿حمٓ﴾ افتتح الله بها سبع سور من سور القرآن الكريم، وهي السور المعروفة بسور الحواميم، من سورة غافر إلى سورة الأحقاف، وكلمة

---

(١) النسائي في «الكبرى» - واللفظ له- (١٠٤٥٣)، أبو داود (٢٥٩٧)، الترمذي (١٦٨٢)، أحمد (جـ٤ صـ٢٨٩)، ابن أبي شيبة (٣٣٥٧٥).

(٢) الطبراني في «الكبير» (٦٤٩٦)، وفي «الأوسط» (٦٠١٥)، «الاستيعاب» (جـ٢ صـ٦٥٦).

(٣) كان هذا في ليلة هوازن.

(٤) أبو داود (٢٥٩٦)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٦٥)، أحمد (جـ٤ صـ٤٦)، ابن أبي شيبة (٣٣٥٦٩)، ابن حبان (٤٧٤٤)، الطبراني في «الكبير» (٦٢٣٩).

﴿...لَا يُنصَرُونَ﴾ ورد ذكرها في ثلاث مواضع من القرآن[1].

تأمين الجبهة الداخلية

ومن استعداد الحبيب ﷺ للحرب وتجهزه لها، أنه كان يُؤمِّن الجبهة الداخلية بكل ما يملك من وسائل التأمين، فها هو النبي ﷺ يخلف وراءه في المدينة من يقوم بدوره في غيابه، كإمامة المسلمين وتعليمهم، كما فعل مع ابن أم مكتوم رضي الله عنه أكثر من مرة، فعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم على الصلاة وغيرها من أمر المدينة»[2]، وعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين»[3].

وهاهو ﷺ مرة أخرى يأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه لينوب عنه، وليكون مدافعًا عن المدينة هو ومن معه، إن أصاب المدينة مكروه في غيابه، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك، خلف عليًا بالمدينة، فقالوا فيه: ملَّه وكره صحبته! فتبع عليٌّ النبي حتى لحقه بالطريق، فقال: يا رسول الله خلفتني بالمدينة مع الذراري والنساء، حتى قالوا: مله وكره صحبته! فقال له النبي ﷺ: «**يا علي إنما خلفتك على أهلي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟**»[4].

وها هو ﷺ يحث على مراعاة شؤون أسر المجاهدين، أثناء غيابهم في الجهاد، ويبين أن أجر من فعل ذلك عند الله لا يقل عن أجر المجاهد نفسه، فعن زيد بن

---

(١) المواضع الثلاثة هي: [آل عمران: ١١١]، [القصص: ٤١]، [فصلت: ١٦].

(٢) رواه أبو القاسم الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٤٣٥).

(٣) أبو داود (٢٩٣١)، أحمد (١٢٣٦٦)، أبو يعلى (٣١٣٨).

(٤) البخاري (٤١٥٤)، مسلم (٢٤٠٤)، النسائي في «الكبرى» - وهذا لفظه- (٨١٣٨، ٨٤٢٩)، أحمد (١٥٣٢)، ابن أبي شيبة (٣٢٠٧٤)، البزار (١١٩٤)، ابن حبان (٦٨٢٧)، أبو يعلى (٣٤٤).

خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في سبيل الله بخير فقد غزا»[1].

يبعثُ العيونَ لمعرفةِ الأخبار

من لوازم الحرب أن يعرف الجيش كل ما يستطيع معرفته عن جيش العدو، من ناحية أعداده، وأنواع أسلحته، وأماكن وجوده، وطريقة تفكيره، والثغرات التي يمكن أن ينفذ من خلالها، حتى يبني خططه العسكرية على هذه المعلومات، وحتى يحتاط لهجمات عدوه ويكون منها على حذر، وهذه هي مهمة سلاح المخابرات، فهو بمثابة العين التي يرى بها الجيش كل ما يريد أن يراه عن عدوه.

ولم يغفل النبي ﷺ هذا الأسلوب الحربي في غزواته، فعن أنس رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ بَسْبَسَةَ عينًا، ينظر ما صنعت عير أبي سفيان»[2].

قال الدكتور البوطي: «يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم، وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العُدة والعدد، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط ألا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتمًا أو نوعًا من المخادعة أو التحايل، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث أنه واسطة لابد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم»[3].

ومن تتبع سيرة النبي ﷺ وجد الكثير من هذا، بل ووجد النبيَّ قد اختار لمهمة

---

(١) البخاري (٢٦٨٨)، مسلم (١٨٩٥)، أبو داود (٢٥٠٩)، النسائي في «الكبرى» (٤٣٨٩، ٤٣٩٠)، وفي «المجتبى» (٣١٨٠، ٣١٨١)، الترمذي (١٦٢٨: ١٦٣١)، أحمد (٢١٧٢٧)، الطبراني في «الكبير» (٥٢٢٥: ٥٢٣٢).

(٢) مسلم (١٩٠١)، أبو داود (٢٦١٨)، أحمد (١٢٤٢١)، البيهقي في «السنن» (جـ ٩ صـ ٩٩).

(٣) «فقه السيرة للبوطي» (جـ١٦١).

كهذه رجالًا أكْفَاء[1] تحققت فيهم كل الصفات، التي ينبغي أن تتوفر فيمن يقوم بمهمة كهذه، من قوة وشجاعة، وخفة في الحركة، وحدَّة بصر، وشدة سمع، وحسن تصرف، وقدرعال من الدهاء، كبسبسة بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء، وابن أبي حدرد، وحذيفة بن اليمان[2]، وغيرهم.

قال ابن إسحاق في معرض حديثه عن غزوة بدر: «وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذا شنًا لهما يسقيان فيه، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري القوم وهما يتلازمان[3] على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك، قال مجدي: صدقت، ثم خلص بينهما، وسمع ذلك عدي وبسبس، فجلسا على بعيرهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه بما سمعا»[4].

وقال ابن جرير الطبري - أثناء حديثه عما جرى بين النبي ﷺ وبين هوازن -: «لما سمع بهم نبي الله ﷺ، بعث إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم، حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم، فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله، وعلم أمر مالك وأمر هوازن وما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله فأخبره الخبر»[5].

---

(١) أكفاء بالتخفيف: جمع كُفْء، وأما أكِفَّاء بالتشديد فهي: جمع كفيف.

(٢) إرسال النبي ﷺ حذيفة في غزوة الخندق ثم رجوعه إلى النبي، موجود في فقرة (الذكاء والفطنة) من فصل: (أخلاق حربية عامة).

(٣) يتلازمان: تلزم كل واحدة صاحبتها، واللازمة: من لها الحق أو الدين، والملزومة: من عليها الدين.

(٤) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٦٤، ١٦٥).

(٥) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٦٧).

حصانة ضد الحرب الباردة

ومن الاستعداد والتجهز أن يأخذ المقاتلون قدرًا من الحصانة ضد الحرب الباردة، فلا يصدقوا ما يبثه الأعداء ويُشيعه المُرجفون، من أخبار كاذبة وإشاعات مُغرضة، من شأنها زعزعة الصفوف، وإلقاء الخوف في قلوب المقاتلين، فيُهزموا نفسيًا ومعنويًا قبل ملاقاة أعداءهم.

وإن المسلم في ظروف السلم، وحين يعيش في مجتمعه المسلم، لا يُصدِّق خبرًا حتى يتأكد منه، ولا يبني أموره على أنباء حتى يتبين له صدقها، فربما كان ناشر الخبر فاسقًا، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرات:٦]، فما بالنا بوقت الحرب الذي تنتشر فيه الإشاعات؟

وقد وقع مع النبي ﷺ وأصحابه من هذه الحرب الباردة الكثير، فصبروا ولم يتأثروا، ومن ذلك ما أشاعه المرجفون من خبر تجييش الكفار الجيوش للمسلمين، بقصد إخافة المسلمين منهم، وذلك بعد انصراف النبي من غزوة أحد وقبيل ذهابه إلى حمراء الأسد، فتوكل المسلمون على ربهم، فلم يلحقهم أذى.

سجل الله ﷻ هذا الموقف في القرآن فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣ - ١٧٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبُنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيمُ عليه السلام حين ألقيَ في النار، وقالها محمدٌ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

---

(١) البخاري - واللفظ له- (٤٢٨٧)، النسائي (١٠٤٣٩)، البيهقي في «الشعب» (١٠٨١).

التعبئة المعنوية وشَحْذ الهمم

ومن استعدادات النبي ﷺ للحرب والتجهز لها، أنه كان يُعبِّئ الروح المعنوية لجنوده، ويشحذ هممهم، ويقوي عزائمهم، لينقضوا على أعدائهم مستبسلين، غير مبالين بما يواجههم من أخطار، وكان في تعبئته يذكرهم بالجنة وما أعده الله للمجاهدين والشهداء، وفضل الصبر والتحمل، ففي يوم بدر - مثلًا - (خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم وقال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**»، فقال عمير بن الحمام رضي الله عنه أخو بني سلمة - وفي يده تمرات يأكلهن -: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء!؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل! وهو يقول:

رَكْضًا إلى اللهِ بغيرِ زادِ ... غيرَ التُّقى وعملِ المعادِ

والصبرِ في اللهِ على الجهادِ ... وكلُّ زادٍ عُرضةُ النَّفادِ

إلا التقى والبرِّ والرشادِ)[1]

وها هي آيات القرآن التي أنزلت على قلب النبي ﷺ، ليبلغها إلى أصحابه وأمتِه، ويفسرها لهم بمنطقِه وحكمته، مرة تصفُ الجهاد في سبيل الله بأنه التجارة الرابحُ أهلها، الناجي الظافر أصحابُها، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠- ١١].

ومرة تبرزُ الفرْقَ بين المقاتلين المجاهدين وبين القاعدين الناكصين، وأنهما لا يستويان، يقول الله ﷻ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٣)، «الاستيعاب» (جـ٣ صـ١٢١٤)، «الإصابة» (جـ٤ صـ٧١٥، ٧١٦).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٥- ٩٦].

ومرة تحذر من أقوال الكفار واعتقاداتهم، وتبين أنه لا يجري في كون الله من حياةٍ أو موت إلا بإذنه، وأن المجاهدَ لو قتل في سبيل الله فإلى مغفرة الله ورحمته، يقول المولى ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٦- ١٥٨].

يعقد الألوية والرايات

راية كلِّ جيش رمزُه الذي يدل عليه ويميِّزه عن غيره، فله أن ينتقيَ نوعية رايته ولونها وحجمها، و يختارَ الجنديَّ الشجاع المتمرس ليحملها ويذودَ عنها حتى الموت أو النصر، وليجتمع حولها من رآها من إخوانه، وإذا ما وضعت فوق مكان، عرف من رآها أن هذا المكان يسيطر عليه أصحاب هذه الراية، فإذا ما سقط حاملها بادر غيرُه من إخوانه باستلامِها وحملها، فإذا ما سقطت الراية ولم يبادر أحدٌ إلى مواصلةِ مسيرة حملها، فهو إيذانٌ بانهزام أصحابها، أو اقترابهم من الهزيمة.

وكان من تجهيز النبي ﷺ للحروب، أنه كان يقسم جيشه إلى كتائب ومجموعات، فهناك المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة والقلب، وكان يجعل أبناء كل قبيلة أو ناحية معا، لأن كل فرد أعرَفُ بأبناء قبيلته، أو أسرع فهما لكلامهم وخططهم من غيرهم، فالمهاجرون معًا، والأنصار متجاورون، وهكذا.

وكان النبي يجعل لكل كتيبة من كتائبه، أو لكل مجموعة من المجموعات التي يتكون منها جيشه راية تخصها، تتميز عن غيرها بلونها وحاملها، فممّن حمل راياتِ

النبيُّ ﷺ من المهاجرين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومصعب بن عمير رضي الله عنه، وجعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه، وممن اختاره النبيُّ ﷺ لحمل الرايات والألوية من الأنصار: سعد بن معاذ رضي الله عنه، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وسعد بن عبادة رضي الله عنه، وولده قيس بن سعد رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق - في حديثه عن غزوة بدر -: «ودفع ﷺ اللواءَ إلى مصعب بن عمير، وكان أمام رسول الله رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، يقال لها: العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ»[١].

وكان من اهتمام النبي ﷺ بالرايات والألوية، أنه كان يختار ألوانها بنفسه، وربما يغيرها من معركة إلى معركة، فمرة بيضاء وأحيانًا سوداء وأخرى صفراء، فعن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه «أن النبيَّ ﷺ دخل مكة ولواؤه أبيض»[٢]، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كانت راية النبي ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض»[٣]، وعن سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم قال: «رأيت راية رسول الله ﷺ صفراء»[٤].

وقد أحب أصحاب النبي ﷺ راياتِ وألوية نبيهم، وذكروها واشتاقوا إليها بعد موت نبيهم، فهذا شرطيُّ النبي ﷺ قيس بن سعد بن عبادة [٥]، في إحدى

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٥٩).

(٢) أبو داود (٢٥٩٢)، النسائي في «الكبرى» (٣٨٤٩)، وفي «المجتبى» (٢٨٦٦)، الترمذي (١٦٧٩)، ابن ماجه (٢٨١٧)، ابن حبان (٤٧٤٣).

(٣) الترمذي (١٦٨١)، ابن ماجه (٢٨١٨)، أبو يعلى (٢٣٧٠)، الطبراني في «الكبير» (١٢٩٠٩)، وفي «الأوسط» (٢١٩).

(٤) أبو داود (٢٥٩٣)، البيهقي في «السنن» (١٢٨٤٢).

(٥) قد أضافوه من شدة الذكاء إلى دواهي العرب الأربعة فصار خامسهم، وهم: عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه.

معاركه يحمل اللواء، وينشد قائلًا:

هذا اللواءُ لنا كنا نُطيفُ به	مع النبيِّ وجبريلٌ لنا مَددُ
ما ضرَّ من كانتِ الأنصارُ عيْبَتَه	الا يكونَ له من غيرهم أحد
قومٌ إذا حاربوا طالتْ أكفُّهُمُ	بالمَشْرَفِيَّةِ حتى يُفتَحَ البلدُ

ولا تخن من خانك

ومع أن النبي ﷺ كان يستعد للمعركة ويتجهز لها، فإنه ما كان يفاجئ قومًا بالقتال، وما كان يأخذهم على حين غِرّة، وإنما كان يعلنهم ليأخذوا أهبتهم! فهو لا يخونهم وإن خانوه، وهذا من أروع أخلاقيات الحروب في الإسلام، التي أمر الله بها في القرآن حين قال ﷻ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨]، وبهذا تظهر الفروق بين المسلمين وغيرهم، وخاصة في العصر الحديث، ممن ادَّعَوا الالتزام بالمبادئ، والتمسك بالأخلاق وحقوق الإنسان، وهم يرتكبون جرائم يندى لها جبين الإنسانية خجلا، فهم تحت الشعارات المزيفة يقتلون العُزل، ويُفاجئون الأسَرَ الآمنة أثناء نومهم، فيهدمون البيوت على من فيها، من أطفال ونساء وشيوخ وعجزة!

المناورات لإرهاب العدو

ومن استعداد النبي ﷺ للحرب، أنه ربما يصنع المناورات العسكرية، ليستعرض قوته أمام أعداءه، فيُرهب أعداءه ولا يستهينوا بقوة جيشه، ومن ذلك ما فعله النبي في اليوم التالي لغزوة أحد، حينما خرج لحمراء الأسد، «فلما كان الغد من يوم الأحد، لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه أن لا يخرج أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس!

فكلمه جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما، فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء

النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله على نفسي، فتخلفْ على أخواتك فتخلفت عليهن.

فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله مُرهِبًا للعدو، وليَبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم»[1].

لا استئذان إلا لضرورة وعذر

ومن استعداده ﷺ وتجهزه للحرب، أنه كان يجمع أكبر عدد يستطيع جمعه، خاصة إذا وصل حكم الجهاد إلى الفرض العيني، وما كان يقبل من أحد عذرًا بالتخلف عن القتال، إلا أن يكون رجلًا من اثنين:

١- أن يكون من أهل الأعذار المقبولة، التي أقرها الشرع وعفا عن أهلها، كالضعفاء والعجزة وأهل المرض، الذين لا يقوَون على حمل السلاح ومجاهدة الأعداء، أو ليس عندهم سلاح يستخدمونه، أو دابة تحملهم، بشرط أن تكون قلوبهم مع إخوانهم بالدعاء، وبذل النصيحة، قال الله ﷻ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٩١-٩٣].

٢- أن يكون ممن أطلع الله نبيه ﷺ على نفاقه وكُرهه للإسلام والمسلمين، فإن رجوعَ أمثال هذا يكون لصالح المسلمين، حتى لا يفُتَّ في عضد المقاتلين، ويتسبب

---

(١) «تفسير الطبري» (جـ٤ صـ١٧٦)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ١ صـ ٤٢٩)، «فتح الباري» (جـ٧ صـ٣٧٣).

في وهنهم، قال رب العزة في فضح أمثال هؤلاء، لو خرجوا مندسين في صفوف الموحدين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧]، كما قال عنهم إذا بقوا ولم يخرجوا: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١].

لا قتال مع الأذان

وكان من هديه ﷺ بعد التجهز للقتال، أنه ما كان يبدأ القتال بالليل، وإنما بعد أن يصبح، حتى يتأكد من أن هؤلاء الذين صبحهم هم أعداءه، وليسوا إخوانًا له في الدين، يصلون كما يصلي، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا، لم يكن يغزو بنا حتى يصبحَ وينظر، فإن سمع أذانًا كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم»[1].

□ □ □

(١) البخاري (٥٨٥)، أحمد (١٢٦٣٩)، ابن أبي شيبة (٣٦٨٧٦)، أبو يعلى (٣٨٠٤)، ابن حبان (٤٧٤٥)، الدارمي (٢٤٤٥).

البَابُ الثَّالِثُ

أخلاقيات أثناء المعركة

الفصل الأول: أخلاقيات القادة مع الجنود

الفصل الثاني: أخلاقيات الجنود مع القادة

الفصل الثالث: أخلاقيات الجنود مع الجنود

الفصل الرابع: أخلاقيات المجاهدين مع الأعداء المقاتلين

الفصل الخامس: أخلاقيات المجاهدين مع غير المقاتلين

الفصل السادس: أخلاقيات حربية عامة

الفصل الأول

أخلاقياتُ القادةِ مع الجنود

إن التاريخ مع سعته، لم يشهد أخلاقًا كأخلاق النبي ﷺ ومن أنابه مكانه أو خلفَه بعده، في معاملات القادة مع جنودهم - اللهم إلا ما كان من رسل الله مع المؤمنين المجاهدين من أقوامهم -، وإنك حين تقرأ السيرة النبوية تمتلئ عجبًا ودهشة، حين تلحظ هذا الكم الهائل من الأخلاقيات الكريمة الفاضلة، من القادة تجاه جنودهم!

فلم تنحصر أخلاقياتهم في جانب دون جانب، بل تكاملت جوانب عظمتها، وتعددت مناحي روعتها، فالحب والرفق، والتشجيع والمساعدة، والملاطفة والترويح عن النفوس، والمساواة وعدم المحاباة، والصبر والتحمل، والتعليم والمشورة، والتواضع وخفض الجناح، والذكاء والحكمة، وتطييب الخواطر وعدم الإحراج، وغير ذلك كثير، وسوف نشير إلى ومضات من هذا الضياء والنور، ونبرز قطرات من تلك البحور، ونقتطف زهرات من حدائق تلك الورود والزهور.

يأخذ بمشورتهم

كان النبي ﷺ في غزواته يستشير أصحابه، عملًا بقول الله ﷻ: ﴿... **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**...﴾ [آل عمران:١٥٩]، فكان يعرض عليهم الأمر، ويطلب إليهم أن يدلوَ كلٌّ بدلوه، ثم يستمع إلى آراءهم ووجهات نظرهم، ثم يأخذ ما يراه أقرب وأصوب، فرأيُ الجماعة أكثر بركة، وأشدُّ للقلوب راحة، وفيه جمعٌ

للكلمة، قال شاعرُ النيل:

رأيُ الجماعةِ لا تشقى البلادُ به رغمَ الخلافِ ورأيُ الفردِ يشقيها

وما أكثرَ هذه المواقفَ التي استشار فيها النبي ﷺ أصحابَه، فمنها ما كان منه يوم وقعة بدر، فقد أتاه ﷺ الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق ﷺ، فقال وأحسن، ثم قام عمر ابن الخطاب ﷺ، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو ﷺ فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ: ﴿...فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار، فلما قال ذلك رسول الله قال له سعد بن معاذ ﷺ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل»، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك.

فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك! ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل اللهَ يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ﷺ ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم![1].

وهذا الخلق علمه النبي ﷺ لأصحابه، وغرسه في نفوسهم، فصار عليه الخلفاء

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ ٢٦، ٢٧)، «طبقات ابن سعد» (جـ٢ صـ١٤)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ ١٦١، ١٦٢).

الراشدون من بعده، ومن سار على نهجهم، فكتب الله لهم بسببه خيرًا كثيرًا[1].

يجعل لكلٍّ منهم عملاً

كان من أخلاقيات النبي ﷺ، أنه كان يُوكِل لكلٍّ من أصحابه عملًا، مهما كانت ظروفه وقدراته، حتى لا يُحسَّ الضعيفُ في جانب، أنه عالة لا قيمة له في المجتمع، وأنه غير مرغوب فيه، وإنما يشعر بعزته وكرامته، وحتى تعلمَ الأمة أن أبواب العطاء والعمل في الإسلام مفتوحة على مصاريعها، فلا عذر لخامل كسلان.

ومن أدلِّ هذه المواقف ما فعله النبي ﷺ مع صاحبه وأحد مُؤَذنيه، عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه وكان أعمى، فقد استخلفه على المدينة أكثر من مرة أثناء غيابه، ففي المصنَّف: «كان النبيُّ ﷺ إذا سافر استخلف ابنَ أم مكتوم على المدينة»[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم على الصلاة وغيرها من أمر المدينة»[3]، وعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين»[4].

يحرضهم ويحثّهم

وكان النبي ﷺ يحرض[5] أصحابه على القتال، ويبثُّ فيهم الروح المعنوية بأسلوبه المؤثر، تنفيذا لأمر الله ﷻ له: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾[النساء: 84].

---

(1) راجع فقرة: (يشير وينصح) في فصل: (أخلاقيات الجنود مع القادة)، وفقرة: (الرأي والمشورة) في فصل: (أخلاقيات حربية عامة).

(2) عبد الرزاق في «المصنف» (3829).

(3) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (11435).

(4) أبو داود (2931)، أحمد (12366)، أبو يعلى (3138).

(5) راجع فقرة (التعبئة المعنوية) من فصل: (الاستعداد والتجهز).

يعطي النياشين والشهادات

إن كانت الدول المتقدمة ووزارات الدفاع في العصر الحديث، تهَب للمبرِّزين في صنوف القتال، وللبارعين في المهارات الحربية، الأوسمة والنياشينَ والأنواط الشرفية، وتخطُّ لهم الشهاداتِ الفخرية، وتخلع عليهم الألقاب والرتب، وتمنحهم الجوائز المالية، التي ترتفع بها معنوياتهم، وتطمح أنظار غيرهم إليها، فيحاولوا الاقتداء بهم في جدهم واجتهادهم - فإن النبيَّ ﷺ منذ أكثرَ من أربعة عشر قرنًا قد صنع مع جنوده هذا وزيادة!

فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: («... **كان خيرَ فرسانِنا اليومَ أبو قتادة، وخيرَ رجالَتِنا سلمة**»، قال: أعطاني رسول الله ﷺ سهمين، سهم الفارس وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء، راجعين إلى المدينة...)[1]، وذلك لِما أبداه سلمة[2] وأبو قتادة من براعةٍ فائقة نادرة يوم غزوة ذي قرد.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم! فقال: «**أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفرٌ فأصيب، ثم أخذ ابنُ رواحة فأصيب** - وعيناه تذرفان - **حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوفِ الله، حتى فتح الله عليه**»[3].

قال الدكتور البوطي: وحديث نعيه لهؤلاء الشهداء الثلاثة، يسجل فضلًا خاصًا لخالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد قال لهم في آخر حديثه: «**حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه**»... لقب سيف الله لخالد، وتلك أول وقعة

---

(١) مسلم (١٨٠٧)، أحمد (جـ٤ صـ٥٣)، ابن أبي شيبة (٣٧٠٠٠)، ابن حبان (٧١٧٣).

(٢) راجع بطولة سلمة في غزوة ذي قرد في فصل: (شبهة لابد من دحضها).

(٣) البخاري في «الصحيح» (٤٠١٤).

يحضرها خالد رضي الله عنه في صف المسلمين، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة[1].

يصبر معهم

ومن أخلاقيات القائد مع جنوده، أنه يصبر بينهم على الأذى كما يصبرون، ويتحمل معهم المشاق كما يتحملون، حتى يشعروا بأنه واحد منهم، يعيش آمالهم وآلامهم، ولم يتخلق بهذا الخلق الحربي أحد كما تخلق به القائد الأعظم، ونبينا الأكرم ﷺ، في حروبه وغزواته.

ومن ذلك ما حدث مع النبي ﷺ حينما خاض مع أصحابه غزوة أحد، وحدث من الرماة ما حدث، فانقلبت موازين المعركة، وكسرت من النبي ﷺ رُباعيته، وشُجَّت جبهته، وغاصت حلقتان من حلق المِغفر في وجنتيه، وأصيب بالإعياء الشديد، حتى حمله طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فصعد به الجبل! وهو مع كل ذلك صابر محتسب.

فعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد رضي الله عنه وهو يُسأل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: «أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي.

قال: كانت فاطمة بنت رسول الله رضي الله عنها تغسله، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يسكب الماء بالمِجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدمَ إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم! وكسرت رباعيته يومئذ، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه»[2].

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ٢٦٢).

(٢) البخاري - وهذا لفظه- (٣٨٤٧)، مسلم (١٧٩٠)، ابن ماجه (٣٤٦٤)، ابن حبان (٦٥٧٩)، أبو يعلى (٧٥٣٦)، الطبراني في «الكبير» (٥٧٨٩).

وعن ابن عباس ﵄ قال: «اشتد غضبُ الله على من قتله نبيٌّ، واشتد غضبُ الله على من دمى وجهَ رسول الله ﷺ»[١].

قال العلامة أبو بكر الجزائري: «وقد تجلى صبره ﷺ بوضوح في عدم جزعِه لما أصابه وأصاب أصحابه من آلام وأحزان، ومن فوات النصر الذي قاربه في أول النهار، وخسره في آخره، حيث انقلب إلى هزيمة مُرَّة وانكسار خطير»[٢].

ومن ذلك تحمله للتعب والجوع في غزوة الخندق، حتى ربط على بطنه الشريف حجرا! فعن جابر ﵁ قال: (إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبيُّ ﷺ المِعْولَ، فضرب في الكدية، فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم!...)[٣].

يرفق بهم

وكان ﷺ في حروبه رفيقًا ودودًا بجنوده، وإن رفقه ليتجلى لنا واضحًا فيما نقله لنا جابر بن عبد الله ﵁ حيث قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيُزجي الضعيف، ويُردف، ويدعو لهم»[٤].

يعلمهم برفق

وكما كان ﷺ رفيقًا بأصحابه في سلمه وحربه، فقد تجلى هذا الرفق أيضًا، في تعليمه لأصحابه في ساعات الحروب، فقد كان يعلمهم برفق، من غير تعنيف ولا تبكيت فعن أبي واقد الليثي ﵁ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن

---

(١) البخاري (٣٨٤٨)، أبو يعلى (٢٣٦٦).

(٢) «هذا الحبيب محمد يا محب» (صـ ٢١٣).

(٣) البخاري - واللفظ له- (٣٨٧٥)، ابن أبي شيبة (٣١٧٠٩)، الدارمي (٤٢).

(٤) أبو داود (٢٦٣٩)، الحاكم (٢٥٤١)، البيهقي في «السنن» (١٠١٣٢).

حدثاءُ عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذاتُ أنواط، قال: فمررنا بالسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذاتَ أنواط، كما لهم ذاتُ أنواط! فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل: ﴿...ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم»[١].

يرفق بالمجاهدات

وإن كان رفق النبي ﷺ قد حصل عليه الرجال من أصحابه، فإن حظ النساء اللواتي تشرفن بالخروج معه في بعض غزواته لم يكن بأقلَّ من نصيب الرجال، فعن امرأة من بني غفار رضي الله عنها قالت: (أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار، فقلنا له: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - فنداوي الجرحى، ونعينُ المسلمين بما استطعنا، فقال: «على بركة الله».

قالت: فخرجنا معه، وكنت جارية حديثة، فأردفني رسولُ الله ﷺ على حقيبةِ رحله، قالت: فوالله لنزل رسولُ الله ﷺ إلى الصبح، فأناخ ونزلت عن حقيبةِ رحله...

قالت: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر، رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة - التي ترين في عنقي - فأعطانيها، وجعلها بيده في عنقي! فوالله لا تفارقني أبدًا، وكانت في عنقِها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها)[٢].

يشجعهم على العمل

ومن أخلاقيات السيرة النبوية العطرة، أن القائد ﷺ كان يشجع جنوده على

---

(١) الترمذي (٢١٨٠)، أحمد (٢١٩٤٧)، ابن أبي شيبة (٣٧٣٧٥)، ابن حبان (٦٧٠٢)، أبو يعلى (١٤٤١)، الطبراني في «الكبير» - وهذا لفظه- (٣٢٩١).

(٢) أبو داود (٣١٣)، أحمد (٢٧١٨٠)، «الطبقات الكبرى» (جـ٨ صـ٢٩٣).

أعمالهم، وذلك بكلماتِه الرقيقة، ودعواتِه الحارة المباركة، ومن ذلك ما حظي به خال النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم أحد، فقد قال: «نثل لي النبي ﷺ كنانته يوم أحد فقال: ارم فداك أبي وأمي»[١].

ولم تخل غزوة الخندق من هذا الخلق النبيل، فقد رقَّ النبي ﷺ لأصحابه حين أصابهم من التعب والجوع ما أصابهم، فوقف بينهم وذكرهم ودعا لهم وشجعهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال: اللهم إن العيشَ عيشُ الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا»[٢]

يخدم بنفسه ويساعد بيده

ومن روائع أخلاقيات القادة مع جنودهم في الإسلام، أنهم مع ما يقومون به من تفكير وتخطيط، وما ينوءون به من حمل للقيادة والمسؤولية، فإنهم - إذا اتسع وقتهم - يخدمون بأنفسهم، ويساعدون جنودهم بأيديهم!

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الغبارُ جلدة بطنِه! وكان كثيرَ الشَّعر، فسمعته يرتجز بكلماتِ ابن رواحة، وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) البخاري (٣٨٢٩)، النسائي في «الكبرى» (١٠٠٢٥)، البزار (١٠٨٠).

(٢) البخاري - بهذا اللفظ- (٢٦٧٩، ٣٨٧٣)، مسلم (١٨٠٥)، النسائي في «الكبرى» (٨٣١٧، ٨٨٥٩)، أحمد (١٢٩٧٤، ١٣١٤٩)، ابن أبي شيبة (٣٢٣٧١، ٣٦٨١٣)، الحاكم (٧١٢٣)، البيهقي في «السنن» (١٣٠٧١).

فأنزلنْ سكينة علينا وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا
إن الألي قد بغَوا علينا وإن أرادوا فتنة أبَينا

قال: يمد صوته بآخرها»[1].

قال الدكتور البوطي: «وفي مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ في حفر الخندق عبرة بالغة كبرى، توضحُ لك حقيقة المساواة التي يرسيها المجتمعُ الإسلامي بين جميع أفراده المسلمين، وتكشف لك أن العدالة والمساواة، ليستا في الاعتبار الإسلامي مجردَ شعارات، يزيَّنُ بها ظاهر المجتمع، أو يوضعُ منه في إطار لامع برَّاق، وإنما العدالة والمساواة هما الأساس الواقعي، الذي تنبثق منه القيمُ والمبادئ الإسلامية عامة ظاهرًا وباطنًا.

فأنت تجد أن رسول الله ﷺ لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحًا هادئًا، ولا أقبل إليهم في احتفال صاخبٍ رنان، ليمسكَ مِعولَ أحدِهم بأطراف أصابعه، فيضربَ به ضربة واحدة في الأرض، إيذانًا ببدء العمل، وتخييلًا لهم أنه قد شاركهم في ذلك، ثم يُلقي المعول ويدير إليهم ظهره، ينفض عن حُلَّتِه ما قد علق بها من ذرات غبار!

ولكن رسول الله ﷺ قد انخرط في العمل كأي واحد من أصحابه، حتى لبس ثوبًا من الأتربة والغبار على جسمه! فما تفرقه عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون لينشط بعضهم بعضا فيرتجزُ معهم، ويتعبون ويجوعون فيكون أولَهم تعبًا وجوعًا.

وتلك هي حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة، بين الحاكم

---

(١) البخاري - واللفظ له- (٢٦٨٢، ٢٨٧٠، ٣٨٧٨،٣٨٨٠)، مسلم (١٨٠٣)، النسائي في «الكبرى» (٨٨٥٧، ١٠٣٦٧)، أحمد (جـ٤ صـ ٢٩١، ٣٠٢)، ابن أبي شيبة (٢٦٠٦٩)، ابن حبان (٤٥٣٥)، الدارمي (٢٤٥٥)، أبو يعلى (١٧١٦).

والمحكوم، والغني والفقير، والصعلوك والأمير، وأنت لا تجد فرعًا من فروع الشريعة وأحكامها، إلا قائمًا على هذا الأساس ضامنًا لهذا الحق»[١].

ومن هذه المواقف المشرقة المؤثِّرة من سيرة الحبيب المحبوب ﷺ، ما وقع منه في غزوة مؤتة، حين مات أحد أصحابه بالليل، فقام هو ﷺ - ومعه بعض أصحابه - بدفنه بنفسه، ودعا له بالرضا والرحمة، حتى غبط الميتَ بعضُ أصحابه ﷺ! فلندَع الكلام لذلك الصحابيِّ الجليل الغابط، ليرويَ لنا ما جرى في ظلمة تلكم الليلة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قمتُ من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني رضي الله عنه قد مات!

وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه، وهو يقول: أدنيا إليَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشِقِّه قال: اللهم إني أمسيتُ راضيًا عنه فارضَ عنه، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يا ليتني كنتُ صاحبَ الحفرة!»[٢].

ليس جبارًا

ومن أخلاقيات القائد المسلم، أن يكون متواضعًا مع جنوده، مبتعدًا عن الكِبر، نائيًا عن التجبر والطغيان، فإن هذا يكون مدعاة لحب جنوده له، وقد ضرب النبيُّ ﷺ في هذا الخلق الكريم أروعَ مثل، وبلغ فيه الغاية، فعن أبي رهم رضي الله عنه قال: (غزوت مع رسول الله ﷺ تبوكًا، فلما قفل سرنا ليلة، فسرت قريبًا منه، وأُلقيَ عليَّ النعاس، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلته، فيُفْزِعني دنوُّها خشية أن

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ٢١٨، ٢١٩).

(٢) «الاستيعاب» (جـ٣ صـ١٠٠٣)، الطبراني في «الأوسط» (٩١١١)، وجعل المتمني أبا بكر بدل ابن مسعود.

أصيبَ رجله في الغرز، فأزجرُ راحلتي حتى غلبتني عيني في بعض الطريق، ونحن في بعض الليل، فركبتْ راحلتي راحلته ورجلُه في الغرز، فأصبتُ رجله فلم أستيقظ إلا بقوله: «حَسّ»[1]! فقلت: استغفرْ لي يا رسول الله، قال: «سِرْ...»)[2].

يقضي على الفتنة

ومن الأخلاقيات التي يجب أن يتحلى بها القائد - حتى يُكتبَ له التوفيق في قيادتِه مع جنوده، وحتى يستطيع أن يسوسهم - أن يكون متصفًا بالحكمة وحسن التصرف، وأن يكون منتبهًا متيقظًا لأي فتنة تطلُّ برأسها، فيقضي عليها في مهدِها، وبأسرع وقت متاح، من غير أن يعطيَ فرصة لأحدٍ فينفخ فيها.

وكم من مرة توشك الفتنة فيها أن تقع، ويوشك الخلاف فيها أن يدبّ، نظرًا لتكوُّن أصحاب النبي ﷺ من قبائل وبلاد شتى، ولاندساس بعض المنافقين بين صفوفهم، ولتأخر إسلام بعضهم - فينتبهُ النبي ﷺ سريعا فيقضي على الفتنة ويزيل الخلاف، وسأكتفي بسوق أنموذج واحد لهذا الأمر، وهو ما كاد أن يقع بين المهاجرين والأنصار في غزوة المريسيع.

(فبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء (المريسيع)، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجير له من بني غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود رضي الله عنه، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج رضي الله عنه على الماء فاقتتلا.

فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين! فغضب عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام

(١) حَسّ: لفظة يقولها من أحس بألم.

(٢) أحمد (جـ٤ صـ٣٤٩)، ابن حبان - بهذا اللفظ- (٧٢٥٧)، الحاكم (٦٥١٦)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ١٨٣).

حدث، فقال: أوَقَدْ فعلوها!؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا! والله ما أعُدُّنا وجلابيبَ قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبَك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل! ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادَكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا عن داركم.

فسمع ذلك زيدُ بن أرقم ﷺ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب ﷺ، فقال مُرْ به عبَّادَ بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

فارتحل الناس، ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمسُ ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أبي!)[1].

لا يحابي قريبًا

وكان من أخلاقيات النبي ﷺ، أنه لا يفرق بين جنوده، ولا يحابي أحدًا منهم على حساب أحد، فكان العدل والمساواة بين القريب والغريب شعارَه، وكانت المصلحة العامة نصبَ عينيه وهدفه، فإن ميَّز الناسُ الآن في عصر التقدم والتطور، وفي زمن رفع الشعارات البراقة، وإطلاق العبارات الرنانة، وقربوا أقاربَهم ومعارفهم وحابوهم، وأبعدوا غيرهم وغضوا الطرف عنهم، فإن النبي ﷺ لم يكن كذلك.

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٠٩).

فها هو ﷺ يرسل سرية في مهمة عسكرية، وهو يعلم أنها ربما تعرضت لما يُودي بحياتها، فيُؤمِّر عليها ابنَ عمته عبد الله بن جحش رضي الله عنه، ويبعث معه ثمانية من أصحابه الكرام، ولكن كلهم من أقاربه المهاجرين، ليس فيهم أحد غيرهم، قال أهل التاريخ والسير: «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا»[(١)].

وها هي ذي معركة بدر تدور رحاها، فيتقدم ثلاثة من أقوياء جيش العدو، ويطلبون من المسلمين أن يُخرجوا لهم من يبارزهم، فيخرج لهم بعض شباب الأنصار، فيأبى الكفار إلا خروج أكفاءِهم من أقارب النبي ﷺ، فيُخرج لهم النبيُّ عمَّه وابنين من أبناء أعمامه!

فعن علي رضي الله عنه قال: (تقدم - يعني: عتبة بن ربيعة وابنه وأخوه - فنادي: من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة إنما أردنا بني عمنا!

فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث»، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، ثم ملنا على الوليدِ فقتلناه واحتملنا عبيدة)[(٢)].

يسمع الأناشيد

ومن أخلاقياته ﷺ في الحروب أنه كان يُروِّح عن جنوده، بالسماح لمن يجيدُ

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٤٧)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٤٦).

(٢) أبو داود - بهذا اللفظ- (٢٦٦٥)، ابن أبي شيبة (٣٦٦٧٩)، الحاكم (٤٨٨٢)، البيهقي في «السنن» (٥٩١٢).

الشعر واللحن وفنَّ الحداء أن يُخرج ما في جعبته، وأن يُطربَ القومَ ليزيحَ عنهم تعبَ الطريق، فتستريحَ النفوسُ وتنشط الأجسام.

فعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: (خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلًا، فقال رجل من القوم لعامر ﷺ: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك، وكان عامر رجلًا شاعرًا حدَّاء، فنزل يحدو بالقوم يقول:

واللهِ لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فاغفر فداءً لك ما اتقينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

والقِيَنْ سكينة علينا ... إنا إذا صِيْحَ بنا أبَينا

وبالصياح عوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟»، قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله»، قال رجل من القوم: وجبتْ يا نبي الله، لولا أمتعتنا به...)[1].

يلاطف ويلاين

وكان من أخلاقيات النبي ﷺ في الحروب، أنه كان يلاطف جنوده بملاينته، ويسليهم بمحاورته، فعن عبد الله المزني عن أبيه ﷺ قال: (خط رسولُ الله ﷺ الخندق عام حرب الأحزاب، حتى بلغ المذاحجَ، فقطع لكلِّ عشرةٍ أربعين ذراعًا، فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان، وكان رجلًا قويًا، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمانُ منا أهل البيت»)[2].

---

(١) البخاري- واللفظ له- (٣٩٦٠)، مسلم (١٨٠٢)، أحمد (جـ٤ صـ٤٧)، الطبراني في «الكبير» (٦٢٩٤).

(٢) الحاكم (٦٥٤١)، الطبراني في «الكبير» (٦٠٤٠)، ابن سعد في «الطبقات» (جـ٤ صـ٨٢، ٨٣) قال الهيثمي: فيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد (جـ٦ صـ١٣٠).

ومن مواقف الملاطفة والملاينة، التي تنِمُّ عن كريم خلقه، وتدل على عظيم ذوقه، ما جرى في طريق العودة من غزوة ذات الرقاع، بينه وبين جُنْدِيِّه النجيب جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ولندَع الحديثَ لجابر نفسِه ليخبرنا بما جرى، روى الإمام أحمد عنه أنه قال: (خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، مرتحلًا على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاقُ تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ، فقال: «ما لك يا جابر؟»، قال: قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا، قال: «فأنخه»، وأناخ رسول الله، ثم قال: «أعطني هذه العصا من يدك»، أو قال: «اقطع لي عصا من شجرة»، قال: ففعلت، قال: فأخذ رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات، ثم قال: «اركب» فركبت، فخرج - والذي بعثه بالحق - يواهق[1] ناقته مواهقة!

قال: وتحدث معي رسول الله ﷺ فقال: «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟»، قال: قلت: يا رسول الله بل أهبه لك، قال: «لا، ولكن بعنيه»، قال: قلت: فسُمْني[2] به، قال: «قد قلت أخذته بدرهم»، قال: قلت: لا، إذا يغبنني رسولُ الله، قال: «فبدرهمين»، قال: قلت: لا، قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله حتى بلغ الأوقية، قال: قلت: فقد رضيت، قال: «قد رضيت؟»، قلت: نعم، قلت: هو لك، قال: «قد أخذته».

قال: ثم قال لي: «يا جابر هل تزوجتَ بعد؟»، قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «أثيبًا أم بكرًا؟»، قال: قلت: بل ثيبًا، قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك!؟»، قال: قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك بناتٍ له سبعًا، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن، قال: «أصبت إن شاء الله».

---

(١) يواهق: يسارع ويسابق.

(٢) سام المشتري السلعة: ذكر الثمن الذي يريد أن يشتريها به.

قال: «أما أنا لو قد جئنا صِرارًا أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعتْ[1] بنا فنفضت نمارقها»، قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، قال: «إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملًا كيِّسًا»، قال: فلما جئنا صرارًا أمر رسول الله بجزور فنحرت، فأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا.

قال: فأخبرت المرأة الحديث وما قال لي رسول الله ﷺ، قالت: فدونك فسمعًا وطاعة، قال: فلما أصبحتُ أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ، ثم جلست في المسجد قريبًا منه، قال: وخرج رسول الله فرأى الجمل، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر، قال: «فأين جابر؟»، فدُعيت له، قال: «تعال يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك!».

قال: فدعا بلالًا، فقال: «اذهب بجابر فأعطه أوقية»، فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئًا يسيرًا، قال: فوالله ما زال ينمي عندنا ونرى مكانه من بيتنا، حتى أصيب أمس فيما أصيب الناس، يعني: يوم الحرة)[2].

قال الدكتور البوطي: (وكأنما استشعر رسول الله ﷺ في تأخر جابر عن القوم بسبب جمله الضعيف الذي لا يملك غيره، مظهرًا لحالته العامة هذه... - وقد كان من عادته إذا سار مع صحبه في طريق، أن يتفقد أصحابه كلهم ويطمئن عليهم بين كل فترة وأخرى -، فانتهزها فرصة وتخلف حتى التقى معه وراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكِه، في طريق ليس معهما فيه ثالث.

عرض عليه شراء بعيره، وهو إنما يريد أن يجعل من ذلك ذريعة ومناسبة لإكرامه ومساعدته على وضعه الذي هو فيه، ثم سأله عن الزوجة والبيت، في

---

(١) يقصد: إذا سمعَتْ بقدومنا امرأة جابر.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٥٠٦٨).

أسلوب فكه رقيق، وراح يطمئن الزوج الجديد، أنهم إذا وصلوا قريبًا من المدينة أقاموا ساعات هناك، حتى يتسامع أهل المدينة بمقدمهم، فتسمع روجته فتصلح له من شأنها، وتهيئ له البيت بزينتِهِ ونمارقه، وينساق معه جابر في الأسلوب نفسه فيقول: «والله يا رسول الله ما لنا من نمارق!» فيجيبه قائلًا: «إنها ستكون»

صورة رائعة عن لطف معشره، وأنس حديثه، والفكاهة الحلوة في محاورته لأصحابه، ولم يكتب لنا أن نراها ونسعد بها في مجالسه وغزواته وأسفاره، ولكن ها نحن نستشفها من سيرته وأخباره العطرة، فيهزنا الشوق إلى رؤياه التي حرمناها، ومجالسه التي سمعنا بها ولم نرها، وغزواته التي قرأناها ولم يكن لنا شرف الاشتراك بها)[١].

ومن ذلك ما وقع من النبي ﷺ في غزوة ذي قرد، مع المرأة التي أسرها الكفار، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه (أن امرأة من المسلمين أسرها العدو، وقد كانوا أصابوا قبل ذلك ناقة لرسول الله ﷺ، فرأت من القوم غفلة، فركبت ناقة رسول الله، وجعلت عليها نذرًا إن اللهُ أنجاها أن تنحرها، فقدمت المدينة فأرادت أن تنحر ناقة رسول الله فمُنعت من ذلك، فذكر دلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**بئس ما جزيتِها!**»، ثم قال: «**لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا في معصية الله**»)[٢].

يخطط مقدَّمًا

ومن أخلاقيات الحبيب المحبوب ﷺ في الحروب، أنه كان يُعِدُّ للأمر عُدته قبل وقوعه، ويخطط مبكرًا حتى يعوِّد امته على الجد والعمل والنظام والتخطيط، ولا يفجأه الأمر فيكون لم يعمل حسابه، ومن ذلك أنه لما بعث جنوده في غزوة مؤتة، أمَّر

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ٢٠١).

(٢) مسلم (١٦٤١)، أحمد (جـ٤ صـ٤٣٢)، النسائي في «الكبرى» - واللفظ له- (٨٧٦٢)، الطبراني في «الكبير» (٤١٣)، وفي الأوسط (١٠٧١).

عليهم ثلاثة أمراء متتالين، إذا قتل قائد خلفه قائد آخر، ولا يخفى ما في هذا الأمر من حكمة، حتى لا يقعَ ارتباكٌ في صفوف المقاتلين، إذا قتل قائدُهم وظلوا بدون قائد.

فعن أبي قتادة الأنصاري ؓ فارس رسول الله ﷺ قال: (بعث رسول الله جيش الأمراء، فقال: «عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة»، فوثب جعفر فقال: بأبي أنت وأمي ما كنت أرهب أن تستعمل علي زيدا! فقال: «امض فإنك لا تدري في أي ذلك خير...»)[1].

هذا هو النبي القائد ﷺ، فكر وخطط لكل ما سيواجهه الآن، ولما سبق وقتَه خطَّط لما يجبُ عليه فعله بعد ذلك، وسار على هذا الدرب مِن بعده محبُّوه ومُتبعوه، ففتحت أمامهم البلاد، وهدي على أيديهم العباد، ولم يستطع أن يطمع فيهم طامع، أو يجرؤ أحد على اقتطاع شبر من أرضهم، فضلًا عن النيل من عزتهم وكرامتهم.

ولكن لما جهل الناس الآن مبادئ دينهم، وتخلوا عن قرآنهم وهدي نبيهم، حاق بهم من الذل ما لا يعلمه ولا يرفعه عنهم إلا الله ﷻ، فتحكم فيهم من كان لا يستطيع أن يدافع عن نفسه! وما أصدق الشاعر محمود غنيم حين صوّر واقعهم تصويرًا دقيقًا فقال:

أنى اتجهتَ إلى الإسلام في بلدٍ ... تجدْه كالطير مقصوصًا جناحاهُ
كم صرَّفتنا يدٌ كنا نصرِّفُها ... وبات يحكمُنا شعبٌ ملكناهُ؟!
لاهُمَّ قد أصبحتْ أهواؤُنا شِيَعًا ... فامننْ علينا براعٍ أنت ترضاهُ
راعٍ يُعيدُ إلى الإسلام سيرتَه ... يرعى بنيه وعينُ اللهِ ترعاهُ

هنا يعفو ويصفح

ومن أخلاقيات القائد ﷺ مع جنوده، أن يعفو ويسامح من أخطأ إذا لم يضر هذا الخطأ أحدًا، وإذا راجع المخطئ نفسه، وتلافى تقصيره وندم عليه، ومن هذا ما

(١) النسائي في «الكبرى» (٨٢٤٩)، أحمد (٢٢٦٠٤)، البزار (٧٠٤٨)، ابن أبي شيبة (٣٦٩٦٥).

كان من أبي خيثمة ﷺ في غزوة مؤتة، فعنه أنه قال: (تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى مضى رسولُ الله، فدخلت حائطًا فرأيت عريشًا قد رُشَّ بالماء، ورأيت زوجتيَّ فقلت: ما هذا بالإنصاف، أن رسول الله في السموم والحميم، وأنا في الظل والنعيم!

فقمت إلى ناضح[١] فاحتقبته، وإلى تميرات فتزودتها، فنادت زوجتي: إلى أين يا أبا خيثمة؟ فخرجت أريدُ رسول الله... فلما اطلعت على العسكر، فرأني الناس قال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فجئت فقلت: كدت أهلِكُ يا رسول الله، فحدثته حديثي، فقال لي رسول الله خيرًا، ودعا لي)[٢].

وقال أبو خيثمة ﷺ في ذلك:

ولما رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا ... أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكرما

وبايعتُ باليمنى يدي لمحمدٍ ... فلم أكتسبْ إثمًا ولم أغْشَ مَحْرمَا

تركتُ خضيبًا في العريش وصرمةً ... صفايا كرامًا بُسرُها قد تحمَّمَا

وكنتُ إذا شكَّ المنافقُ أسمحتْ ... إلى الدين نفسي شطره حيثُ يمَّمَا[٣]

وهنا يقسو ليُربِّي

ومن الأخلاقيات الإسلامية الحربية، أن يقسو القائد - أحيانًا - مع جنوده، خاصة إن قصَّروا في الواجب بدون عذر، لتتحسن أخلاقُهم، ويتعظ بهم غيرُهم:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازمًا ... فليقسُ أحيانًا على من يرحمُ

ومن المواقف الدالة على ذلك من السيرة النبوية، ما وقع من النبيِّ ﷺ مع كعب ابن مالك وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وهم الذين تخلفوا عن غزوة

---

(١) الناضح: البعير الذي يستقى عليه الماء.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٤١٩).

(٣) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ٢٠١).

تبوك من غير عذر! فقد هجرهم النبي ﷺ لمدة خمسين يومًا، قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «... وآتي رسولَ الله فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي! وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني! حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما ردَّ علي السلام! فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت! فعدت له فنشدته، فسكت! فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. .»[1]

وجمع رسول الله لهم مع هَجره أن نهى أصحابَه عن محادثتهم، فما كان يكلمهم أحد لا في البيوت ولا في الطرقات ولا في المسجد! قال كعب: «... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرتْ في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد!...»[2].

وكان من بين أسلوب التأديب لهم، أن أمرهم بأن يعتزلوا زوجاتِهم فلا يقربوهن، قال كعب: «... حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله يأتيني فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك! فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت

---

(١) البخاري (٤١٥٦)، مسلم (٢٧٦٩)، أحمد (جـ٣ صـ٤٥٦)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ٤٦)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٣٣).

(٢) المراجع السابقة، فهو نفس الحديث.

لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر...»[1].

وظلوا على هذا الحال من هجر النبي ﷺ لهم، وعدم تحدث الصحابة معهم، واعتزالهم أزواجَهم، حتى عاشوا في ضيق وكرب، ثم فرج الله ﷻ عنهم بالتوبة على رأس الخمسين، وقد صور الله في القرآن هذا الكرب الشديد وتوبته عليهم قائلًا: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

لا إحراج

لقد كان النبي ﷺ أرهفَ الناس مشاعر، وأرقَّ الخلق أحاسيس، فإذا أخطأ أحدٌ أمامه عالج الخطأ بأسلوبٍ مهذب، وعلمه بطريقة رفيقة، وربما لَمَّح أو كنَّى أو ورَّى حتى لا يُحرجَ من أمامه أو يجرحَ مشاعره، حتى وصف الله أخلاقه فقال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [آل عمران:١٥٩].

وكان ﷺ أيضًا إذا ما جرح أحدٌ شعورَ أحد أمامه، يبادر بعلاج الموقف بطريقة فريدة، يزيلُ بها الإحراج الذي اعترى المُحرَج، ويعلم بها من صدر منه الإحراج! ومن ذلك موقفه من أهل المدينة، الذين تلقوا جيش مؤتة عند رجوعهم منسحبين[2]، وعيَّروهم بالفرار والانسحاب، قال ابن سعد: (فلما سمع أهل المدينة

---

(١) البخاري (٤١٥٦)، مسلم (٢٧٦٩)، أبو داود (٢٢٠٢)، النسائي في الكبرى (٥٦١٥)، وفي «المجتبى» (٣٤٢٢)، أحمد (جـ٣صـ٤٥٦)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ٤٦)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٣٣).

(٢) كان قائد المسلمين يومها خالد بن الوليد، بعد قتل القواد الثلاثة، وقد انسحب خالد بالجيش محافظة عليه، لَمَّا رأى جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وجيش العدو مائتي ألف، وهذه حكمة وفطنة من خالد.

بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يحثُون في وجوههم التراب! ويقولون: يا فرَّار، أفررتم في سبيل الله!؟ فيقول رسولُ الله ﷺ: «ليسوا بفرَّار ولكنهم كرَّار إن شاء الله»)[1].

يُطيِّب الخواطر

ومن أخلاقيات القادة مع الجنود في سيرة النبي ﷺ، أنهم يطيِّبون خواطرهم، ويزيحون عنهم غضبهم، ويفرِّجون همهم وضيقهم، ومن المواقف الرائعة التي طيَّب فيها القائد الأعظم خاطر جنديٍّ من جنود جيشه، ما وقع من النبي ﷺ مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حينما خلَّفه في غزوة تبوك بالمدينة المنورة، فقال بعضُ الناس عن علي: كره النبيُّ صحبته وملَّه فأبقاه في المدينة! فتضايق علي رضي الله عنه، فشكا للنبي.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (لما غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك، خلف عليًّا بالمدينة، فقالوا فيه: ملَّه وكره صحبته! فتبع عليٌّ النبيَّ ﷺ حتى لحقه بالطريق، فقال: يا رسول الله خلفتني بالمدينة مع الذراري والنساء، حتى قالوا: مله وكره صحبته! فقال له النبي ﷺ: «يا علي إنما خلفتك على أهلي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟»)[2].

❑ ❑ ❑

وفطنة من خالد.

(١) ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (جـ٢ صـ١٢٩).

(٢) البخاري (٤١٥٤)، مسلم (٢٤٠٤)، النسائي في «الكبرى» - وهذا لفظه- (٨١٣٨، ٨٤٢٩)، أحمد (١٥٣٢)، ابن أبي شيبة (٣٢٠٧٤)، البزار (١١٩٤)، ابن حبان (٦٨٢٧)، أبو يعلى (٣٤٤).

الفصل الثاني

أخلاقياتُ الجنودِ مع القادة

إن جنودًا هذا قائدُهم، وهذه هي أخلاق ومعاملات قدوتِهم، لا بد أن يكونوا في الجندية مضربَ الأمثال، وفي العسكرية أنموذجًا فريدًا لتربية الأبطال، وأن يُسطروا في تاريخ أخلاق الحروب أروع الصفحات، وأن يكونوا موضعَ اهتمام الباحثين المنصفين المتخصصين في دراسة المعاملات العسكرية.

ومن تتبع أخلاقياتِ الجنود مع قادتِهم في الحروب في سيرة الحبيب المحبوب رأى عجبًا، ولمَّا أسعفته الصفحاتُ في تقييد ما تتبعه من أخلاقياتهم النادرة، وسوف نستخرج من هذه الأخلاقيات مقتطفات، لتكون زادا للمهتمين بالآداب والأخلاق، ومِشعلَ هدايةٍ للمتخصصين في الشؤون الحربية.

يحب القائد

من أهم أخلاقيات الجندي مع قائده، أن يكون محبًا له، لأنه له بمثابة الأب الروحي الحنون، والمعلم الذي لا يبخل عليه بكل ما لديه من تجارب وخبرات، ولم يوجد في تاريخ الحروب جنود أحبوا قائدهم، كحب أصحاب النبي لنبيهم ﷺ وللقواد الذين كان يُنيبُهم عنه، والأمثلة التي تدل على هذا من السيرة النبوية كثيرة، وسأكتفي بعرض ثلاثة من هذه المشاهد، أحدها لسواد بن غزيَّة رضي الله عنه في غزوة بدر، والثاني لأمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في غزوة أحد، وثالثها لزيد بن الدثنة رضي الله عنه وهو أسير عند أهل مكة:

أما سواد فقد روى ابن إسحاق (أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدِّل به القوم، فمر بسواد بن غزية وهو مستنصل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح! وقال: «استو يا سواد»، فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدني[١]!

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقِد»، فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد!؟»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخرَ العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير)[٢].

وأما أبو عبيدة فلما رأى يوم أحد ما أصاب النبيَّ ﷺ من إعياء، ودخول حلقتين من حِلق المغفر في وجنتيه، حلف على أبي بكر رضي الله عنه أن يتركه حتى ينالَ شرفَ إخراجهما من خدَّي حبيبه، فلم يحاول إخراجهما بيده، أو بشيء آخر قد يزيد من ألم النبي ﷺ، فأدخل الحلقة الأولى بين أسنانه وجذبها برفق، فلم تخرج الحلقة إلا وثنية أبي عبيدة قد خرجت من فمه بعد انكسارها! وهل اكتفى بهذا وأخلى المجال لغيره؟ لا، بل صمَّم على انتزاع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى! وهل يبالي أمين الأمة بسقوط ثنيتيه - أو أسنانه كلها - بعد ثبوتهما، وقد ثبتت في سويداء فؤاده محبته لحبيبه!؟ فلقد كان لسانُ حالِه يقولُ ماقاله قيسُ بن ذريح:

لقد ثبتتْ في القلبِ منكم محبةٌ كما ثبتتْ في الراحتين الأصابعُ

فكان أبو عبيدة بعد ذلك - كما وصفه الواصفون - من أحسن الناس هتمًا!

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت أبا بكر يقول: «لما كان يوم أحد، ورُمي رسول الله ﷺ في وجهه، حتى دخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر، فأقبلت أسعى إلى رسول الله، وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانًا! فقلت: اللهم اجعله

---

(١) أقدني: من القود، وهو القصاص وإعطاء الحق لمن وقع عليه الظلم.

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٢)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٧٣، ١٧٤).

طاعة حتى توافينا إلى رسول الله ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله، قال أبو بكر: فتركته، فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتي المغفر فنزعها، وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبي عبيدة! ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت، فكان أبو عبيدة في الناس أثرم»[١].

وأما زيدٌ فقد كان ضمن الفريق الذين بعثهم النبي ﷺ لعضل والقارة - وفق طلبهم - ليعلموهم، فغدروا بهم، فقتلوا بعضهم، وباعوا البعض الآخر لمن كان له ثأر من أهل مكة، فاشترى صفوانُ بن أمية زيدًا، ليقتله بأبيه أمية بن خلف.

قال ابن إسحاق: «... وأما زيد بن الدثنة، فإن صفوان بن أمية بعث به مع مولى له يقال له: نِسطاس إلى التنعيم، وأخرجه من الحرم ليقتله، واجتمع إليه رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدِّم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالسٌ في أهلي!! فقال أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحدًا يحب أحدًا، كحب أصحاب محمدٍ محمدا! ثم قتله نسطاس»[٢].

أسَرَتْ قريشٌ مسلمًا في غزوةٍ ... فمضى بلا وجَلٍ إلى السَّيَّافِ

سألوه: هل يُرضيك أنك سالمٌ ... ولك النبيُّ فِدًى من الإتلافِ؟

فأجاب: كلا، لا نجوتُ من الرَّدى ... ويُصابُ أنفُ محمدٍ برُعافِ!

يخاف على القائد

ومن أخلاقيات الجنود مع قادتهم، كما في سيرة الحبيب المحبوب، أن يخاف

---

(١) ابن سعد في «الطبقات الكبرى» - واللفظ له- (جـ٣ صـ٤١٠)، الحاكم في «المستدرك» (٥٦١٠).

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٧٨، ٧٩)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ١٢٥، ١٢٦).

الجندي على قائده، من أي أذى يلحقه، أو ضرر ربما يحُلّ به، وفي هذا الخلق النبيل سأسوق موقفين، أحدهما لأشرف خال، وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والآخر لأكرم الناس أضيافًا[١]، ألا وهو أبو أيوب زيد بن خالد الأنصاري رضي الله عنه.

أما سعد فقد حدثت عائشة قالت: (سهر رسولُ الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح! فقال: «من هذا»، قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله: «ما جاء بك!؟»، قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله، فجئت أحرسه! فدعا له رسول الله، ثم نام)[٢].

وأما موقف أبي أيوب فبعد أن افتتح النبي خيبر، اصطفى صفية بنت حُيَيٍّ لنفسه ليتزوجها، وبينا النبي يعرِّس بها، وقف أبو أيوب بسيفه ليلته بالخارج ليحرسه خوفًا عليه، ظنًا منه أن زوجته ربما تؤذيه، لأنه كان قتل أقاربها في المعركة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما دخل رسول الله ﷺ بصفية، بات أبو أيوب على باب النبي، فلما أصبح فرأى رسولَ الله كبَّر، ومع أبي أيوب السيف! فقال رسول الله: «ما لك يا أبا أيوب!؟» فقال: يا رسول الله كانت جارية حديثة عهد بعُرس، وكنتَ قتلت أباها وأخاها وزوجها، فلم آمنها عليك، فضحك رسول الله، وقال له خيرًا)[٣].

---

(١) لأنه الذي نزل النبي ضيفًا عليه بعد الهجرة، لمدة ستة أو سبعة أشهر.

(٢) البخاري (٦٨٠٤)، مسلم - واللفظ له- (٢٤١٠)، النسائي في «الكبرى» (٨٨٦٧)، الترمذي (٣٧٥٦)، ابن أبي شيبة (٣٢١٥٢)، أبو يعلى (٤٨٥٦)، وفي رواية لمسلم: «فنام رسول الله ﷺ حتى سمعنا غطيطه».

(٣) الحاكم في «المستدرك» (٦٧٨٧)، «الطبقات الكبرى» (جـ٨ صـ١٢٦)، «سير أعلام النبلاء» (جـ٢ صـ٤٠٨).

يطيع الأوامر

وطاعة الأوامر من أهم الأمور التي يجب على الجنود الالتزام بها تجاه قادتهم، فالطاعة قوام الجندية، وفي مخالفة الأوامر تكمن الهزيمة، وقد سطر جنود النبي ﷺ في طاعة أوامر قائدهم أروع الصفحات، سواء كانوا فرادى أو جماعات.

فهذا عبد الله بن جحش رضي الله عنه يسيِّره النبي ﷺ ونفرًا معه في سريّة استطلاعية، ويسلمه كتابًا مغلقًا، ويأمره بعدم فضِّ الكتاب إلا بعد مسيرة يومين، فيسير يومين، ثم يفتح كتابَ قائده، فينفذ كل ما فيه من أوامر، وهو في غاية الرضا والسرور، وكل أصحابه سمع وطاعة.

قال ابن إسحاق: «... فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم.

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيَه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد!»[1].

وهذا موقف لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه في غزوة الأحزاب، يأمره قائدُه أن يتسلل في ظلمة الليل بين جيش الكفار، حتى يأتيه بأخبار القوم، وينهاه أن يحدث في القوم حدثًا، فينطلق حذيفة فيتعرف على أخبار القوم، من غير أن يشعر به أحد من الكفار وهو بينهم! ويرى فرصة سانحة له في قائدهم، فيَهُمُّ بقتله، ثم ينثني عن عزمه لأنه تذكر نهي النبي ﷺ له عن ذلك!

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٤٧)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ١ صـ٢٥٤).

قال حذيفة: (... فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمَّام حتى أتيتهم! فرأيت أبا سفيان يُصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تذعرهم علي، ولو رميته لأصبته... »)[١].

وهذه مجموعة من جنود النبي، يبلغ بها الجوعُ مَداه، وتكاد أن تذبحَهم مُداه[٢]، فيجلسون أمام قدورهم، وقد امتلأت بلحوم الحمر الإنسية، ينتظرون نضجها ليأكلوا، فيبلغُهم نهيُ النبيِّ ﷺ عن أكلها، فلا يترددون في أن يكفِئوها على وجوهها بما فيها!! فعن أبي سليط البدري ﷺ قال: «أتانا نهيُ رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الإنسية والقدورُ تفور بها، فكفأناها على وجوهِها!»[٣].

وإن كانت طاعة الجنود أوامرَ قادتهم واجبة في الإسلام، فإنها مشروطة بأن تكون موافقة لأحكام الله، وليس فيها أمر بمحرم، أو نهي عن واجب، فلا طاعة لمخلوق - ولو كان قائدًا - في المعصية.

عن علي ﷺ قال: (بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل عليها رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبًا فجمعوا، فقال: أوقدوا نارًا فأوقدوها.

فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعل بعضُهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبُه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»)[٤].

---

(١) مسلم - واللفظ له- (١٧٨٨)، أحمد (٢٣٣٨٢)، والحديث بطوله في فقرة: (يكون فطنًا ذكيًا) من هذا الفصل.

(٢) المُدية: من أسماء السِّكين، وكذا الشفرة.

(٣) أحمد (جـ٣ صـ٤١٩)، ابن أبي شيبة (٢٤٣٢٥)، الطبراني في «الكبير» (٥٧٨)، وفي رواية لأحمد: «فكفأناها وإنا لجياع!».

(٤) البخاري (٤٠٨٥، ٦٧٢٦)، أحمد (٦٢٢، ١٠١٨)، ابن أبي شيبة (٣٣٧٠٦)، البزار =

إذا خالف هزم

والجندي - في سيرة النبي ﷺ - ينغرس في نفسه وعقله أنه إن خالف أوامر قائده هزم، بعد أن تعلم مما وقع في غزوة أحد، فقد جعل النبي ﷺ فريقًا من الرماة على جبل أحد، وأمرهم بعدم ترك الجبل مهما كانت الظروف، فنزل بعضهم عن الجبل، ظنا منهم أن المعركة قد انتهت، فنزل بهم من الهزيمة ما نزل.

عن البراء رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلًا - عبدَ الله بن جبير، وقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا من مكانكم هذا، حتى أرسلَ لكم، وإن رأيتمونا هزمْنا القومَ وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسلَ إليكم.

قال: فهزمهم الله، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة - أي قوم - الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبنَّ من الغنيمة، فأتوهم، فصُرفت وجوههم! وأقبلوا منهزمين!»[1].

وأبى الله إلا أن يسجل للأمة في كتابه هذا الدرس، حتى ينقشه المجاهدون في صدورهم، ولا ينسوه في حياتهم، ووصف مخالفة الأوامر بأنها فشل ذريع، وأنها غم عظيم للقائد الأعلى، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ

= (٥٨٩)، أبو يعلى (٣٧٨، ٦١١).

(١) البخاري (٢٨٧٤)، أبو داود - وهذا لفظه- (٢٦٦٢)، النسائي في «الكبرى» (١١٠٧٩)، أحمد (جـ٤ صـ٢٩٣).

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٢ - ١٥٣].

وقد سمّى الله ﷻ هذه المخالفة زلة أوقعهم الشيطان فيها، وبيّن أن هذه الهزيمة النكراء، وأن هذا البلاء العظيم، إنما هو بسبب هذه المخالفة التي لم تستغرق سوى لحظات، فقال المولى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٦].

قال الشيخ محمد الغزالي: «قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار، وتنتشر في أجواءه الأشعة المبصرة، ثم يقع خللٌ مفاجئ يقطع التيار، فإذا المصابيح تعتِم، ثم يسُوْدُ المكانَ ظلامٌ موحش سقيم! إن هذا مثل التحول المستنكر الذي قلب سيرَ الحوادث في معركة أحد.

لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني، عرضت لفريق من الجند، فأوقعت الارتباكَ في صفوف الجيش كله! فضاعت في ساعة نزق كلُّ المكاسب التي أحرزتها الشجاعة النادرة، والتضحية البالغة!»[1].

يصبر ويتحمل

فاز أهل الصبر والتحمل بسعادة الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأن الله ﷻ جعل ضمن سننه في هذا الكون، أن الغلبة والفوز من نصيب الصابرين، الذين لا يجزعون لما أصابهم، ولا ييأسون إن تأخر النصر عنهم، وحال الواحد منهم كما قيل:

---

(١) «فقه السيرة للغزالي» (صـ٢٧٣، ٢٧٤).

يُريدُ شهادةً تُدنيه مِن ربٍّ وفِردوس
ولا ييأسُ إن طال الـدُّجَى من مشرقِ الشمس
فلا يأسَ مع الدين ولا دينَ مع اليأس

وقديمًا قالوا: الحرب لمن صبر ساعة، لذا أمر الله بالصبر، بل وأمر بمسابقة الأعداء في ميدان الصبر، وإطالة الأنفاس في مضماره، وهو ما يسمّى بالمصابرة، ورتب على ذلك الفوز والفلاح، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وأما في الآخرة فيكفي أن الله جعل لكل طاعة ثوابًا محددًا، يصل إلى عشرة أضعاف، وربما إلى سبعمائةِ ضعف! وإنما الطاعة الوحيدة التي لا يقاسُ أجرُها، ولا يُحَدَّدُ ثوابُها، هي طاعة الصبر، قال ربنا ﷻ: ﴿... إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزُّمَر:١٠].

وكما أمر الله نبيه في القرآن بالصبر، وطلب إليه أن يكون - في صبره - مثل أصحاب الهمم العالية، والعزائم القوية، من إخوانه الرسل السابقين، فقال له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ...﴾ [الأحقاف:٣٥]، فإنه ضرب له في القرآن أمثلة للصابرين مع أنبيائهم، حتى يربيَ عليها جنوده وأمته، منها قوله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦- ١٤٨].

ولقد بلغ جنود النبي ﷺ في الصبر والثبات وقوة التحمل مع قائدهم شأنًا عاليًا، في كل الغزوات والمعارك التي خاضوها، حتى وإن بلغتهم شائعة أن قائدَهم قد قتل! ومما يدل على ذلك ما وقع في غزوة أحد، حينما أشيع أن النبي ﷺ قد قتل،

فأصاب بعضَ أصحابه ما أصابهم من هول الخبر، وشدة وقعه على نفوسهم، ثم سرعان ما هبُّوا مستأنفين القتال، حتى اكتشفوا كذبَ ما أشيع عن النبي ﷺ، فالتفوا حوله مدافعين عنه.

فعن ابن أبي نجيح عن أبيه (أن رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرتَ أن محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمدٌ قد قتل فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينِكم)[1].

وعن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع قال: «انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا ما بأيديهم! فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قد قتل محمد رسول الله ﷺ! قال: فما تصنعون بالحياة بعده!؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، واستقبل القومَ فقاتل حتى قتل»[2].

وسجل الله طرفًا مما جرى في هذه الغزوة، حتى يتعلم الجنودُ الصبر والثبات حتى وإن اشتدت الظروف عليهم، حتى ولو قتل قائدهم ورمزهم في المعركة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤- ١٤٥].

يشير وينصح

ومن أخلاقيات الجنود مع قادتهم على ضوء السيرة النبوية، أنهم يُشيرون على

---

(١) «جامع البيان» (جـ٤ صـ١١٢)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ١ صـ٤١٠).

(٢) «جامع البيان» (جـ٤ صـ١١٢، ١١٣)، «صفة الصفوة» (جـ١ صـ٦٢٣)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ١ صـ٣١٤).

قائدهم بما ينقدح في عقولهم من أفكار صائبة، وينصحون له ولا يبخلون عليه، وقد ربّى النبي ﷺ جنوده وأمته على هذا الخلق، حين نصحهم بأن ينصحوا، فقال فيما رواه عنه تميم الداري رضي الله عنه: الدينُ النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[1]. وفي سيرة النبي الكثير من نصح الجنود وبذلهم المشورة لقادتهم[2]، ومن هذا ما أجراه الله على لسان الحباب بن المنذر رضي الله عنه يوم بدر، فقد رُوي أن النبي ﷺ (انطلق يوم بدر حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلُب[3]، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون! فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغُوِّرت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل فملىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية)[4].

يكون فطنًا ذكيًا

ومن الأخلاقيات التي ينبغي توافرها في الجندي المتفوق، أن يكون متحليًا

---

(١) مسلم - بهذا اللفظ- (٥٥)، أبو داود (٤٩٤٤)، النسائي في «الكبرى» (٧٨٢٠)، وفي «المجتبى» (٤١٩٧)، أحمد (جـ٤ صـ١٠٢)، ابن حبان (٤٥٧٤)، أبو يعلى (٧١٦٤)، الطبراني في «الكبير» (١٢٦٠).

(٢) راجع فقرة: (يأخذ بمشورتهم) من فصل: (أخلاقيات القادة مع الجنود)، وخلق: (الرأي والمشورة) من فصل: (أخلاقيات حربية عامة).

(٣) القُلب: جمع القليب، والقليب: البئر.

(٤) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٦٧، ١٦٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (جـ٧ صـ ٣٧٥).

بالفطنة والذكاء المتوقد، حتى يستطيع أن يوظف كل ماحوله لصالحه وصالح إخوانه، وحتى إذا ما كلفه قائده بمهمة فيها مصلحة لجيشه، استطاع أن ينجزها بأسرع وقت، وأن يقوم بها على الوجه الأكمل، وما أكثر المواقف الحربية التي تدل على شدة فطنة وذكاء جنود النبي ﷺ، وقد غصّت بها كتب السير[١].

ومن ذلك ما حدث به التابعي الجليل محمد بن كعب القرظي فقال: (قال فتى منا من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله وصحبتموه! قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولجعلناه على أعناقنا! قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هويًا، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، - يشترط له رسول الله أنه يرجع - أدخله الله الجنة؟» فما قام رجل!

ثم صلى رسول الله هويًا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله الرجعة -، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟» فما قام رجل من القوم مع شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد!

فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة فاذهب، فادخل في القوم، فانظر ما يفعلون، ولا تُحْدِثَنَّ شيئًا حتى تأتينا»، قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل، لا تقر لهم قِدرٌ ولا نار ولا بناء.

فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟ فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي! فقلت: من أنت!؟ قال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك

---

(١) راجع فقرة (الذكاء والفطنة) في فصل: (أخلاقيات حربية عامة).

الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قِدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم! ولولا عهد رسول الله ﷺ: «لا تحدث شيئًا حتى تأتيني» لقتلته بسهم...)[1].

أدبه في الاختلاف

ومن أخلاقيات الجنود مع قادتهم، الأدب معهم وتوقيرهم، حتى وإن اختلفوا في الرأي، لأن الجميع - قادة وجنودًا - يعملون لغاية واحدة، ألا وهي كسب رضا الله، ونصرة جيش المؤمنين، ومن أروع المواقف الدالة على الأدب الجم، موقف خالد ابن الوليد رضي الله عنه حين عزله[2] عمر بن الخطاب رضي الله عنه - بعد توليه إمارة المؤمنين - وولى مكانه أباعبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فقبل خالد الأمر وانصاع له، وقبَّل كتاب أمير المؤمنين، ولكن لما وصلته الرسالة والجيشان مُلتحمان أخفى الأمر، وأبقى الرسول بجواره، حتى لا يتسرب أمرُ عزلِه وأمر موت خليفة المسلمين أبي بكر رضي الله عنه إلى الجنود، فيفتُّ في عضدهم، ويتسبب في انهزامهم، ثم أحضر أبا عبيدة بعد انتهاء المعركة، وأعلن أمر العزل أمام الجميع، وسلم القيادة لأبي عبيدة، ومدحه وأثنى عليه! لأنه يعمل لله، فلا يهمه إن كان في الميمنة أو الميسرة، ولا فرق عنده بين أن يكون قائدًا أو جنديًا.

قال ابن جرير الطبري: «... فنشب القتال والتحم الناس والفرسان، فإنهم على

---

(١) رواه أحمد (٢٣٣٨٢)، وهو في «صحيح مسلم» (١٧٨٨)، وليس فيه موضع الشاهد.

(٢) عزل عمر خالدًا خوفًا على الناس من أن يهتز إيمانهم، إذا ما اعتقدوا أنهم يُنصرون بفضل قيادة خالد للجيوش، وليس كما يزعم بعضهم من أن العزل كان بسبب تباغض وعداء قديمين بينهما.

ذلك إذ قدم البريد من المدينة، فأخذته الخيول وسألوه عن الخبر، فلم يخبرهم إلا بالسلامة، وأخبرهم عن الأمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة! فأبلغوه خالدًا، فسأله فأخبره خبر أبي بكر أسرَّه إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند، قال: أحسنت، فقف، وأخذ الكتاب وجعله في كِنانته، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند...»[1].

وعن عبد الملك بن عمير قال: (استعمل عمر أبا عبيدة بن الجراح على الشام، وعزل خالد بن الوليد! فقال خالد: بُعث عليكم أمين هذه الأمة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**، فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة»**)[2].

ونقل ابن حجر عن سيف بن عمر بسنده قال: «لما رأى عمر أنه قد زال ما كان يخشاه، من افتتان الناس به، عزم على أن يوليه بعد أن يرجع من الحج، فخرج معه خالد بن الوليد، فاستسقى خارجًا من المدينة، فقال: رُدُّوني إلى مهاجري، فقدمت به أمه المدينة، ومرَّضته حتى ثقل.

فلقي عمرَ لاق وهو راجع من الحج، فقال له: ما الخبر؟ فقال: خالد يشكو مما به، فطوى عمر ثلاثًا في ليلة! فأدركه حين قضى، فرَقَّ عليه واسترجع، فلما جُهز بكته البواكي، قيل له: ألا تنهاهن؟ فقال: وما على نساء قريش أن تبكين أبا سليمان[3]، ما لم يكن نقع أو لقلقة، وهل قامت النساء عن مثل خالد؟»[4].

❑ ❑ ❑

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٣٧).

(٢) «الإصابة في تمييز الصحابة» (جـ٢ صـ٢٥٣)، «صفة الصفوة» (جـ١ صـ٦٥٣).

(٣) أبو سليمان: كنية خالد بن الوليد ﵁.

(٤) «الإصابة في تمييز الصحابة» (جـ٨ صـ٩٧).

الفَصْلُ الثَّالِث

أخلاقياتُ الجنودِ مع الجنود

إن انتصار أي جيش من الجيوش، وتفوقه على أعداءه، ينبني على عدة عوامل رئيسة، ومن أهم هذه العوامل أن تتوفر بين جنوده الأخلاق الكريمة المثالية الفاضلة، وبغير هذه الأخلاق لا يتمُّ له النصر، ولا تكتب له الغلبة، وسرعان ما ينهار الجيش، وتتداعى قوته، وتنكسر شوكته، وتذهب ريحه.

وإن الجيش الذي أسسه النبي ﷺ، ثبّت فيه دعائم الأخلاق، كأقوى ما يكون التثبيت، وشاع بين أفراده الأخوة الحقيقية، وإيثار الغير على النفس، والرغبة في التضحية والفداء، والتراحم والتواد، والتآلف وعدم الفرقة، وإنا ذاكرون نبذة مختصرة من كل خلق من هذه الأخلاق.

الأخوة الحقيقية

ومن أبرز أخلاقيات الجنود مع الجنود في السيرة النبوية، خلق التآخي الحق الذي فاق كل أخوة من النسب، فكان الجنديُّ من جيش المسلمين يقدِّم أخاه في الإسلام على أخيه ابن أمه وأبيه! بل يُقدمه على كل ذوي قرابته الكفار، فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه الكافر يوم بدر! ولو رأى أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن يوم أحد لقتله! فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر لأبي بكر: «قد رأيتك يوم أحد[1] فصفحت عنك، فقال أبو بكر: لكني لو رأيتك لم أصفح عنك!»[2]، فالولاء والبراء

(١) وقد كان عبد الرحمن يومها كافرًا، وأسلم في هدنة الحديبية.

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٦٠٠٥)، ابن أبي شيبة - بلفظ: «فصدفت» - (٣٦٥٩٧).

عندهم على أساس الدين، قال الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

ومن مواقف السيرة النبوية التي تؤكد هذا المعنى، موقف أول سفير في الإسلام مصعب بن عمير رضي الله عنه، مع أخيه الكافر أبي عزيز بن عمير، بعد انتهاء غزوة بدر، حين مر مصعب بأخيه أبي عزيز وقد أسره أبو اليسر، فأوصى مصعب أبا اليسر بأن يُحكم وثاقَ شقيقه أبي عزيز جيدًا حتى لا يُفلت منه!

قال ابن إسحاق: «وكان أبو عزيز بن عمير أخا مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، فقال أبو عزيز: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير - ورجل من الأنصار يأسرني - فقال: شدَّ يديك به! فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، وكان أبو عزيز صاحبَ لواء المشركين ببدر.

فلما قال مصعب بن عمير لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي!؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك، فسألت أمُّه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها»[(١)].

إيثار الغير على النفس

ومن أعظم أخلاقيات الحروب، التي تميز بها جنودُ النبي ﷺ مع إخوانهم الجنود، خلق الإيثار وتقديم غيرهم على أنفسهم، وإن كان القرآن الكريم قد سجل لفريق منهم - وهو فريق الأنصار - أنهم يُقدِّمون غيرهم على أنفسهم، في الطعام والشراب وحطام الدنيا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٩٥، ١٩٦).

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، فإن الواقع التاريخي أثبت هذا الخلق للصحابة كلهم مهاجرهم وأنصاريهم، بل وأثبت هذا الإيثار في أغلى من ذلك، أثبته لهم في الجود بالأرواح، وكأنما في كل منهم قال مسلم بن الوليد:

يجودُ بالنفس إن ضنَّ الجوادُ بها ... والجودُ بالنفس اقصى غايةِ الجودِ

ومن المواقف التاريخية المؤثرة، التي سُجلت لهذا الجيل الفريد، ما وقع في معركة اليرموك، مع الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وعياش بن ربيعة، من إيثار كل واحد منهم صاحبه بالماء وهو يموت، فماتوا وما شربوا، مع أنهم أسلموا في أواخر عهد النبي ﷺ، فلم ينالوا حظًا وافرًا - كغيرهم - من تربية المعلم القائد لهم!

عن حبيب بن أبي ثابت «أن الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وعياش بن أبي ربيعة أثبِتوا[1] يوم اليرموك، فدعا الحارثُ بشراب، فنظر إليه عكرمة فقال: ادفعوه إلى عكرمة! فدُفع إليه، فنظر إليه عياش بن أبي ربيعة فقال عكرمة: ادفعوه إلى عياش! فما وصل إلى عياش ولا إلى أحد منهم حتى ماتوا جميعًا وماذاقوه!»[2].

يفديه ويُضَحِّي من أجلِه

ومما تحلى به الجنود مع إخوانهم الجنود، أن الواحد منهم كان يفدي أخاه بكل ما يملك، ويضحي من أجله لينقذه ولو تعرض للأذى، وإليك هذا المشهد الذي تكاد أن تنخلع له القلوب، وتكاد العقول لا تصدِّقه، لولا أنه حدث من رجل من الذين تتلمذوا في الجندية والفداء، على يدي خير معلم وأشرف قائد، ألا وهو البراء بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، الذي قال عن نفسه: «... قد قتلتُ مائة من المشركين

(١) أثبتوا: أصابتهم الجراح، حتى لم يقوَوا على القيام.

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٥٠٥٨)، الطبراني في «الكبير» (٣٣٤٢)، البيهقي في «الشعب» (٣٤٨٤).

مبارزة، سوى من شاركت في قتله»[1].

فعن إسحاق بن عبد الله قال: «بينما أنس بن مالك وأخوه البراء بن مالك عند حصن من حصون العدو، والعدو يلقون كلاليبَ في سلاسلَ مُحماة، فتعْلَقُ بالإنسان فيرفعونه إليهم! فعلِق بعض تلك الكلاليب بأنس بن مالك، فرفعوه حتى أقلوه من الأرض، فأتِي البراء بن مالك فقيل: أدرك أخاك، وهو يقاتل بالناس، فأقبل يسعى حتى نزا في الجدار، ثم قبض بيده على السلسلة وهي تدار! فما برح يجرهم ويداه تدخنان حتى قطع الحبل! ثم نظر إلى يديه فإذا عظامها تلوح، قد ذهب ما عليها من اللحم! وأنجى الله أنس بن مالك بذاك»[2].

وتضحية البراء بن مالك هذه، لم يكن الدافع إليها هنا أن المتعرِّض للمحنة هو أخوه الأصغر خادم النبي أنس بن مالك، فلو كان المتحَنُ غيرَ أنس لما نقص فعل البراء ذرة، ولكان هذا موقفه، فالبراء نفسه هو الذي أمر أصحابه أن يحملوه فوق ترس، ويرفعوا الترس برماحهم فيُلقوه داخل سور الحديقة يوم حرب مسيلمة الكذاب، فأصابه يومها ما أصابه[3]، وكأن ابن السيد البطليوسي عناه حينما قال:

فتًى لم يُشَمِّرْ قطُّ إلا عَنَا[4] له عِداهُ وساقُ الحربِ مُسْبَلَةُ الأزْرِ!

رحماء بينهم

ومن الأخلاقيات الكريمة التي سادت بين جنود النبي ﷺ في معاركهم - فضلا عن تحليهم بها في حياتهم العامة -، خلق التراحم والتعاطف، كيف لا؟ وقد وصفهم الله ﷻ قائلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

---

(١) ابن أبي شيبة - واللفظ لغيره- (٢٦٠٢٦)، الطبراني في «الكبير» (٦٩٢)، «صفة الصفوة» (جـ١ صـ٦٢٥)، «الإصابة» (جـ١ صـ٢٨٠).

(٢) الطبراني في «الكبير» (١١٨٢)، «الإصابة» (جـ١ صـ٢٨١).

(٣) راجع فقرة: (التضحية والفداء) من فصل: (أخلاق حربية عامة) من هذا الباب.

(٤) عنا له عِداه: خضعوا وذلوا له من شدة قوته وشجاعته.

﴿سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ...﴾ [الفتح:٢٩].

وقد وصف النبي ﷺ المؤمنين بقوله: «مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمِهم وتعاطفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(١)]، وإن جنود النبي أو أصحابه هم أفضل المؤمنين وخير القرون.

وليس هذا التراحم والتعاطف بين جنود النبي ﷺ كان مقتصرًا على الرجال، بل إن الصحابيات كنَّ يصررن على التخلق بهذا الخلق النبيل، فكن يشاركن في بعض الغزوات[(٢)]، يسقين العطشى، ويداوين الجرحى، ويحرضن على القتال، وربما اشتركن بأنفسهن في القتال! كما وقع من صفية بنت عبد المطلب في حصن فارع، وأم سليم بنت ملحان يوم حنين، وأسماء بنت يزيد بن السكن يوم اليرموك، وغيرهن كثيرات.

وكان النبي ﷺ إذا خرج في سفر للجهاد أو غيره، يصطحب معه بعض نساءه، بعد ضرب القرعة بينهن، فعن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه»[(٣)].

وكيف لا تفعل المرأة المسلمة هذا، وإن بعض نساء الكفار كن يخرجن ويحرضن مقاتليهن، كما وقع منهن في بدر، وعلى رأسهن هند بنت عتبة؟ قال ابن سعد: «جعل

---

(١) مسلم: (٢٥٨٦)، أحمد (جـ٤ صـ٢٧٠)، البيهقي في «السنن» (٦٢٢٣)، وفي «الشعب» (٨٩٨٥).

(٢) راجع فقرة: (رفق النبي بالمجاهدات) من فصل: (أخلاقيات القادة مع الجنود).

(٣) البخاري (٢٤٥٣، ٣٩١٠)، مسلم (٢٧٧٠)، أبو داود (٢١٣٨)، النسائي في «الكبرى» (٨٩٢٣)، أحمد (٢٤٩٠٣)، عبد الرزاق (٩٧٤٨)، ابن حبان (٤٢١٢)، الدارمي (٢٢٠٨)، أبو يعلى (٨٥)،البيهقي في «السنن» (١٣٢١٠)، وفي «الشعب» (٧٠٢٨).

نساءُ المشركين يضربن بالأكبار[١] والدفوف والغرابيل، ويحرضن ويذكرنهم قتلى بدر، ويقلن:

نحن بنات طارقْ نمشي على النمارقْ

إن تُقبلوا نُعانقْ أو تُدبِروا نُفارقْ

فراقَ غيرِ وامِقْ»[٢]

التآلف وعدم الفرقة

ولا ينتصر الجنود في أي جيش من الجيوش في معاركهم، إلا إذا ما ساد بينهم التآلف والتوحد وعدم الاختلاف والفرقة، وإن أصحاب النبي ﷺ كان لهم من هذا الخلق نصيب الأسد، وكيف لا وقد رباهم قائدهم على ما أنزله الله عليه، من أمر بالاتحاد ونهي عن الاختلاف، حيث قال الله ﷻ لهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولنصْغ إلى هذا الموقف الذي حدث بين القوي الأمين أبي عبيدة وأرطبون العرب عمرو بن العاص، قال ابن إسحاق: (بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى بلي يستألفهم، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام - يقال له: السلسل - خاف، فبعث إلى رسول الله يستمدُّه، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: «لا تختلفا».

---

(١) الأكبار: جمع كُبر، وهو الطبل الكبير.

(٢) «الطبقات الكبرى» - بهذا اللفظ- (جـ٢ صـ٤٠)، الحاكم في «المستدرك» (٥٠١٩)، البزار في «مسنده» (٩٧٩).

فخرج أبو عبيدة، حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئتَ مددًا لي، فقال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه - وكان أبو عبيدة رجلًا لينًا سهلًا، هيِّنًا عليه أمرُ الدنيا - فقال له عمرو: بل أنت مدد لي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك، قال: فإني الأميرُ عليك، وأنت مددٌ لي، قال: فدونك، فصلى عمرو بالناس)[1].

أقول: لو أن أبا عبيدة تمسك برأيه الأول لربما تنازل له عمرو، فلم يكن عمرو بأقل من أبي عبيدة في حرصه على توحيد الكلمة وعدم الاختلاف، ولكن آثر أبو عبيدة جانب اللين والسهولة، وفضَّل عمرو بن العاص استخدام ما عنده من دهاء.

❑ ❑ ❑

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٤٦، ١٤٧)، «سيرة ابن هشام» (جـ٦ صـ٣٥،٣٤).

الفصل الرابع

أخلاقيات المجاهدين مع الأعداء المقاتلين

إن أخلاقيات المجاهدين مع أعداءهم أثناء القتال في السيرة النبوية، لا تقل روعة عن أخلاقياتهم قبل التقاء الصفوف، فهم يرفعون سيوفهم عمن نطق بكلمة التوحيد معلنا الدخول في هذا الدين، وربما يعفون ويصفحون عمن أراد اغتيالهم، أملًا في أن يهديهم الله بسبب هذا الصفح، ويعاملونهم بمروءة وشهامة، ولا يقتلون أحدًا صبرًا، كما يُحرِّم عليهم دينُهم تحريق المقاتل بالنار، وهم يردُّون إلى المقاتلين أماناتهم، وهم يجاهدون بالكلمة عسى أن تؤثر في أعدائهم، فتُحقن دماؤُهم، وإليك نماذج مما ذكرنا.

ترك من أعلن الشهادة

عرفنا أن المسلم لا يحب القتل، ولا يهوى الحرب والقتال، وإنما يخرج لذلك مُكرَهًا دفعًا للظلم عن نفسه، وردًّا للاعتداء الذي وقع عليه، وهو يبذل مع ذلك كل ما في وسعه لحقن الدماء، حتى ولو بعد نشوب الحرب، فإن أعلن أحد من الأعداء دخوله في الإسلام فيجب على المسلم أن يكفَّ عنه، لأن دمه صار مصونًا محترمًا، فإن قتله يكون كما لو قتل أخا له من قدامى المسلمين.

ولكن كيف يعلم صدق إسلام هذا الشخص وحسن نيته من كذبه وخداعه وتحيُّن الفرصة للقتل والانقضاض؟

نقول: إن المسلم مع حسن ظنه بمن أمامه، وخوفه من أن يصيب رجلًا بعد

إسلامه، فيكون مستحقًا لغضب الله، عليه أن يحتاط لنفسه، ويأخذ الحذر لها، بأن يأمر هذا الشخص بإلقاء سلاحه أولًا، ثم برده إلى مكان آمن تسيطر عليه حراسة المسلمين، ولا يتركه يشترك في القتال قبل تبين إسلامه وحسن قصده، فمن أسر سريرة ألبسه اللهُ رداءها.

وقد عُرض على النبي ﷺ في سيرته العطرة أمثال هذه القضايا فأفتى فيها، وبيَّن للمسلم ما يجب عليه فعله، تارة بعد حدوث القضية في الحرب، وحينا بالسؤال عنها قبل وقوعها:

ومن القسم **الأول**: ما روي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته! فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله: **«أقال: لا إله إلا الله، وقتلته!؟»**، قال: قلت: يا رسول الله إنها قالها خوفًا من السلاح، قال: **«أفلا شققت عن قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا؟»**، فما زال يكررها علي، حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ...)[1].

ومن القسم الثاني: ما روي عن المقداد بن عمرو رضي الله عنه (أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيتُ رجلًا من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمتُ لله، أقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله: **«لا تقتله»**.

فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها! فقال رسول الله: **«لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله! وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال!»**)[2].

---

(١) مسلم - بهذا اللفظ- (٩٦)، أبو داود (٢٦٤٣)، النسائي في «الكبرى» (٨٥٩٤)، أحمد (٢١٨٥٠)، ابن أبي شيبة (٢٨٩٣٢، ٣٣٠٩٩)، البيهقي في «الشعب» (٥٣١٩).

(٢) البخاري (٣٧٩٤)، مسلم (٩٥)، أبو داود (٢٦٤٤)، النسائي في «الكبرى» (٥٨٩١)، =

العفو والصفح

ومن أخلاقيات المسلمين في الحروب مع المقاتلين، أنه ربما يعفو المسلمون عن المقاتل الذي أراد إلحاق أذى بهم[(١)]، أملًا في استقامته وصلاح أمره، كما وقع من النبي ﷺ مع فضالة حينما أراد اغتياله عند الكعبة.

(فقد أراد فضالة بن عمير الليثي قتل النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله: «أفضالة؟»، قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله! فضحك النبي! ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما من خلق الله شيءٌ أحبَّ إلي منه!)[(٢)].

قال فضالة: «فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلمَّ إلي الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلتُ: لا ... يأبى عليكِ اللهُ والإسلامُ

لو ما رأيتِ محمدًا وقبيلَه ... بالفتح يوم تكسُّرُ الأصنامُ

لرأيتِ دينَ اللهِ أضحى بيِّنًا ... والشركَ يغشى وجهَه الإظلامُ»[(٣)]

وكما حدث من النبي ﷺ مع كعب بن زهير، الذي كان يشتم النبي ﷺ وأصحابه بشعره، حتى أهدر النبيُّ دمه، ولكن لما جاء للنبي تائبًا عفا عنه النبي.

قال محمد بن إسحاق: (... لما بلغ كعبا الكتابُ ضاقت به الأرض، وأشفق على

= أحمد (٢٣٨٦٨، ٢٣٨٨٢)، ابن أبي شيبة (٢٨٩٤٣، ٣٣١٠٧)، البزار (٢١١١)، ابن حبان (٤٧٥٠).

(١) راجع فقرة: (العفو والصفح) من فصل: (أخلاقيات حربية عامة).

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ٨٠، ٨١)، «الإصابة» (جـ٥ صـ٣٧٢).

(٣) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ٨١).

نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بدا، قال قصيدته التي يمدح بها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه.

ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله، ثم أشار له إلى رسول الله، فقال: هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمنه، فقام إلى رسول الله حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء، ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به!؟ قال رسول الله: «نعم»، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير)[1].

مروءة وشهامة

ومن الأخلاقيات مع المقاتلين خلق المروءة والشهامة، فهذا فارس الإسلام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، يدعوه حامل لواء المشركين يوم أحد للمبارزة، فيخرج له ولسان حاله يقول:

سنحنحُ الليلِ كأنّي جِنّي ... استقبلُ الحربَ بكلّ فنّ
معي سلاحي ومعي مِجَنّي ... وصارمٌ يُذهبُ كلَّ ضِغن
اقضي بهِ كُلَّ عَدُوٍّ عَنّي ... لمثلِ هذا ولدتني أمّي

فيبارز المشركَ فيضربه ويصرعه، فتظهر عورة الرجل فيُعرض عنه علي مروءة من غير إجهاز عليه، فيموت الرجل!

عن مسلمة المازني قال: «لما اشتد القتال يوم أحد، جلس رسول الله ﷺ تحت

---

(١) الحاكم (٦٤٧٩)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ١٧٠)، «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ١٨١، ١٨٢).

راية الأنصار، وأرسل رسول الله إلى علي بن أبي طالب أن قدم الراية، فتقدم علي، فناداه أبو سعيد بن أبي طلحة - وهو صاحب لواء المشركين - أن هل لك في البراز من حاجة؟ قال: نعم، فبرز بين الصفين، فاختلفا ضربتين فضربه علي فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يُجهز عليه! فقال له أصحابه: أجهز عليه، فقال: إنه استقبلني بعورته! فعطفتني عنه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله»[1].

فهل قرأ أمثالَ هذه الأخلاقيات المستشرقون ومن يطعن على الإسلام، ثم تعامَوا عنها، كما تعاموا عما يصنعه بنو جلدتهم ومن على شاكلتهم، بالأسرى والمعتقلين ومن ليس له في حمل السلاح - من أفعال فاضحة مُخْزية من اغتصاب جماعي، وبقر لبطون الحوامل، وغير ذلك من صنوف التعذيب الحسي والمعنوي، أم أن أبصارهم لا تلتقط من سِيَرنا وتواريخنا إلا ما تعتقد أن فيه منفذًا للطعن على الإسلام وأهله!؟

ولكن - ولله الحمد والمنة - قد عرف العالم خبث نوايا هؤلاء، وقبح أفعالهم وأخلاقهم، وزيف ما حملوه من مبادئ وشعارات، ولك أن تنشد:

مات الملايينُ جوعًا في مشارقِنا ... والغربُ يغذو الكلابَ اللحمَ والقِطَطا!

والغربُ في شرقِنا ذكراهُ مؤلمةٌ ... من يغرسِ الظلمَ يَجْنِ البُغضَ والسُّخَطا

النهي عن قتل الصبر

ومن أخلاقيات الحروب في سيرة الحبيب المحبوب، أنه يحرُم قتل الأعداء صبرًا، وهو أن يُحبس الشخصُ بدون طعام ولا شراب حتى يموت، فعن عبيد بن تعلى قال: «غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأتي بأربعة أعلاج من العدو، فأمر بهم فقتلوا صبرًا! فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري، فقال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢١).

ينهى عن قتل الصبر، فوالذي نفسي بيده، لو كانت دجاجة ما صبَّرتها، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأعتق أربع رقاب»[1].

النهي عن الإحراق

ومن المنهي عنه في حروب المسلمين التعذيب بالنار، سواء كان بقصد التعذيب مع الإبقاء على الحياة، أو كان بقصد قتل المعذب، فعن حمزة الأسلمي رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ أمَّره على سرية، قال: فخرجت فيها، وقال: إن وجدتم فلانًا فأحرقوه بالنار، فوليت فناداني، فرجعت إليه، فقال: «إن وجدتم فلانًا فاقتلوه ولا تحرقوه، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار»)[2].

فقارن أيها القارئ الكريم بين هذه الأخلاقيات، وبين ما يمارسه أعداؤنا وما يرتكبونه من جرائم بقصد الإبادة الجماعية، وهم لا يلتفتون إلا لما يقضي لهم مصالحهم ويحقق أهدافهم، بغضِّ النظر عن الوسيلة التي يستخدمونها، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، فلا فرق عندهم إن قتلوا صبرًا أو حرقًا، أو إغراقًا أو شنقًا!

اسمعتَ بالإنسان يُشعلُ جسمُه ... نارًا وقد صبغوه بالفزلينِ؟!

اسمعتَ بالإنسان يُضغط راسُه ... بالطَّوقِ حتى ينتهي لجنونِ؟!

اسمعتَ بالإنسان يُنفخُ بطنُه ... حتى يصيرَ كهيئةِ البالونِ؟!

رد أماناتهم

ومن أخلاقيات الحروب مع المقاتلين في السيرة النبوية، أن تُردَّ إليهم أماناتهم وودائعهم، برغم ما بين الفريقين من خلاف، وما بين الجيشين من عداء وقتال!

---

(١) أبو داود (٢٦٨٧)، أحمد (٢٣٦٣٨)، ابن حبان - واللفظ لها- (٥٦١٠)، الطبراني في «الكبير» (٤٠٠٢)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٧١).

(٢) أبو داود (٢٦٧٣)، أحمد (جـ٣ صـ٤٩٤)، عبد الرزاق (٩٤١٨)، أبو يعلى (١٥٣٦)، الطبراني في «الكبير» (٢٩٩٠، ٢٩٩٦).

قال ابن إسحاق: (أتى الأسود الراعي رسولَ الله ﷺ وهو محاصِر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم له كان فيها أجيرًا لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله، اعرض علي الإسلام، فعرضه عليه فأسلم، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدًا أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه.

فلما أسلم قال: يا رسول الله إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال: «اضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى ربها»، فأخذ الأسود حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبدًا، فخرجت مجتمعة كأن سائقًا يسوقها، حتى دخلت الحصن!)[1].

الجهاد بالكلمة

وإن كانت أخلاقيات المجاهدين مع الأعداء المقاتلين عالية هكذا، في العفو والصفح، وعدم التحريق وعدم القتل صبرًا، والمروءة والشهامة، وردِّ الأمانات إلى أهلها، فإنها كانت عالية أيضًا في جانب الحزم والثبات على المبدأ، وعدم التنازل عن العقيدة قِيد أنملة مهما كانت الظروف، فها هو النبي ﷺ في غزوة أحد - مع ما أصابه وأصحابه - يأمر أصحابه بأن يردوا على أبي سفيان، بما فيه تقديس الله وتنزيهه، عساهم في اللحظات الأخيرة من المعركة، أن يفكروا في هذه العقيدة الصافية الخالصة.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (... قال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٣١٦)، «الاستيعاب» (جـ١ صـ٨٥).

فما ملك عمر نفسه فقال: كذبتَ والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياءٌ كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سِجال، إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها، ولم تسؤني!

ثم أخذ يرتجز: أعلُ هُبَل أعل هبل، قال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله أعلى وأجلّ»**، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**)[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) البخاري (٢٨٧٤، ٣٨١٧)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٣٥، ١١٠٧٩)، أحمد (جـ٤ صـ٢٩٣)، ابن حبان (٤٧٣٨، ٢٨٧٤).

الفصل الخامس

أخلاقيات المجاهدين مع غير المقاتلين

الأخلاقيات الإسلامية العالية في الحروب مع الأعداء المقاتلين، صفحة مضيئة مشرقة في سجل التاريخ الإسلامي، وتجاورُ هذه الصفحة صفحة أخرى لا تقِلُّ حسنًا وجمالًا وروعة عن أختها، ألا وهي صفحة الأخلاقيات الإسلامية مع غير المقاتلين.

فإن كان هؤلاء الذين لايقاتلون آباءً وأولادًا وأزواجًا للذين يُقاتلون في الميدان، فإن الإسلام لا يحمِّل إنسانًا ذنب إنسان آخر، ولا يُنزل ببريء عقوبة جريمة لم يرتكبها، فقد عامل المسلمون غيرَ المقاتلين من كبار السن والعُبَّاد والنساء والأطفال معاملة حسنة، ربما لم يعاملهم بها أهلهم، وهذه لقطات سريعة من هذه الأخلاقيات.

عدم التعرض للكبار والأطفال

كان النبي ﷺ - وكذا قُوَّادُه وخلفاءه - إذا ما بعث بعثًا أو سيَّر سرية، يأمرها بعدم التعرض بسوء لغير المقاتلين، كالطاعنين في السن، والصغار الذين لم يشبوا عن الطوق بعدُ، بل ويأمرهم بالإحسان إليهم، من ذلك ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلُّوا، وضمُّوا غنائمَكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»**[1].

---

(١) أبو داود - وهذا لفظه- (٢٦١٤)، ابن أبي شيبة (٣٣١١٨)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ =

وظل الأمر على ذلك بعد موت النبي ﷺ، فلقد لقوا من العناية والاحترام في المجتمع الإسلامي حظًا وافرًا، حتى إن المسلمين جعلوا لهم في بيت المال نصيبًا، وضربوا لهم في مرتبات الديوان بسهم!

عدم التعرض للنساء

إن كان الشرع الإسلامي أمر المسلم بإكرام المرأة المسلمة والإحسان إليها، فقال الله ﷻ: ﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]، وقال رسول الله ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا من خيركم لأهلي»[1]، فإن الإسلام - كذلك - أمر المسلمين المقاتلين في الحرب بعدم التعرض للنساء غير المسلمات، بقتل أو أذى أوترويع، ونهاهم نهيًا خاصًا عن إلحاق الأذى بهم.

وسيرة الحبيب ﷺ فيها الكثير من الشواهد الدالة على ذلك، منها ما جاء في قصة الأمر بقتل سلام بن أبي الحقيق وهو أبو رافع، فقد كان فيمن حزَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، قال ابن إسحاق: «فخرج إليه من الخزرج من بني سلمة خمسة نفر: عبدالله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود فخرجوا.

فأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبدالله بن عتيك، ونهاهم عن أن يقتلوا وليدًا أو امرأة، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلًا، فلم يدَعوا بيتًا في الدار إلاأغلقوه على أهله، قال: وكان في عليَّةٍ له إليها عجلة، قال: فأسندوا فيها حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا عليه فخرجت إليهم امرأته، فقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس المِيرة[2]، قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه.

= صـ٩٠).

(١) ابن حبان (٤١٨٦)، البزار (٩٨٤)، البيهقي في «الشعب» (جـ٤ صـ١١).

(٢) المِيرة: الطعام.

قال: فلما دخلنا عليه أغلقنا علينا وعليها الحجرة، تخوفًا أن تكون دونه مجاولة تحول بيننا وبينه، قال: فصاحت امرأته فنوَّهت بنا، وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية ملقاة، قال: ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكفّ يده، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل!»[1].

ومن ذلك ما وقع مع جندي النبي ﷺ المغوار أبي دجانة رضي الله عنه، ولندعه في لمحة خاطفة يروي لنا هذا المشهد، قال أبو دجانة: «رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا، فصمدت له، فلما حملت عليه السيفَ وَلْوَل فإذا امرأة! فأكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة»[2].

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

بيضٌ مفاليلُ من فعلِ الحُروبِ بهم ... من أسيُفِ اللهِ لا الهنديَّةِ الخُذمِ

كم في الترابِ إذا فتَّشتَ عَن رجلٍ ... من ماتَ بالعهدِ أو من ماتَ بالقَسَمِ؟

ومن أعظم الأدلة على أخلاقيات الحروب مع نساء الأعداء المقاتلين في السيرة النبوية، أن النبي ﷺ اصطفى منهن لنفسه اثنتين: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حُيي بن أخطب، فتزوجهما، فجعلهما بذلك تنالان شرفَ وكرامة التبعل لأشرف الخلق ورسول الحق ﷺ، وتساوت رأسُ كلِّ واحدة منهما برأس عائشة بنت صديق الأمة، ورأس حفصة بنت فاروقها!

وجعلهما تحصلان على شرف وكرامة الأمومة لهذه الأمة الكريمة، فلا يَردُ ذكرُ واحدة منهما على سمع المسلم إلى يوم القيامة، إلا ويلهج لسانه بالثناءِ الحسن والترضي عليها، ولا يصلي أويسلم موحِّد على النبي ﷺ وآل بيته الأطهار، إلا

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٥٦، ٥٧)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٧٤)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ١٦).

وتدخلان في شرف هذه الصلاة وفضل هذا السلام!

الأدب مع من لم يقاتل

وكما أن النبي ﷺ عامل غير المقاتلين - من الشيوخ والعبَّاد والعجزة والنساء والأطفال - معاملة كريمة، وأمر بالإحسان إليهم، فقد كانت هذه هي أخلاقياته التي ربَّى عليها جيوشه، مع كل من يلاقيه من غير المقاتلين، وهو متوجه إلى حروبه، فلا قتل ولا أذى، ولا تدمير ولا إتلاف، ولا سب ولا احتقار ولو بمجرد كلمة!

من ذلك ما وقع من الصحابي سلمة بن ثابت بن وقش رضي الله عنه، وهم في طريقهم لغزوة بدر - ولا زال غلامًا حدثًا -، وقد قابلوا رجلًا فأفحش له سلمة في الكلام، فأمر النبي ﷺ سلمة بالكف عن الرجل، وأدبه بعدم مخاطبته حتى رجعوا من الغزوة!

عن عروة قال: (لقي رسولُ الله ﷺ رجلًا من أهل البادية، وهو يتوجه إلى بدر، فسأله القوم عن خبر الناس، فلم يجدوا عنده خبرًا، فقالوا له: سلم على رسول الله، فقال: أوفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، قال الأعرابي: فإن كنتَ رسول الله فأخبرني ما في بطن ناقتي هذه؟

فقال له سلمة بن ثابت بن وقش - وكان غلامًا حدثًا -: لا تسأل رسول الله، أنا أخبرك، نزوتَ عليها! وفيها سخلة منك! فقال رسول الله: «مه، أفحشت على الرجل يا سلمة»، ثم أعرض رسول الله ﷺ عن الرجل فلم يكلمه كلمة حتى قفلوا، واستقبلهم المسلمون بالروحاء يهنؤونهم...)[1].

فيا عقلاء الدنيا، ويا مُنصفي العالم، هل هناك وجه واحد من أوجه المقارنة، بين أخلاقيات الحروب في سيرة الحبيب المحبوب، وبين الذين ملأت جرائمهم كل

---

(١) الحاكم في «المستدرك» (٥٧٦٧)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ ١٦٠).

عصر ومصر، ولوثت أفعالهم الفاضحة كل زمان ومكان؟ هل تستوي أخلاقيات النبيِّ ﷺ وجنودِه مع أخلاقيات الذين:

لم يخجلوا من ذبح شيـ ـخٍ لو مشى في الريح طاحْ!

أو صبيةٍ كالزُّهرِ لم ينبتْ لهم ريشُ الجَناحْ!

ذبحوا الصَّبيَّ وأمَّه وفتاتَها ذاتَ الوشاحْ!

عبثوا بأجسادِ الضحا يا في انتشاءٍ وانشراحْ!

ما ثَمَّ مُعتصِمٌ يُغيـ ـثُ من استغاث به وصاحْ!؟

❑ ❑ ❑

الفصل الخامس

أخلاقيات حربية عامة

١ - العدل والمساواة

العدل قوامُ الحياة، وهو أساسُ الملك، وبه تستقر الأمور وتنضبط المجتمعات، وهو يدل على شرف النفس ونقاء الفطرة، ويكتب لصاحبه الرضا والحب، ومن تتبع سيرة النبي ﷺ رأى كل مواقف النبي اتصفت بالعدل والمساواة بين القريب والغريب، وخاصة في الأوقات العصيبة كالحرب، وكما قال النبي ﷺ: **«ثلاثٌ مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه من الخيلاء، وثلاثٌ منجيات: العدلُ في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفاقة، ومخافة الله في السر والعلانية»**[1].

ومن المواقف التي ربى الله ﷻ نبيه ﷺ وأمته فيها على خلق العدل في الحروب، ما أمر الله به مِن ردِّ ما أنفقه الكفار من مهور وغيره إليهم، إذا أسلم أزواجهم ودخلن في المجتمع المسلم، كما أنهم يأخذون ما أنفقوا من الكفار، قال المولى ﷻ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة:١١-١٢].

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، البيهقي في «الشعب» (٧٤٥).

ومن هذه المواقف التربوية الأخلاقية أيضًا، ما حدث مع النبي ﷺ أثناء مثَّل المشركون بجسد عمه حمزة ﷺ، فغاظه المنظر لمَّا رآه، فحلف - في حالة غضبه - أن يفعل مثل فعلهم بثلاثين منهم، فردّه الله إلى العدل، أو إلى ما هو أعلى منه من العفو والصبر، فاختار العفو.

عن ابن عباس ﷺ قال: (لما وقف رسول الله ﷺ على حمزة فنظر إلى ما به، قال: «لولا أن تحزن النساء ما غيبته، ولتركته حتى يكون في حواصل الطيور حتى يبعثه الله مما هنالك»، قال: وأحزنه ما رأى به، فقال: «لئن ظفِرت بقريش لأمثلنَّ بثلاثين رجلًا منهم!»، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٦- ١٢٧]، ثم أمر به فهُيىء إلى القبله، ثم كبر عليه تسعًا، ثم جمع إليه الشهداء، كلما أتي بشهيد وضع إلى جنبه، فصلى عليه وعلى الشهداء اثنتين وسبعين صلاة! ثم قام على أصحابه حتى واراهم، ولما نزل القرآن عفا رسول الله ﷺ وتجاوز وترك المثل)[1].

وبين اللهُ ﷻ للأمة أن إقامة هذا العدل، يجب عليها ألا يمنعها من إقامتة أن كان الخصوم من أهل الكراهية والعداوة، قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨]، بل ويأمرهم بإقامة العدل ولو كان على أنفسهم، أو أقرب الناس إلى قلوبهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ...﴾ [النساء:١٣٥].

وقد التزم النبي ﷺ بتطبيق حكم العدل ورفع لواءه، فها هو يُمكِّن أحد جنوده

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١١٠٥١) قال الهيثمي: فيه أحمد بن أيوب بن راشد، وهو ضعيف، «مجمع الزوائد» (جـ٦ صـ١٢٠)

قبيل المعركة، من أن يأخذ حقه منه! روى ابن إسحاق (أن رسول الله عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية وهو مستنصل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح! وقال: «استو يا سواد»، فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني!

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقد»، فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد!؟»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك! فدعا له رسول الله ﷺ بخير)[1].

٢ - الإنفاق والبذل

ومن الأخلاقيات الرائعة للرعيل الأول المبارك، إنفاقهم في سبيل الله، وبذلهم كلَّ غال ونفيس لنصرة هذا الدين، فما كان النبي ﷺ يحثهم على البذل والعطاء إلا وكانوا يبادرون ملبِّين، ويسارعون منفقين.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (أمرنا رسولُ الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يومًا -! فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك؟»، قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك؟»، قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسوله! قلتُ: لا أسابقك إلى شيء أبدًا)[2].

وهذا ذو النورين رضي الله عنه له في الإنفاق أروع المواقف، فعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: (جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كمِّه، حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره، قال عبد الرحمن: فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره، ويقول: «ما

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٢)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) أبو داود (١٦٧٨)، الترمذي (٣٦٧٥)، الحاكم (١٥١٠)، الدارمي (١٦٦٠)، البزار (١٥٩، ٢٧٠)، البيهقي في «السنن» (٧٥٦٣).

ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم مرتين»)[1]، وعن عبد الرحمن بن جناب ﷺ قال: (خرج رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان ﷺ: عليَّ مائة بعير بأحلاسِها وأقتابها، قال: ثم حث فقال عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مِرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها! قال: فرأيت النبيَّ ﷺ يقول - بيده هكذا يحركها -: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»)[2].

وإن كان هؤلاء السابقون الأولون كانوا ينفقون في سبيل الله، فإن إخوانهم من الذين تأخروا عنهم في الإسلام، كانوا يحاولون تعويض ما فاتهم، ببذل ما يستطيعون بذله، فهذا خالد بن الوليد ﷺ أوقف أمواله على بيت مال المسلمين، وأرصد أسلحته للمجاهدين، حتى لم يبق عنده ما يزكي عنه، مع ما كان عنده من أموال طائلة!

عن أبي هريرة ﷺ قال: (بعث رسول الله ﷺ عمرَ على الصدقة، فقيل: منع ابنُ جميل وخالدُ بن الوليد والعباسُ عمُّ رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله! وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا! قد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله! وأما العباس فهي علي ومثلها معها»، ثم قال: «يا عمر أما شعرت أن عمَّ الرجل صنوُ أبيه؟»)[3].

---

(١) الترمذي (٣٧٠١)، أحمد (جـ٥ صـ٦٣)، الحاكم (٤٥٥٣) الطبراني في «الأوسط» (٦٢٨١).

(٢) الترمذي (٣٧٠٠)، أحمد - واللفظ له- (جـ٤ صـ ٧٥)، ابن أبي شيبة (٥٩١٥)، الطبراني في «الأوسط» (٥٩١٥).

(٣) البخاري (١٣٩٩)، مسلم - بهذا اللفظ- (٩٨٣)، أبو داود (١٦٢٣)، النسائي في «الكبرى» (٢٢٤٣)، و«المجتبى» (٢٤٦٤)، أحمد (٨٢٦٧)، ابن خزيمة (٢٣٣٠)، ابن حبان (٣٢٧٣)، البيهقي في «السنن» (١١٦٩٥).

٣ - الأمانة والوفاء

ومن هذه الأخلاقيات التي نتعلمها من سيرة النبي ﷺ الأمانة والوفاء، فقد علم الله ﷻ نبيه ﷺ وأصحابه أن النكث والغدر وعدم الوفاء من صفات المشركين، التي ينبغي على المسلمين أن يتجنبوها، وأنها لا تعود على المتصفين بها إلا بالسوء، قال ربنا ﷻ: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١٢- ١٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:١٠].

ومن غدر قريش هذا أنهم همُّوا بقتل رسول بعثه إليهم النبي ﷺ، بعد أن قتلوا بعير النبي الذي كان يركبه الرجل، فعن المسوَر بن مخرمة قال: «قد كان رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له، يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله! فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله»[١].

فأين هذا الغدر وهذه الخيانة من أمانة ووفاء أبي العاص بن الربيع ﵁، الذي أراد أن يسلم، ومعه أموال وأمانات لقريش، فقيل له: خذها، فأبى ثم ردها وأسلم! روى ابن هشام «أن أبا العاص بن الربيع لما قدم من الشام، ومعه أموال المشركين، قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين؟ فقال أبو العاص: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي!»[٢].

---

(١) أحمد (جـ٤ صـ٣٢٤)، «تفسير الطبري» (جـ٢٦ صـ٨٥).

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ ٢١٠).

٤ - حب الجهاد

ومن أروع هذه الأخلاقيات الحربية خلق حب الجهاد، والحرص الشديد على البطولة والتضحية، مع ما في الجهاد من تعب ومشقة وتعريض النفس للقتل، وإن قصص جنود النبي ﷺ في حبهم للجهاد لكثيرة وعجيبة.

ومن هذا ما وقع من جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقد استشهد أبوه، وليس في البيتِ أحدٌ يعولُ أخواتِه السبعَ غيرُه، ومع ذلك يجيء مستأذنًا النبي ﷺ في الجهاد!

فعن عكرمة قال: «لما كان الغد من يوم الأحد، لِستَّ عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه أن لا أحدَ إلا أحدٌ حضر يومَنا بالأمس!

فكلمه جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلفْ على أخواتِك فتخلفت عليهن.

فأذِن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله مُرهِبا للعدو، وليَبلغَهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم»[1].

وإن كان حرصُ الكبار من أصحاب النبي ﷺ على القتال عجيبًا، فإن الأعجبَ منه أن يحرص الصغارُ على الانضمام لصفوف المجاهدين، والنيل من أعداء الله ورسوله!

---

(١) «تفسير الطبري» (جـ٤ صـ١٧٦)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ١ صـ٤٢٩)، «فتح الباري» (جـ٧ صـ٣٧٣).

فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (بينما أنا واقفٌ في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثةٍ أسنانُهما، تمنيت أن أكون بين أضلعَ منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسبُّ رسولَ الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سوادَه حتى يموتَ الأعجلُ منا!

فتعجبت لذلك! فغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله فأخبراه.

فقال: «أيكما قتله؟»، قال كلُّ واحد منهما: أنا قتلته! فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟»، قالا: لا، فنظر في السيفين فقال: «كلاكما قتله»[1]! سلبه لمعاذ بن عمرو ابن الجموح، وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح)[2].

قال الشيخ الغزالي: «إن الاستهتارَ بالخطر، والطيرانَ إلى الموت، ليست فروسية احتكرها الرجالُ المقاتلون وحدهم، بل هي قوة غامرة قاهرة، تعدَّت الرجال إلى الأطفال! فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز.

وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة، قابله الصبية بصيحاتِ الاستنكار يقولون: يا فرَّار، فررتم في سبيل الله؟ إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد رضي الله عنه ومن معه فرارًا يُقابَل بحثو التراب! أيُّ جيل قويٌّ نابهٍ هذا الجيل الذي

---

(١) اختلف العلماء فيمن قتل أباجهل بين أربعة أشخاص لكثرة الروايات! قال الشوكاني في «النيل»: «يحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شد عليه مع معاذ بن عمرو، وضربه بعد ذلك معوذ بن عفراء حتى أثبته، ثم حز رأسه ابن مسعود، فتجتمع الأقوال كلها»، «نيل الأوطار» (جـ٨ صـ١٠١).

(٢) البخاري (٢٩٧٢)، مسلم (١٧٥٢)، أحمد (١٦٧٣)، الحاكم (٥٧٩٦)، البزار (١٠١٣)، أبو يعلى (٨٦٦)، الطبراني في «الكبير» (جـ٢٠ صـ١٧٧)، البيهقي في «السنن» (١٢٥٣٩).

صنعه الإيمان بالحق؟

أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟ من آباؤهم؟ من أمهاتهم؟ كيف كان الآباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟ إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس»[1].

هؤلاء هم الرجال حقًا، برغم صغر سنهم، وهؤلاء هم الذين يتربى على قصصهم الأبطال، وكأن في كلٍّ واحد منهم قال ابن الأبار البلنسي:

يزورُ الحربَ مُرتاحًا إليها ... ويألفُ حِجْرَها دُونَ الحُجُورِ

بآيةِ مَا غذتْهُ وأرْضعَتْهُ ... صَغيرًا في حِجى الكهلِ الكبيرِ

وَقُورا والجبالُ تخِرُّ مما ... يُزلزِلُ جانبَ الأرْضِ الوقُورِ

كأنَّ عليهِ نذرًا أنْ يُوافِي ... رَحاها فهْوَ يُوفِي بالنذورِ

ويختارُ السُّروجَ على الحَشايا ... مِهادًا والحديدَ على الحريرِ

ومن العجيب أيضًا أن يحرص على الانضمام للمعركة من لا يملك سلاحًا يستخدمه، ولا دابة يمتطي متنها! فيجيء إلى النبي ﷺ عساه يجد عنده ما يحمله من سلاح، أو يركبه من دابة فلا يجد، فيعتصر الحزنُ قلبه، ويملأُ الدمعُ جفنيه، فيرجع أدراجه بعد أن رفع عنه الحرج، فيسجل الله ﷻ هذا الموقف للأمة فيقول: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

قال ابن حجر نقلًا عن ابن إسحاق: «لقي ذكوانُ بنُ يامين أبا ليلى عبد الرحمن ابن كعب وعبد الله بن مغفل باكيين! فقال: ما يُبكيكما؟ قالا: جئنا نستحمل النبي ﷺ، فلم نجد عنده ما يحملنا، فأعطاهما ناضحًا وزودهما، وذلك في غزوة تبوك»[2].

---

(١) «فقه السيرة للغزالي» (صـ٣٩١).

(٢) «الإصابة في تمييز الصحابة» (جـ٢ صـ٤٠٦).

ومن الأعجب من هذا وذاك، أن يجيء الرجل من أصحاب النبي ﷺ، وقد أكرمه الله بفقد عينيه، فيُصرُّ على حمل الراية في المعركة! فعن أنس رضي الله عنه «أن ابنَ أم مكتوم كانت معه راية سوداء لرسول الله ﷺ في بعض مشاهد النبي»[1]، بل ويصر على هذا العمل من الجهاد بعد موت النبي ﷺ، فها هو يحمل الراية في المعركة ضد الفرس، فعن أنس رضي الله عنه قال: «استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم مرتين على المدينة، ولقد رأيته يوم القادسية معه راية سوداء»[2]، ويظل كذلك إلى أن يُقتل شهيدًا! بعد أن أبى لروحه الطاهرة أن تخرج لتُزفَّ إلى الجنة، إلا على نغمات ضربات السيوف، وطعنات الرماح، ورميات السهام، وكأن فيه وفي أمثاله قال السموألُ بن عادياء الأزدي:

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ... وليست على غير الظباتِ تسيلُ!

ولو أردنا أن نقارن بين هذه المواقف وبين ما يحدث الآن في زمننا، خاصة في بعض البلاد الإسلامية، التي يكون فيها التجنيد إلزاميًا، لما وجدنا مجالًا للمقارنة، فكم من جنديٍّ يهرب من كتيبته أو يتغيب عن سريَّته!؟ وكم من جندي يبحث وراء استخراج شهادة طبية، تشهد له بأنه لا يصلح لأداء هذه الخدمة!؟ بل وكم من أسرة تبحث عن واسطة حتى يُعفى ابنها ويسرَّحَ تسريحًا جميلاً!؟ مع ما يوجد من فوارق كبيرة مع ما كان في الجيش زمن جنود النبي ﷺ، وبين ما نحن فيه الآن من أساليب رفاهية وراحة!

٥ - الشجاعة والبسالة

كانت الشجاعة والبسالة من أخلاق جيش المسلمين، التي رباهم الله ﷻ عليها في كتابه، وأوجدها في نبيه محمد، فكان من شجاعته ﷺ أنه يكون في المعركة أقربَ

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٠٥).

(٢) أحمد (١٢٣٦٦)، أبو يعلى (٣١١٠)، ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (جـ٤ صـ٢١٢).

الناس من العدو، عن علي ﷺ قال: «كنا إذا احمر البأس، ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسول الله ﷺ، فما نرى أحدًا أقرب إلى القوم منه»[١]، وقال رجل للبراء ﷺ: «يا أبا عمارة أفررتم يوم حنين، قال: لا والله ما ولى رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبانُ أصحابه وأخِفَّاؤُهم حُسَّرًا[٢]، ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قومًا رماة لا يكاد يسقطُ لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر فرشقوهم رشقًا، ما يكادون يخطئون فأقبلوا هناك إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل فاستنصر وقال:

أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابنُ عبد المطلبْ»[٣]

ومن تربية الله ﷻ لجنوده أن سمى في القرآن الجبنَ والخوف فشلًا، فقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٢٢]، قال القرطبي: «والطائفتان: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر يوم أحد، ومعنى ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: أن تجبُنا»[٤].

ومن مواقفه ﷺ في الشجاعة والقوة معًا، موقفه في قتل عدو الله أُبيِّ بن خلف، وإليك مشهد قتله لأُبيّ: (فلما أُسْنِد رسول الله ﷺ في الشِّعب أدركه أبي بن خلف، وهو يقول: أي محمد لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه»، فلما دنا أخذ رسول الله الحربة من الحارث

---

(١) أحمد (١٣٤٦)، البزار (٧٢٢)، أبو يعلى (٣٠٢).

(٢) أخِفَّاء: جمع خفيف، والمعنى: الذي ليست لديه تجربة كافية، وحُسَّرًا: ليس عليهم من السلاح ما يقيهم.

(٣) البخاري (٢٧١٩، ٢٧٧٢، ٢٨٧٧، ٤٠٦١)، مسلم - بهذا اللفظ- (١٧٧٦)، الترمذي (١٦٨٨)، أحمد (جـ٤ صـ٢٨٩)، ابن أبي شيبة (٣٦٩٨٣)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ١٥٥).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (جـ٤ صـ١٨٥).

ابن الصمة، يقول بعض القوم: فلما أخذها رسول الله منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا بها تطاير الشَّعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها! ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها![1]

وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي فرسًا أعلفه كل يوم فَرَقًا[2] من ذرة أقتلك عليه، فيقول رسول الله: «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس! قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني! فمات عدو الله بسَرَف وهم قافلون به إلى مكة)[3]، ورحم الله أبا عبد الله بن الجنان إذ قال:

سلامٌ على من قد رمى اللهُ إذ رمى ... فأعشى عيونَ المشركين وأرمدا!

سلامٌ على مُرويْ (أبيٍّ) بطعنةٍ ... قضتْ لنبيٍّ في غبيٍّ توعَّدا

سلامٌ على من شُجَّ في الحرب وجهُهُ ... فكرَّرَ (ربِّ اغفرْ لقومي) ورددا

سلامٌ على من طاب حيًّا وميِّتًا ... وكَرُم غيبًا في الأنامِ ومشهدا

وقد اقتدى الجنودُ بقائدهم في شجاعته وقوته، فهذا عكاشة بن محصن رضي الله عنه في غزوة ذي قرد أدرك أوبارًا وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعًا! واستنقذوا بعض اللقاح[4].

وهذا طرفٌ من شجاعة أبي دجانة رضي الله عنه، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: (عرض رسول الله سيفًا يوم أحد، فقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقمت،

---

(١) الشَّعراء: ذباب له لدغ، وتدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

(٢) الفرَق: من أنواع المكاييل التي تكال بها الحبوب، والمعنى: أعلفه جيدًا ليوم أقتلك عليه، وقد يطلق الفرَق على الخوف الشديد كما في حديث العلاط الآتي في فقرة (الفطنة والذكاء).

(٣) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٣٤)، «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٦٧).

(٤) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٠٨).

فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عني! ثم قال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عني!

ثم قال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقام أبو دجانة سِماك بن خرَشة فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فما حقه؟ قال: «أن لا تقتل به مسلمًا، ولا تفرَّ به عن كافر»، قال: فدفعه إليه، وكان إذا أراد القتال أعلم بعصابة، قال: قلت: لأنظرن إليه اليوم كيف يصنع؟ قال: فجعل لا يرتفع له شيءٌ إلا هتكه وأفراه...)[1].

وفي رواية ابن أبي شيبة: قال النبي ﷺ: («من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقال أبو دجانة: أنا، وأخذ السيفَ فضرب به حتى جاء به قد حناه! فقال: يا رسول الله أعطيته حقه؟ قال: «نعم»)[2].

وكان أبو دجانة حين انطلق بسيف النبي ﷺ يقول:

انا الذي عاهدني خليلي	ونحن بالسفح لدى النخيلِ
الا أقومَ الدهرَ في الكيولِ	اضربْ بسيف اللهِ والرسولِ[3]

٦ - القوة والبأس

وصف الله جنود النبي ﷺ بالقوة والشدة على أعدائهم فقال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ...﴾ [الفتح:٢٩]، وقد سطروا هذه القوة في التاريخ ببطولاتهم.

فهذا خالد بن الوليد ؓ يتكسر الحديد في يده، ولا يتأثر هو! فيقول عن نفسه: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف! فما بقي في يدي إلا صفيحة

---

(١) الحاكم في «المستدرك» - واللفظ له- (٥٠١٩)، البزار (٩٨٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٢٥١١، ٣٦٧٨٠).

(٣) «الطبقات الكبرى» (جـ٣ صـ٥٥٦)، «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٧٤)، «سير أعلام النبلاء» (جـ١ صـ٢٤٤).

يمانية»[1]، وهو بهذا أحقُّ بقول عنترة بن شداد من عنترة نفسه:

وإن دارت بهم خيلُ الأعادي ونادَوني أجبتُ متى دُعيتُ

بسيفٍ حدُّهُ يُزجي المنايا ورُمحٍ صدرُهُ الحتفُ المُميتُ

خُلقتُ من الحديدِ أشدَّ قلبًا وقد بَلِيَ الحديدُ وما بليتُ

وهذا البراء بن مالك الأنصاري رضي الله عنه يقول عن نفسه: «... قد قتلت مائة من المشركين مبارزة، سوى من شاركت في قتله!»[2].

ومن هذه القوة ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (لقد بعث رسولُ الله ﷺ يوم الطائف حنظلة بن الربيع رضي الله عنه إلى أهل الطائف فكلمهم، فاحتملوه ليدخلوه حصنهم، فقال رسول الله ﷺ: «من لهؤلاء وله مثلُ أجر غزاتِنا هذه؟» فلم يقم إلا العباسُ بن عبد المطلب رضي الله عنه حتى أدركه في أيديهم، قد كادوا أن يدخلوه في الحصن فاحتضنه العباس - وكان رجلًا شديدًا - فاختطفه من أيديهم، وأمطروا على العباس رضي الله عنه الحجارة من الحصن، فجعل النبي ﷺ يدعو له حتى انتهى به إلى النبي ﷺ)[3].

٧ - التضحية والفداء

ومن أخلاقيات الصحابة التضحية والفداء، وقد شحنت بأخبارهم في هذا الخلق كتب السيرة النبوية، فقد ضحَّى من أجل هذا الدين، ومن أجل الدفاع عن النبي ﷺ المهاجرون والأنصار، وإن الصفحاتِ لا تكفي اللهم إلا لعرض القليل من نماذج التضحية والفداء.

---

(١) البخاري - بهذا اللفظ- (٤٠١٧)، الحاكم (٤٣٥٤)، ابن أبي شيبة (٣٢٦٢٠)، ابن حبان (٧٠٨٩)، أبو يعلى (٧١٨٧)، الطبراني في «الكبير» (٣٨٠٢).

(٢) ابن أبي شيبة - واللفظ لغيره- (٢٦٠٢٦)، الطبراني في «الكبير» (٦٩٢)، «صفة الصفوة» (جـ١ صـ٦٢٥)، «الإصابة» (جـ١ صـ٢٨٠).

(٣) «تاريخ دمشق» (جـ٢٦ صـ٣٤٠).

فمن هؤلاء المُضحِّين طلحة بن عبيد الله ﵁ أو طلحة الخير، فعن الزبير بن العوام ﵁ قال: (كان على النبي ﷺ درعان يوم أحد، فنهض إلى الصخرة فلم يستطع، فقعد طلحة تحته، فصعد النبي ﷺ عليه حتى استوى على الصخرة، فقال: سمعت النبي يقول: «أوجب طلحة»)(١)، وعن قيس بن أبي حازم قال: «رأيت يد طلحة ﵁ شلاء، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد»(٢).

ومن هؤلاء البراء بن مالك الأنصاري الذي كان كما قال إبراهيم الحضرمي:

يهوَى الطِّعانَ يُحبُّ الضربَ يُطربُه	وقعُ القنا وصريرُ البيضِ بالحجفِ
إني أحبُّ على حدِّ السيوفِ بأن	امضي على أثر الماضين من سلفِي
يا نفسُ إن سهامَ الموتِ راشقةٌ	كلَّ الأنامِ ففي الغاياتِ فانقذفِي
يا نفسُ لا جُرمَ لي إن الوغى تلفٌ	لكنَّه تلفٌ يُنجي من التلفِ
يا نفسُ لا تهِني باللهِ واقتحمي	حوضَ الرَّدى وَرِدِي في المعركِ الرجفِ

(فقد أمر - يوم حرب مسيلمة الكذاب - أصحابَه أن يحملوه على ترس على أسنة رماحهم، ويلقوه في الحديقة، فاقتحم إليهم وشد عليهم، وقاتل حتى افتتح بابَ الحديقة! فجُرِح يومئذ بضعة وثمانين جرحًا، ولذلك أقام خالد بن الوليد ﵁ عليه شهرًا يداوي جراحه)(٣).

٨ - الصبر والتحمل

ومما يجب على الجنود التحلي به خلق الصبر والتحمل، فقد أمر الله بالصبر

---

(١) الترمذي (١٦٩٢)، أحمد (١٤١٧)، ابن حبان (٦٩٧٩)، الحاكم (٤٣١٢)، البزار (٩٧٢)، أبو يعلى (٦٧٠)، البيهقي في «السنن» (١٢٨٧٨).

(٢) البخاري (٣٨٣٦)، ابن ماجه (١٢٨)، أحمد (١٣٨٥)، ابن أبي شيبة (٣٢١٥٦)، ابن حبان (٦٩٨١)، البزار (٩٦٠)، الطبراني في «الكبير» (١٩٢)، البيهقي في «السنن» (١٢٨٧٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (جـ١ صـ١٩٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» (جـ١ صـ٢٨١)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (جـ١ صـ١٥٥).

والمصابرة فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩ - ١٤٢].

وقد استجاب النبيُّ ﷺ وأصحابه لأمر الله، فتحملوا أذى الكفار والمنافقين، وصبروا على شدة الحرب ولأواءها، ففي طريق أُحُد قال رسول الله ﷺ لأصحابه **«من رجل يخرج بنا على القوم من كثب - أي: من قرب - من طريق لا يمر بنا عليهم؟»** فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرَّة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلًا منافقًا ضرير البصر.

فلما سمع حسَّ رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب! ويقول: إن كنتَ رسول الله فإني لا أحِلُّ لك أن تدخل حائطي، وقد أخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك! فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»**[(١)].

ومن هذا الصبر والتحمل ما حكاه لنا أبو موسى رضي الله عنه فقد قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعيرٌ نعتقبه! فنقبت أقدامُنا! ونقبت قدماي! وسقطت أظفاري! وكنا نلف على أرجلنا الخرق! فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا - وحدث أبو موسى بهذا، ثم كره ذاك - قال: ما كنت أصنع بأن أذكره - كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه -»[(٢)]

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٦١)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ١١).

(٢) البخاري (٣٨٩٩)، مسلم (١٨١٦)، ابن حبان (٤٧٣٤)، أبو يعلى (٧٣٠٤)

ومن هذا التحمل للمشقة ما وقع لهم في غزوة بدر (فقد كانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيرًا، فاعتقبوها، فكان رسول الله وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرًا، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليًا رسول الله يعتقبون بعيرًا، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن ابن عوف يعتقبون بعيرًا!)[1]، فهذا هو تحملهم، وهذا هو صبرهم، تنوء الجبال ويضعف الحديد، ولا ينوء قلب أحدهم ولا يضعف!

ولو خُلقتْ قلوبٌ من حديدٍ ... لما حملتْ كما حمل العذابَا!

٩- الثبات وعدم التزعزع

من الأوصاف التي أكرم الله بها النبي ﷺ وأصحابه، الثبات وعدم التزعزع، فقد ثبتوا على مبادئهم التي آمنوا بها، ولم يستطع أحد أن يزحزحهم عنها، كما ثبتوا حينما تعرضوا للتعذيب، وثبتوا أمام أعدائهم في القتال، وفي الساعات الأخيرة من حياتهم، حينما كانت تسيل أرواحهم!

وكيف لا يثبتون وهم أسرعُ الناس استجابة لأوامر ربهم ووصايا نبيِّهم، وقد أمرهم ربهم ﷻ بالثبات قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥- ١٦]، وأوصاهم نبيهم ﷺ بالثبات، ونهاهم عن الفرار فقال: «اجتنبوا السبعَ الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشركُ بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[2].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ١٥٩).

(٢) البخاري (٢٦١٥، ٦٤٦٥)، مسلم (٨٩)، أبو داود (٢٨٧٤)، النسائي في «الكبرى» (٦٤٩٨، ١١٣٦١)، وفي «المجتبى» (٣٦٧١)، ابن حبان (٥٥٦١)، البيهقي في «السنن» =

وقد كان النبي ﷺ متحليًا بالثبات وعدم التردد منذ فجر الدعوة، (فقد بعث أبو طالب إلى رسول الله فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبْق علي وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا...)[1].

وفي نفس الدرب سار أصحابه الكرام، فهذا كعب بن مالك رضي الله عنه مع ما حدث له عقب غزوة تبوك، من هجر النبي ﷺ له مدة بلغت خمسين يومًا، وعدم كلام الناس معه، والأمر باعتزال زوجه، ويرسل له ملك غسان بالإغراءات فيثبت ولا يقبل شيئًا من ذلك، يحكي هو عن نفسه فيقول: «... فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب ابن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيمّمت بها التنور فسجرته[2] بها!»[3].

= (١٢٤٤٧)، وفي «الشعب» (٢٨٤، ٤٣٠٩).

(١) تاريخ الطبري (جـ١ صـ٥٤٥)، «سيرة ابن هشام» (جـ٢ صـ١٠١).

(٢) تيمّمت بها التنور فسجرته: قصدت بالكتاب مكان النار فأحرقته بها.

(٣) البخاري (٤١٥٦)، مسلم (٢٧٦٩)، أحمد (جـ٣ صـ٤٥٦)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ٤٦)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٣٣).

وأما الثبات في أرض المعركة حتى الموت فحدِّث ولا حرج، فهذا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يوم مؤتة (اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها، ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنةُ واقترابُها طيبةٌ وباردٌ شرابُها

والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

وكان قد أخذ اللواءَ بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت! فاحتضنه بعضديه حتى قتل!)[1].

وهذا سعد بن الربيع رضي الله عنه يثبت على الحق يوم أحد، إلى أن تثخنه الجراح، فيأبى قبل موته إلا أن يوصي بالثبات حول النبي ﷺ! فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع، وقال لي: «إن رأيته فأقرئه مني السلام»، وقل له: «يقول لك رسول الله: كيف تجدُك؟»)، قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق! وبه سبعون ضربة! ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم.

فقلت له: يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: خبرني كيف تجدك؟ قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة! وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف! قال: وفاضت نفسه)[2].

ونختم مواقف الثبات وعدم التزعزع، بموقف عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ٢٨).

(٢) الحاكم في «المستدرك» - بلفظه- (٤٩٠٦)، «سير أعلام النبلاء» (جـ١ صـ ٣١٨، ٣١٩)، «الاستيعاب» (جـ٢ صـ٥٩٠).

أمام ملك الروم، فقد (وجه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة، فذهبوا به إلى ملكهم فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد، فقال: هل لك أن تتنصَّر وأعطيك نصف ملكي؟ قال: لو أعطيتني جميع ما ملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين!

قال: إذا أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يعرض عليه ويأبى! فأنزله ودعا بِقِدر فصُبَّ فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي فيها، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى! ثم بكى.

فقيل للملك: إنه بكى، فظن أنه قد جزع، فقال: ردوه، ما أبكاك؟ قال: قلت: هي نفس واحدة تلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله! فقال له الطاغية: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلي عنك؟ فقال له عبد الله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم، فقبَّل رأسه وقدم بالأسارى على عمر فأخبره خبره، فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ فقبل رأسه)[1].

١٠ - الذكاء والفطنة

ومن الأخلاقيات التي اتصف بها جند الله في السيرة النبوية، خلق الذكاء والفطنة، فقد بلغوا فيها الغاية، والحرب تحتاج إلى كثير من هذه الفطنة، فالرأي والتخطيط يحتاجان إلى ذكاء، وستر الخطط عن الأعداء وكشف خططهم كذلك، والنصر - بعد توفيق الله - لمن عظم فيه العقل والفطنة، وتوفر عنده المكر والدهاء.

---

(١) البيهقي في «الشعب» (١٦٣٩)، «سير أعلام النبلاء» (جـ٢ صـ١٤)، «تفسير القرآن العظيم» (جـ٢ صـ٥٨٩).

لذا قال النبي ﷺ: «الحرب خدعة»[١]، وما كان ﷺ يعلن عن وجهته إذا خرج، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها...»[٢]، وهذا الذي استخدمه النبي ﷺ في الخروج لملاقاة بني لحيان وغيرهم، (فقد خرج في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بني لحيان، يطلب بأصحاب الرجيع، خبيب بن عدي وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرَّة)[٣].

وكان النبي ﷺ في كل مواقفه الحربية مستخدمًا الذكاء والفطنة ومتحليًا بهما، سواء في إرادة كشف ما يريد كشفه ومعرفته عن الأعداء، أو في إخفاء ما يريد إخفاءه عن أعداءه من الأسرار الخاصة به وبجيشه، وإليكم هذين الموقفين الذين حدثا من النبي ﷺ قبيل غزوة بدر، والذين يجب تدريسهما في الاستراتيجية العسكرية والمبادئ الأخلاقية على حد سواء.

١- (لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، مرّ حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن محمد وقريش، وما بلغه من خبر الفريقين، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممن أنتم، فقال رسول اللهّ ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك».

فقال الشيخ: خُبِّرت أن قريشًا خرجت من مكة وقت كذا، فإن كان الذي خبّرني صدق، فهي اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به قريش! وخبِّرت أن محمدًا

---

(١) البخاري (٢٨٦٦)، مسلم (١٧٣٩)، أبو داود (٢٦٣٦)، النسائي في «الكبرى» (٨٦٤٣)، الترمذي (١٦٩٥)، أحمد (١٤٢١٣، ١٤٣٤٧)، ابن حبان (٤٧٦٣)، أبو يعلى (١٩٦٨، ٢١٢١)، البيهقي في «الكبرى» (١٣٠٥٧).

(٢) البخاري - بهذا اللفظ - (٢٧٨٨)، النسائي (٨٧٧٨)، الدارمي (٢٤٥٠)، ابن أبي شيبة (٣٣٦٦٣، ٣٧٠٠٥)، البيهقي في «السنن» (١٣٠٥٩)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ ٤٦، ٥٣).

(٣) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٠٥)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٤١).

خرج من المدينة وقت كذا، فإن كان الذي خبّرني صدق، فهو اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به رسول الله ﷺ!

ثم قال: من أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»! ثم انصرف، فجعل الشيخ يقول: نحن من ماء! من ماء العراق! أو ماء كذا!؟)[١] وأراد النبي ﷺ بذلك قول الله ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٥-٦].

٢- عن علي رضي الله عنه قال: (لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر، وجدْنا عندها رجلين، رجلًا من قريش، ومولى[٢] لعقبة بن أبي معيط، فأما القرشي فأفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثيرٌ عددُهم، شديدٌ بأسُهم.

فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهَوا به إلى النبي ﷺ، فقال له: «كم القوم؟»، فقال: هم والله كثيرٌ عددُهم، شديدٌ بأسُهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى! ثم إن النبي ﷺ سأله: «كم ينحرون من الجُزر؟»، فقال: عشرًا لكل يوم، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ألف! كل جَزور[٣] لمائة»)[٤].

وكذلك كان أصحاب النبي في الذكاء وحسن التصرف، فعلى يدي أستاذهم تتلمذوا، ومن أخلاق قائدهم اقتبسوا، وقد انتقينا تصرفين حكيمين من تصرفات الصحابة، أحدهما لعبد الله بن أنيس رضي الله عنه مع خالد بن سفيان، والآخر للحجاج بن علاط رضي الله عنه مع أهل مكة:

١- عن عبد الله بن أنيس قال: (دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن

---

(١) «سيرة ابن هشام» (صـ ١١٠٤، ١١٠٥)، «الأذكياء» (صـ ٢٥٥، ٢٥٦)، «نهاية الأرب» (صـ ٩٧٤٢).

(٢) المولى هنا: العبد أو الخادم، ومن معانيها في اللغة: السيد والناصر والحبيب.

(٣) الجزور: الجمل، والجمع: الجُزر.

(٤) «سيرة ابن هشام» (صـ ١١٠٧، ١١٠٨)، «الأذكياء» (صـ ٣٥، ٣٦).

خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعُرَنة فأْتِه فاقتله»، قال: قلت: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه، قال: **«إذا رأيته وجدت له قشعريرة!»**.

قال: فخرجت متوشحًا بسيفي، حتى وقعت عليه وهو بعرنة، مع ظعُن[1] يرتاد لهن منزلًا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله من القشعريرة! فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه، أومئ برأسي الركوع والسجود!

فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا! قال: أجل، أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئًا، حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكِبَّات عليه.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: **«أفلح الوجه»**، قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: **«صدقت»**، قال: ثم قام معي رسول الله، فدخل في بيته فأعطاني عصا! فقال: **«أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس»**.

قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: **«آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقلَّ الناس المتخصِّرون[2] يومئذ»**، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه، حتى إذا مات أمر بها فضُمَّت معه في كفنه، ثم دفنا جميعًا![3].

٢- (ولما فتحت خيبر كلم رسولَ الله ﷺ الحجاجُ بن علاط السلمي، فقال:

---

(١) الظعن: جمع ظعينة، وهي المرأة.

(٢) المتخصِّرون: الذين يحملون العِصِي.

(٣) أحمد (جـ٣ صـ٤٩٦)، ابن حبان (٧١٦٠)، أبو يعلى (٩٠٥)، قال الهيثمي: فيه راو لم يسمَّ، وهو ابن عبد الله بن أنيس، وبقية رجاله ثقات: «مجمع الزوائد» (جـ٦ صـ٢٠٣).

يا رسول الله إن لي بمكة مالًا، عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة، ومال متفرق في تجار أهل مكة، فأذن لي يا رسول الله، فأذن له، قال: إنه لا بد لي يا رسول الله من أن أقول[1]، قال: «قل».

قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة، وجدت بثنيَّة البيضاء رجالًا من قريش، يتسمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفًا ومنعة ورجالًا، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان، فلما رأوني قالوا: الحجاج بن علاط، - قال: ولم يكونوا علموا بإسلامي عنده - أخبرنا يا أبا محمد، فإنه قد بلغنا أن القاطع[2] قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود وريف الحجاز.

قال: قلت: قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسركم! قال: فالتبطوا بجنبي ناقتي! يقولون: إيه يا حجاج، قال: قلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلًا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسرًا، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة، فيقتلوه بين أظهرهم، بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فقاموا وصاحوا بمكة، وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدَمَ به عليكم، فيُقتَلَ بين أظهركم، قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فيء محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك!

قال: فقاموا فجمعوا لي مالي، كأحثِّ جمع[3] سمعت به، قال: وجئت صاحبتي فقلت: مالي لعلي ألحق بخيبر، فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار.

---

(١) يقصد: أنه سيذكره ﷺ وأصحابه بالسوء أمام الكفار للضرورة.

(٢) يقصدون ذم النبي ﷺ، ويصفونه بأنه قاطع لرحمه.

(٣) أحث جمع: أسرعه.

قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: فقلت: وهل عندك حفظ لما وضعت عندك؟ قال: نعم، قال: قلت: فاستأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى أفرغ.

قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت الخروج، لقيت العباس فقلت: احفظ علي حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى الطلب ثلاثًا، ثم قل ما شئت، قال: أفعل، قلت: فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروسًا على بنت ملكهم - يعني: صفية بنت حُيي -، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه! فقال: ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت: إي والله، فاكتم عني، ولقد أسلمت، وما جئت إلا لآخذ مالي فرقًا[1] من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر الخبر، فهو والله على ما تحب.

قال: حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس حُلة له، وتخلق[2] وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحرِّ المصيبة، قال: كلا، والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروسًا على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه!

قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به! ولقد دخل عليكم مسلمًا، فأخذ ماله فانطلق، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه، قالوا: يا لعباد الله، انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، قال: ولم ينشبوا أن

---

(١) الفرَق - هنا -: الخوف الشديد، كما تطلق على بعض المكاييل كما في حديث قتل النبي لأبيِّ ابن خلف، وقد سبق ذكره.

(٢) تخلَّق: تطيّب بوضع الخلوق وهو من الطيب.

جاءهم الخبر بذلك!)[١].

١١ - التيقظ والحذر

أمر الله عباده المؤمنين به أن يكونوا في حالة تيقظ وانتباه لأعدائهم، وأن يكونوا منهم على حذر، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، وقد كان النبي ﷺ يلفت أنظار أصحابه لما يقوله الأعداء وما يفعلونه، حتى يتدربوا على أخذ الحيطة والحذر منهم، حتى لا يؤثر فيهم كيد كائد.

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ (أن يهوديا أتى على النبي ﷺ وأصحابه، فقال: السام[٢] عليكم! فرد عليه القوم، فقال نبي الله ﷺ: **«هل تدرون ما قال هذا؟»**، قالوا: الله ورسوله أعلم، سلم يا نبي الله، قال: **«لا، ولكنه قال كذا وكذا، ردُّوه علي»** فردوه، قال: **«قلتَ: السام عليكم؟»**، قال: نعم، قال نبي الله ﷺ عند ذلك: **«إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: عليك»**، قال: **«عليك ما قلت»**، قال: ﴿...وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ...﴾[المجادلة:٨]) [٣].

ومن ذلك ما وقع من النبي ﷺ مع المنافقين الذين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، ليمكروا بجيش النبي ﷺ، فقد (بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من

(١) «سيرة ابن هشام» - واللفظ له - (جـ٤ صـ٣١٧: ٣١٩)، النسائي في «الكبرى» - مختصرًا (٨٦٤٦)، أحمد (١٢٤٣٢)، عبد الرزاق (٩٧٧١)، ابن حبان (٤٥٣٠)، أبو يعلى (٣٤٧٩)، الطبراني في «الكبير» (٣١٩٦)، وعند غير ابن هشام والطبراني: «... بلغ الخبر العباس فعُقِر، وجعل لا يستطيع أن يقوم! فأخذ ابنا له يقال له: قثم، وكان يشبه رسول الله ﷺ، فاستلقى فوضعه على صدره، وهو يقول:

حِبي قُثمْ حِبي قثمْ ... شبيهُ ذي الأنفِ الأشمّ
نبيُّ ربي ذي النعمْ ... برغم أنفِ من رغِمْ

(٢) السَّام: من أسماء الموت.

(٣) الترمذي (٣٣٠١)، أبو يعلى (٣١١٤).

المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي طلحة بن عبيد الله ﷺ في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاكُ بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله! واقتحم أصحابُه فأفلتوا، فقال الضحاك في ذلك:

كادت وبيتِ اللهِ نارُ محمدٍ ... يشيط بها الضحَّاكُ وابنُ أبَيْرقِ

وظلْتُ وقد طبَّقتُ كبس سويلم ... انوءُ على رجلي كسيرًا ومرفقي!

سلامٌ عليكم لا أعودُ لمثلها ... أخافُ ومن تشملْ به النارُ يُحرَقِ

ثم تاب بعد ذلك وانصلح حاله)[١].

ومن مواقف جنود النبي ﷺ في أخذ الحذر والحيطة، ما روي عن عبد الله الليثي ﷺ مع الحارث بن البرصاء، فعن جندب بن مكيث قال: «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن غالب الليثي في سرية، وكنت فيهم، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوح بالكديد، فخرجنا حتى إذا كنا بالكديد، لقينا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذناه، فقال: إنما جئت أريد الإسلام، وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: إن تكن مسلما لم يضرك رباطنا يومًا وليلة، وإن ذلك نستوثق منك، فشددناه وثاقًا»[٢].

١٢ - التدبير والتخطيط

عاش النبي ﷺ في حياته كلها مخططًا مدَبِّرًا، وليس كما يعيش بعض الناس في حياتهم بدونهما، وهم يعتقدون أن هذه الطريقة في العيش هي طريقة المتوكلين، وأنها هي الخير والبركة! نقول: إنما الخير والبركة في ما أمرنا به الله ﷻ في كتابه، ودلنا عليه النبي ﷺ في سنته وسيرته، وإن التوكل الحق هو أن نأخذ بالأسباب المتاحة، ونستغل الفرص السانحة، مع الترتيب والتخطيط، ونحن نعتقد أننا لن ننال إلا ما كتبه الله

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ١٩٦، ١٩٧)، «الإصابة» (جـ٣ صـ٤٧٥).

(٢) أبو داود (٢٦٧٨)، الحاكم (٢٥٧١)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٨٨).

لنا، ولن يفوتنا إلا ما لم يقدّره لنا.

ومن نظر إلى حياة المعلم الأعظم، رأى أنها كلها كانت بتقدير وترتيب كان الله يأمره بهما، فلم يهاجر إلى المدينة المنورة إلا بتخطيط وإعداد سابقين، ولم يدْعُ إلى الله في عهديه المكي والمدني إلا بهما، ولم يخض غزواته ويبعث سراياه إلا بعد أن استنفد ما في وسعه من ذلك، وإذا كانت الحياة العادية تحتاج إلى تخطيط ونظام، فإن الساعاتِ العصيبة كساعات الحروب تحتاج إلى مضاعفة ودقة في الترتيب والتخطيط، فرُبَّ خطةٍ فاشلة أو دقةٍ غير كاملة تسببت في إهلاك جيش! وقد صدق المنفلوطي إذ قال:

أرى المجدَ في حدِّ الحُسام المُصَمِّمِ ... وسيرَ العُلا إثرَ الخميس[1] العَرَمْرَمِ

ومن جعل التدبيرَ في الحربِ هَمَّهُ ... اذلَّتْ إليهِ كُلُّ دهياءَ صَيْلَمِ

ولعل الكثير من وسائل التخطيط والترتيب النبوية قد مر بنا، وسوف يأتي البعض، وسوف أكتفي بالتعرض لأمثلة ثلاثة من ذلك:

أحدها: في غزوة أحد، حيث نظر النبي ﷺ إلى مكان المعركة، فرأى أنه ربما استغل الأعداءُ ثغرة الجبل فنفذوا منها، فوضع الرماة على الجبل وأمرهم بعدم مفارقته والنزول عنه، عن البراء رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلًا - عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا من مكانكم هذا، حتى أرسل لكم، وإن رأيتمونا هزمْنا القومَ وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم.

قال: فهزمهم الله، قال: فأنا والله رأيت النساءَ يشتددن على الجبل، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي: قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟ فقالوا: والله لنأتينَّ الناس،

---

(١) الخميس: من أسماء الجيش، لأنه يتكون من خمسة أقسام، المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة والقلب، والعرمرم: الضخم القوي.

فلنصيبنَّ من الغنيمة، فأتوهم، فصُرفت وجوههم! وأقبلوا منهزمين!»[١].

ثانيها: في غزوة خيبر، حيث طلب النبي ﷺ إلى صفوان بن أمية - ولم يكن أسلم بعد - أن يعيره أدرعًا ليدخل بها أصحابه المعركة، ثم يقوم بردِّها إليه - وهنا دليل على جواز طلب المعونة من الكافر، ما دامت لم تكن ضد المسلم -، فعن صفوان بن أمية رضي الله عنه (أن رسول الله استعار منه يوم خيبر أدراعًا، فقال: أغصبا يا محمد؟ فقال: «بل عارية مضمونة»، قال: فضاع بعضها، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضمنها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب!)[٢].

ثالثها: في غزوة خيبر أيضًا، حيث نزل النبي ﷺ بين أهل خيبر وغطفان، حتى لا يصلهم مدد يساعدهم على حربهم ضد المسلمين، قال ابن إسحاق: «أقبل رسول الله ﷺ بجيشه، حتى نزل بوادٍ يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ!»[٣].

١٣ - العفو والصفح

من أعظم الأخلاقيات التي تطل علينا بوجهها الوضيء وثوبها الجميل من سيرة النبي ﷺ، خلق العفو والصفح عن الأعداء، ممن آذاه وألحق به الضرر، وكم من مرة يعفو النبي ﷺ فيها عن رجل أو امرأة، عن فرد أو جماعة؟ وهذه أربعة من مواقف عفو[٤] النبي ﷺ:

---

(١) البخاري (٢٨٧٤)، أبو داود - وهذا لفظه - (٢٦٦٢)، النسائي في «الكبرى» (١١٠٧٩)، أحمد (جـ٤ صـ٢٩٣).

(٢) أبو داود (٣٥٦٢)، النسائي في «الكبرى» (٥٧٧٩)، أحمد - واللفظ له - (١٥٣٣٧، ٢٧٦٧٧)، الحاكم (٤٣٦٩)، الطبراني في «السنن» (٧٣٣٩)، البيهقي في «السنن» (١١٢٥٧).

(٣) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٣٥)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٩٩).

(٤) راجع عفو النبي ﷺ عن فضالة حين أراد اغتياله، في فقرة: (العفو والصفح) من فصل: (أخلاقيات المجاهدين مع الأعداء المقاتلين).

أحدها: عفوه ﷺ عن اليهودية التي أرادت أن تسمَّه، فقد رُوي أنه (لما اطمأن رسول الله ﷺ من خيبر، أهدت له زينب بنت الحارث شاة مصلية، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم! ثم سمت سائر الشاة! ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله، أخذ الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفظها، ثم قال: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم!**»، فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**»، قالت: بلغتَ من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًا فسيخبَر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل)[1]

ثانيها: عفوه ﷺ عن اليهود الذين يحضرون عنده فيدعون عليه، وكأنهم يسلمون عليه، فعن عائشة رضي الله عنها: (أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم! فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، قال: «**مهلًا يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنفَ والفُحْش**»، قالت: أو لم تسمع ما قالوا!؟ قال: «**أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيُستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيّ**»)[2].

ثالثها: عفوه ﷺ عن عمير بن وهب، وقد رحل إليه من مكة إلى المدينة يريد اغتياله، فعن عروة بن الزبير قال: (جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أُمية بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير في الحِجر - وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهم بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر - فذكر أصحابَ القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إنْ في العيش بعدهم خير! قال له عمير: صدقت والله، أما والله

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) البخاري (٥٦٧٨، ٥٩٠١، ٦٠٣٨)، مسلم (٢١٦٥)، ابن حبان (٦٤٤١).

لولا دَين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله! فإن لي قبلهم عِلة، ابني أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان وقال: علي دَينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحذ له وسُمّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر بن الخطاب ﷺ في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب، حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف! فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا[1] للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر ﷺ على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه، قال: فأدخله علي، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث أن يقتله، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا، ثم قال: انعموا صباحًا - وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ: **«فقد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»**، فقال: أما والله يا محمد إن كنتَ بها لحديث عهد.

قال: **«فما جاء بك يا عمير؟»**، قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: **«فما بالُ السيف في عنقك؟»**، قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا؟ قال: **«اصدقني ما الذي جئت له؟»**، قال: ما جئت إلا لذلك!

---

(١) حزر القوم: قدَّر عددهم على وجه التقريب.

قال: «بل قعدتَ وصفوانُ بن أمية في الحِجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، واللهُ حائل بينك وبين ذلك!».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا السياق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا)[١].

رابعها: عفوه ﷺ عن عامر بن الطفيل، وقد تهدد النبيَّ ﷺ بين يديه وأيدي أصحابه في المدينة، مع أنه اتفق مع جبار بن سلمى على اغتيال النبي ﷺ، وهذه قصتها: (قدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر، فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس بن جزء وجبار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساءَ القوم وشياطينهم، فقدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدر به! وقد قال له قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلِم، قال: والله لقد كنت آليتُ أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش!؟ ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف!

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يا محمد خالِني[٢]، قال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده»، قال: يا محمد خالِني وجعل يكلمه، وينتظر من أربد ما

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٤٤، ٤٥)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٧ صـ٥٦)، وهو حديث مرسل.

(٢) خالِني: مكـنّـي من أن أكون معك على خلوة، ليس معنا أحد.

كان أمره به، فجعل أربد لا يحير شيئًا! قال: فلما رأى عامر ما يصنع قال: يا محمد خالِني، قال: «لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له»، فلما أبى عليه رسول الله قال: أما والله لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا، فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل».

فلما خرجوا من عند رسول الله قال عامر لأربد: ويلك يا أربد، أين ما كنتُ أمرتك به!؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدًا، قال: لا أبا لك، لا تعجل علي، والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره، إلا دخلتَ بيني وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك! أفأضربك بالسيف؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله ﷻ على عامر الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر أغدَّة كغدةِ الإبل، وموتًا في بيت سلولية!؟

ثم خرج أصحابه حين واروه، فلما قدموا قالوا: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء، لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين، معه جمل له يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما!)[١].

١٤ - البعد عن التخريب

ومن الأخلاقيات الحربية الكريمة في سيرة النبي ﷺ، خلق الابتعاد عن التخريب والإتلاف بكل أنواعه، فقد نهى النبي ﷺ أثناء معاركه عن قطع الطريق،

---

(٢) «سيرة ابن هشام» - بهذا اللفظ - (جـ٥ صـ٢٦٠، ٢٦٢)، أبو يعلى (٨٩)، الطبراني في «الكبير» (٥٧٢٤)، وفي «الأوسط» (٩١٢٧).

وحرَّم النهب والسلب، وحظر إفساد الممتلكات وقطع الأشجار، وإن احتاج إلى شيء من أطعمة الأعداء أخذ بقدر الضرورة، وبالقدرالذي يحفظ به حياته وحياة أصحابه.

أما النهي عن قطع الطريق، فعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه قال: (غزوتُ مع نبيِّ الله ﷺ غزوة كذا وكذا، فضيّق الناس المنازل، وقطعوا الطريق! فبعث نبي الله ﷺ مناديا ينادي في الناس: «**أن من ضيق منزلًا أو قطع طريقًا فلا جهاد له**»)[1].

وأما حرمة النهب والسلب، فعن عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناسَ حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنما فانتهبوها! فإن قدورنا لتغلي، إذ جاء رسول الله يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه! ثم جعل يرمِّل اللحم بالتراب! ثم قال: «**إن النهبة ليست بأحلَّ من الميتة**»، أو «**إن الميتة ليست بأحل من النهبة**»)[2].

وأما الأخذ من أطعمة الأعداء للحاجة، وعلى قدر الضرورة، فعن أبي اليسر رضي الله عنه قال: (والله إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر عشية، إذ أقبلت غنم لرجل من يهود، تريد حصنهم ونحن محاصروهم، إذ قال رسول الله ﷺ: «**من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟**»، فقلت: أنا يا رسول الله، قال: «**فافعل**»، فخرجت أشتد مثل الظليم[3].

فلما نظر إلي رسول الله ﷺ مُوَلِّيًا، قال: «**اللهم أمتعنا به**»، فأدركت الغنم وقد دخلت أوائلها الحصن، فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدي، ثم أقبلت بهما أشتد، كأنه ليس معي شيء! حتى ألقيتهما عند رسول الله ﷺ، فذبحوهما

---

(١) أبو داود (٢٦٢٩)، أحمد (جـ٣ صـ٤٤٠)، أبو يعلى (١٤٨٣)، الطبراني في «الكبير» (جـ٢٠ صـ١٨٤)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ١٥٢).

(٢) أبو داود (٢٧٠٥)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٦١).

(٣) أشتد: أجري وأسرع، والظليم: ذكر النعام.

فأكلوهما.

فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ هلاكًا! فكان إذا حدث بهذا الحديث بكى، ثم يقول: أمتِعوا بي لعمري، كنت آخرهم!)[١].

وأما حكم قطع أشجار الأعداء، فبعد أن استعرض الإمام محمد أبو زهرة آراء الفقهاء، في حكم هدم البناء وقطع الأشجار، وسرَد أدلتهم قال: (والخلاصة التي انتهينا إليها ما يأتي:

أولًا: أن الأصل هو عدم قطع الشجر وهدم البناء، لأن الغرض من الحرب، دفع أذى الحاكم الظالم، لا إيذاء الرعية.

ثانيًا: أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء ضرورة حربية، لا مناص منها حين يستتر العدو بها، ويتخذ منه وسيلة لإيذاء الجيش الإسلامي، فإنه لا مناص من قطع الشجر وهدم البناء، وليست في ذاتها أعز من الأنفس التي تزهق في الميدان، وقد فعل ذلك النبي ﷺ.

ثالثًا: أنه يخرج كلام الفقهاء، الذين أجازوا قطع الشجر وتخريب العمران، على أنه مقصور على هذه الضرورة، ولا يتصور أنهم قصدوا التخريب لذات التخريب، وخصوصًا أنه كان الغالب أن الأرض تعود إلى المسلمين)[٢].

وقال الدكتور البوطي: «قطع نخيل بني النضير وإحراقها ثبت بالاتفاق، والذي أتلفه الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقي، وقد نزل القرآن تصويبًا لما أقدم عليه النبي ﷺ من ذلك - قطعًا وإبقاءً - وذلك في قوله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

وقد استدل عامة العلماء بذلك، على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (جـ٣ صـ٤٢٧).

(٢) «العلاقات الدولية في الإسلام» (صـ١٠١، ١٠٢).

وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، فالمسألة إذن من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية، قال العلماء: وإنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه هذا في النخيل - قطعًا أو كفًّا - تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها إرشادًا وتعليمًا للأئمة من بعده»[١].

١٥ - الانفتاح والتطور

من أخلاقيات الحروب في السيرة النبوية، خلق الانفتاح والتطور، بمعنى أن يكون الجيش منفتحًا ومطلعًا، على ما استخدمته الجيوش من قبل من خطط عسكرية وأساليب حربية، في شتى الأزمنة والبلاد، ليضيف خبراتِهم وتجاربَهم إلى ما عنده، وأن يكون - كذلك - مطلعًا على ما تستخدمه الجيوش في الوقت الحاضر من أساليب متطورة، وأن يحاول الحصول على ما يستطيعه منها، وأن يطور ويبتكر منها بقدر المستطاع.

وقد فعل النبي ﷺ وأصحابه ذلك، مستفيدين من خبرات السابقين من الأمم الأخرى، ففي غزوة الأحزاب وقد تكالبت على المسلمين القوى المختلفة، استشار النبي ﷺ أصحابه (فقال سلمان رضي الله عنه للنبي ﷺ: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنًا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين)[٢].

(وهذا من جملة الأدلة الكثيرة التي تدل على أن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها، بل هو أولى بها من غيره، وأن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين اتباعَ غيرهم وتقليدَهم على غير بصيرة، تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كله والمبادئ المفيدة جميعها، أينما لاح لهم ذلك، وحيثما وجد.

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ١٩٢).

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ ٩١)، «فتح الباري» (جـ ٧ صـ ٣٩٣).

فالقاعدة الإسلامية العامة في هذا الصدد، هي ألا يعطل المسلم عقله الحر وتفكيره الدقيق في سلوكه وعامة شؤونه وأحواله، وإذا كان المسلم كذلك فهو ولا ريب لا يمكن أن يربط في عنقه زمامًا، يسلم طرفه للآخرين فيقودوه حيثما أرادوا بدون وعي ولا بصيرة، وهو أيضًا لا يمكن أن يتجاهل أي مبدأ أو عمل أو نظام يسلم به العقل النيِّر والفكر الحر وينسجم مع مبادئ الشريعة الإسلامية، ليتجاوزه ولا يتعب نفسه بأخذه والاستفادة منه[١].

كما أن جيش النبي ﷺ قد ابتكر وطور ما عنده من إمكانيات، فقد ورد «أن النبي ﷺ نصب المنجنيق[٢] على أهل الطائف»[٣]، قال ابن هشام: «حدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق، رمى أهل الطائف»)[٤].

١٦- الفكر والاجتهاد

ومن الأخلاقيات والصفات الحربية الموجودة في سيرة الحبيب المحبوب ﷺ، والتي تسترعي انتباهنا، وتطلب منا أن نقف أمامها مفكرين مستفيدين، خلق الفكر والاجتهاد، فيما يَجِدُّ من قضايا، وفيما يعِنُّ من أحوال، بدلًا من أن يقف المرء مكتوف اليدين، ويصير كمن شُلَّ تفكيره متحيرًا، وهاكم بعض النماذج:

١- عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلِك! فتيمَّمت ثم صليت بأصحابي الصبح! فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جُنب!؟**» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله ﷻ يقول: ﴿... **وَلَا تَقْتُلُوٓاْ**

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ٢١٨).

(٢) المنجنيق: القذافة التي تقذف بها الحجارة وغيرها من بعيد، وكأنها في العصر الحديث المدفع.

(٣) الترمذي في «سننه» (٢٧٦٢)، «الطبقات الكبرى» (جـ٢ صـ١٥٩).

(٤) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ١٥٥).

﴿أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا)[١].

فانظر - وفقك الله - إلى اجتهاد عمرو بن العاص ﵁، وإلى استنباطه الحكم من آية قرآنية، ثم انظر إلى أصحابه وقد ذكروا الأمر للنبي ﷺ، ليتبينوا منه صحة هذا الحكم، ثم انظر إلى ملاطفة النبي ﷺ لعمرو وهو يسأله، وإلى ضحكه في وجهه وهو يُقِرُّه على الحكم ويُصوّبه!

٢- عن ابن عمر ﵄ قال: (قال النبيُّ ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصرَ في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرد منا ذلك، فذكِر للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم!)[٢].

وهذا النموذج الثاني الذي حدث مع جنود النبي ﷺ، بين غزوة الأحزاب وقريظة، وقد استعمل فيه كل فريق عقله، في نص الأمر الموجَّه إليهم من النبي، فكان الحكمُ الرحيم من النبي ﷺ، وهو تصويب وجهتي النظر، وإقرار كلٍّ على ما مال إليه من غير تعنيف، كما أن هذا الاجتهاد فتح بعده آفاقًا للنظر في النصوص، فصار الفقه الإسلامي ثريًا.

٣- بعد أن أمّر رسول الله ﷺ أمراء جيش مؤتة الثلاثة على الترتيب، وكَل الأمرَ للمسلمين ليختاروا لهم أميرًا، فاختاروا خالد بن الوليد ﵁، وهذا يدل على إعطاء فرصة للتفكير والثقة بالنفس، وترك مساحة للاجتهاد، قال الدكتور البوطي: «توصية الرسول ﷺ على مشروعية اجتهاد المسلمين في اختيار أميرهم إذا غاب أميرهم، أو وكل لهم الخليفة اختيار ما يرون، وقال الطحاوي: هذا أصل يؤخذ منه

---

(١) أبو داود (٣٣٤)، أحمد (جـ٤ صـ٢٠٣)، الحاكم (٦٢٨)، البيهقي في «السنن» (١٠١١).

(٢) البخاري - بهذا اللفظ - (٩٠٤، ٣٨٩٣)، مسلم (١٧٧٠)، ابن حبان (١٤٦٢)، أبو يعلى (٢٠٩)، الحاكم (٤٣٣٢)، الطبراني في «الكبير» (جـ١٩ صـ٧٩).

أن على المسلمين أن يقدموا رجلًا إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر»[١]

١٧ - الرأي والمشورة

علم الله ﷻ أحبابه خلق المشورة، ومدحهم به في القرآن، حتى إنه يبين أنه لا عذر لأحد في ترك البذل بأي إمكانية توفرت، فمن لم يتمكن من الجهاد بجسده لمرض أوعجز، أو بماله لفقره وقلة ذات يده، فلا أقل من إبداء الرأي وبذل النصيحة، قال الله ﷻ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩١].

فرُبَّ رأي صائب أو مشورة خالصة[٢]، من إنسان لم يستطع المشاركة لعذر عنده، يكون سببًا في تغيير مسار المعركة، وقلب الهزيمة نصرا! فما بالُنا لو وفَّق الله المسلم لأن يشارك بكل ما يُشارَك به من طاقات وإمكانيات؟ وما أجملَ قولَ أبي الطيب المتنبي:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ ... هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مرة ... بلغَت من العلياء كلَّ مكانِ

ولربما طعن الفتى أقرانَه ... بالرأيِ قبلَ تطاعنِ الأقرانِ

ومن ذلك ما أشار به الحباب بن المنذر ﷺ على رسول الله ﷺ، في مكان النزول يوم بدر، (قال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل! فانهض

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ٢٦١، ٢٦١).

(٢) راجع فقرة: (المشورة) في فصل: (أخلاقيات القادة مع الجنود) وفقرة: (بذل المشورة) في فصل: (أخلاقيات الجنود مع القادة)

بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغوِّرَ ما وراءه من القُلُب[١]، ثم نبنيَ عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون!

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغوِّرت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل، فملىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية)[٢].

١٨ - التواضع وعدم التكبر

ومن أعظم الأخلاقيات التي امتاز بها المسلمون في حروبهم، التواضع وعدم التكبر أثناء انتصاراتهم، وحين يمتلكون أزمَّة المعركة، وتقع أبصارهم على انهزام أعدائهم، فهم يعلمون أن النصر منحة من الله وفضل وتوفيق، ولولاه ما وقع شيء من ذلك.

لذا لم يتكبر النبي ﷺ أثناء دخوله مكة فاتحًا، ولم يحدث منه ما يحدث من القادة الظافرين المنتصرين، قال عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه: «إن رسول الله لما انتهى إلى ذي طوى، وقف على راحلته معتجرًا بشقة بُرد حبرة حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه[٣] ليكاد يمس واسطة الرحل!»[٤].

ولذا أيضًا تواضع بعد ذلك، واستغرق في ذكر الله وتقديسه واستغفاره، كما أمره الله بذلك، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] يصلي صلاة إلا دعا، أو قال فيها: سبحانك ربي

---

(١) القُلُب: جمع قليب، وهي: البئر، وتغوير البئر: ردمها وإذهاب ماءها.
(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ ٢٩)، «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ ١٦٧، ١٦٨).
(٣) العثنون: ما نبت من شعر على الذقن وتحته.
(٤) «سيرة ابن هشام» (جـ٥ صـ٦٣).

وبحمدك، اللهم اغفر لي»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم، فقال بعضهم: يأذن لهذا ومن أبنائنا من هو مثله! فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١] فقالوا: أمر نبيه إذا فتح عليه، أن يستغفره ويتوب إليه.

فقال لي: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: قلت: ليست كذاك! ولكنه أخبر نبيه بحضور أجله! فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:٢] فذلك علامة موتك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:٣]، فقال لهم: كيف تلوموني على ما ترون!؟»[2].

هذا هو فهم بعض أصحاب النبي ﷺ غير ابن عباس وعمر، وإن كان فهم ابن عباس وعمر أصوب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول الأصوليون.

وبنبيِّهم وقائدهم ﷺ اقتدى أمراء الجيوش الإسلامية الفاتحة وقادتها، فقد دخل الفاروق عمر حين استلم مفاتيح بيت المقدس ماشيًا، وعليه ثوب كادت الرقع أن تخفي ملامحه! ودخل سعد بن أبي وقاص مدينة المدائن فاتحًا، ودموعه تسيل على خديه، ثم تلا قول الله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٨].

❑ ❑ ❑

---

(١) مسلم - واللفظ له - (٤٨٤)، أحمد (٢٦٢٠٤)، ابن خزيمة (٨٤٧)، ابن حبان (٦٤١٢).

(٢) البخاري (٤٠٤٣، ٤١٦٧)، النسائي في «الكبرى» (١١٧١١)، الترمذي (٣٣٦٢)، أحمد - بهذا اللفظ - (٣١٢٧)، الحاكم (٦٢٩٦)، البزار (١٩٢)، الطبراني في «الكبير» (١٠٦١٦)، وفي لفظ البخاري: «قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم».



أخلاقيات بعد الحرب

الفصل الأول: أخلاقيات المسلمين مع الشهداء

الفصل الثاني: أخلاقيات المسلمين مع أسر الشهداء

الفصل الثالث: أخلاقيات المجاهدين مع القتلى

الفصل الرابع: أخلاقيات المجاهدين مع الأسرى

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أخلاقياتُ المسلمين مع الشهداء

وكما حسنت أخلاق المسلمين قبل نشوب الحروب، وحسنت - أيضًا - ورحاها دائرة، وساقها مُشمَّرة، فإن أخلاقيات المسلمين بعد الحروب لم تقِلّ عن تلكم الأخلاقيات حسنًا وروعة، فقد علت الأخلاقيات مع الشهداء الذين جُندِلوا في ميدان المعركة دفاعًا عن الحق، وجمُلت مع أسر الشهداء الذين كُويت قلوبُهم بألم فراقهم، ورقِيَت مع قتلى الأعداء الذين خلفتهم المعركة صرعى على أرضها، ورقَّت مع الأسرى الذين تمكن المسلمون منهم.

أما أخلاق الإسلام مع الشهداء، فقد بين الإسلام للشهيد - قبل أن يُستشهد - سهولة الألم الذي سوف يُحسه، وعلو درجة الشهداء في الجنة، وارتفاع منزلته عن غيره، وأن الله سوف يجمعه بالسابقين واللاحقين من أحبابه بعد أن يشفعه في بعضهم، وأما بعد استشهاده فدعاء له بالرحمة.

سهولة ألم القتل

بَيَّن النبي ﷺ أن الله يُزيل ألم القتل عن الشهيد أو يخففه، حتى لا يُحَسَّ به، إلا كما يشعر الإنسان بألم القرصة حين يقرصها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيدُ من مسِّ القتل، إلا كما يجدُ أحدُكم من مسِّ القرصة»[1].

---

(١) النسائي - واللفظ لغيره - في «الكبرى» (٤٣٦٩)، وفي «المجتبى» (٣١٦١)، الترمذي (١٦٦٨)، ابن ماجه (٢٨٠٢)، أحمد (٧٩٤٠)، ابن حبان (٤٦٥٥)، الدارمي (٢٤٠٨).

تبيين أجر الشهادة

بَيَّن الله ﷻ حال الشهداء بعد خروجهم من الدنيا، وأنهم في حياة أخرى يعيشونها غير هذه الحياة، وأن رزق ربهم يجري عليهم، وأنهم مسرورون بما هم فيه من رضا ربهم عنهم، وبالنعيم الذي أقامهم فيه، فقال ﷻ عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩- ١٧١].

وعن مسروق قال: «سألنا عبد الله بن مسعود ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا!؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن تُردَّ أرواحُنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(١).

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما أحدٌ يدخل الجنة، يحبُّ أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة!**»(٢).

---

(١) مسلم - واللفظ له - (١٨٨٧)، الترمذي (٣٠١١)، ابن ماجه (٢٨٠١)، عبد الرزاق (٩٥٥٤)، الدارمي (٢٤١٠)، الطبراني في «الكبير» (٩٠٢٣)، البيهقي في «الشعب» (٤٢٤٢).

(٢) البخاري (٢٦٦٢)، مسلم (١٨٧٧)، أحمد (١٢٠٢٢، ١٢٧٩٤)، أبو يعلى (٣٠٥٦)، ابن حبان (٤٦٦٢).

يشفع في سبعين

وبشر النبي ﷺ الشهيد قبل أن يُستشهد، بأنه بفضل استشهاده سوف يقبل الله منه الشفاعة في عدد من أقاربه، يصل هذا العدد إلى سبعين، ممن لا تبلغ بهم أعمالهم إلى الجنة، وممن قعدت بهم ذنوبهم، وكادت أن تسجنهم في النار، قال النبي ﷺ: «**يشفع الشهيدُ في سبعين من أهل بيته**»(١).

فيستشعر الشهيد - قبل استشهاده - وهو في الدنيا هذا المعنى، فيسابق إلى الشهادة وهو في ميدان المعركة، مذكرًا نفسه أنه سوف يجمعه الله ﷻ في الجنة بأحبابه، ممن سلفوا وممن هم على الأثر، وتهتف روحه بما هتفت به روح ذلكم الشهيد قائلة:

اخي إن نمُتْ نَلقَ احبابَنا ... فروضاتُ ربّي اعِدَّتْ لنَا

واطيارُها رفرفتْ حولنَا ... فطوبى لنا في ديار الخلودْ

حياء من عالم الملكوت

ومن أخلاقيات النبي ﷺ مع الشهداء، أنه يتحدث عنهم بعد استشهادهم، وينقل لمن معه صورة مما رآه، مما أكرمهم الله به من الحور العين، فيُعرض عن النظر إلى الحوراء إكرامًا للشهيد! ومن ذلك ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم يوم خيبر، عن الراعي الأسود رضي الله عنه.

فعن ابن إسحاق قال: (تقدم الراعي الأسود إلى ذلك الحصن، ليقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فأُتِي به رسول الله ﷺ، فوُضع خلفه وسُجِّي بشملة كانت عليه، فالتفت إليه رسول الله ﷺ - ومعه نفر من أصحابه - ثم أعرض عنه! فقالوا: يا رسول الله لم أعرضت عنه؟ قال: «**إن معه الآن زوجته من الحور العين!**»)(٢).

---

(١) أبو داود (٢٥٢٢)، ابن حبان (٤٦٦٠)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ١٦٤).

(٢) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٣١٦)، «الاستيعاب» (جـ١ صـ٨٥،٨٦).

يجمع بين المتصافيين

ومن أخلاقيات النبي ﷺ في الحروب مع الشهداء، أنه كان حينما يعلم أن اثنين منهما كانت روحاهما مرتبطتين برباط وثيق من المحبة، كان يجمع بينهما في الدفن! ومن ذلك ما أمر النبي ﷺ أصحابه ﵃ أن يصنعوه مع عبد الله بن عمرو وعمرو بن الجموح الأنصاريين، فقد (أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بعبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح قتيلين، فقال: «ادفنوهما في قبر واحد، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا!»)[1].

❑ ❑ ❑

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١٦٥٣، ٣٦٧٥٧).

الفصل الثاني

أخلاقياتُ المسلمين مع أسَر الشهداء

لم ينس الإسلام - بعد انقضاء المعركة - أن يجبر قلوب أسر الشهداء، وأن يكون بهم رحيمًا، وأن يسوق لهم ما يصبرهم على فراق شهيدهم، ويطمئنهم على حاله بعد الشهادة، فقد حث المسلمين على ذلك كله، وأمرهم أن يقوموا بصنع الطعام وتقديمه لأسر الشهداء، وأن يكونوا لهم أوفياء مهما طال الزمن.

الرحمة بأهل الشهداء

من الأخلاقيات الحربية الثابتة في سيرة الحبيب ﷺ، أن يرحم المسلمون أهل الشهداء وأسرهم، وأن يواسوهم ويصبِّروهم، وكيف لا والشهداء قد بذلوا أغلى ما عندهم، في سبيل الدفاع عن دين المسلمين، والأفراد والجماعات والحرمات والمقدسات.

ومن هذا النوع من الرحمة، ما وقع من النبي ﷺ في غزوة أحد، حين قتل المشركون حمزة بن عبد المطلب ومثَّلوا بجسمه، وأقبلت أخته صفية ﵂ لتراه، فأرسل النبي ﷺ إليها ابنها الزبير ﵁ ليردَّها، حتى لا تتأثر بهذا المشهد الموجع، فلما علم أنها صابرة محتسبة سمح لها برؤيته.

قال ابن إسحاق: (وقد أقبلت صفية بنت عبدالمطلب لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: القَها فأرجعها لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أمَّه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم وقد بلغني

أن قد مُثِّل بأخي وذلك في الله؟ فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ ولأصبرن إن شاء الله، فلما جاء الزبير إلى رسول الله فأخبره بذلك، قال: «خل سبيلها»، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن)[1].

يبشرُهم بما لقِيَه صاحبُهم

ومن هذه الأخلاقيات الكريمة، تبشير أسر الشهداء بما لقيه صاحبهم من نعيم وكرامة، حتى يعمّهم الفرح ويغشاهم السرور، وحتى يحسُّوا بأنه في مكان أحسنَ مما فيه أهل الدنيا، ومن ذلك ما وقع من النبي ﷺ مع جابر بن عبد الله رضي الله عنه، لما استشهد أبوه رضي الله عنه في غزوة أحد، فرآه النبي ﷺ حزينًا، فبشره بما كان مع أبيه.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد، لقيني رسول الله ﷺ فقال: «يا جابر مالي أراك منكسرا!؟»، قال: قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي اللهُ به أباك؟»، قال: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحًا! فقال: يا عبدي تمنَّ علي أعطك، قال: يا رب تُحْيِيني فأقتل فيك ثانية! فقال الرب: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب فأبلغ من ورائي، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]»).

يطمئنُ أسرَهم بثبوتِ الأجر

ومن هذه الأخلاقيات أن النبي ﷺ بيَّن منزلة من أصابه سيفُ نفسه أو رمحُه بدون قصد، وأن هذا لا يغض ولا يقدح في كونه شهيدًا، ولا يقلل من أجره عند الله

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٧٢)، «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٤٧)، «الإصابة» (جـ٧ صـ٧٤٤).

ﷺ، ولتصْغ إلى هذا الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وصاحبه سلمة بن الأكوع ﷺ، حين رجع ذباب سيف أخيه عامر ﷺ إليه فتسبب في موته، فزعم بعضهم أن عمله قد حبط.

عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: (... لما تصافَّ القوم، كان سيف عامر قصيرًا، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذبابُ سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه! قال: فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي، قال: «ما لك؟»، قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامرًا حبط عمله! قال النبي ﷺ: «كذب من قاله، إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد، قلَّ عربي مشى بها مثله!»)[1].

صُنع الطعام لأسَرهم

ومن الأخلاقيات العالية في الحروب في سيرة النبي ﷺ، أن الإسلام يكلف المسلمين بإعداد الطعام وتقديمه لأهل الشهداء، لما هم فيه من حزن واشتغال، وحتى يشجعوهم على تناول الطعام، وليُحس أهل الشهيد أنه إن كان الشهيد قد فارقهم، وقد انقطعت عنهم خدماته التي كان يؤديها لهم، فها هم إخوانهم المسلمون جميعًا يقفون بجوارهم، ويؤدون لهم جزءًا من حقهم، وحق شهيدهم على المسلمين.

فعن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: (لما جاء نعي جعفر حين قتل، قال النبي ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم أمر يشغلهم»، أو «أتاهم ما يشغلهم»)[2].

قال العلامة أبوبكر الجزائري - أثناء حديثه عن الفوائد والدروس المستنبطة

---

(١) البخاري - واللفظ له - (٣٩٦٠)، مسلم (١٨٠٢)، أحمد (جـ٤ صـ٤٧)، الطبراني في «الكبير» (٦٢٩٤).

(٢) أبو داود (٣١٣٢)، ابن ماجه (١٦١٠)، أحمد - واللفظ له - (١٧٥١)، الحاكم (١٣٧٧)، أبو يعلى (٦٨٠١)، الطبراني (١٤٧٢)، البيهقي في «السنن» (٦٨٨٨).

من غزوة مؤتة -: «مشروعية صنع الطعام لأهل الميت، لانشغالهم بالمصيبة، وحزنهم على فقيدهم، وأن أول طعام صنع لهذا الغرض هو ما صنعه الرسول ﷺ لآل جعفر، فكان سنة قولية وعملية»[١].

ولا يقف العون والمساعدة عند الطعام والشراب، بل ويشمل قضاءَ جميع مصالحهم، والاهتمامَ بشؤونهم، وخاصة الأولاد من تربية ورعاية، وتعويض لما فاتهم من عطف وحنان، ولتنظر إلى هذا المشهد الرائع، الذي يفيض عطفًا، ويقطر حنانًا، ويبين وفاءَ هذه الأمة ووفاء قادتها.

(لما جاء النبيَّ ﷺ خبرُ قتل زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ﭫ خرج إلى الناس، وترك أسماء[٢] حتى أفاضت من عَبرتها، ثم أتاها فعزاها، وقال: «**ادعي لي بني أخي**»، قال: فجاءت بثلاثة بنين كأنهم أفراخ! وقالت: فدعا الحلاقَ فحلق رءوسهم، فقال: «**أما محمد فشبيه عمِّنا أبي طالب، وأما عونُ الله فشبيه خلقي وخلقي**»، وأما عبد الله فأخذ بيده فشالها، ثم قال: «**اللهم بارك في صفقة يمينه**»، قال: فجعلت أمُّهم تفرح لهم، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أتخشين عليهم الضيعة، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة!؟**»)[٣].

الوفاء لهم مستمر

وهذا الوفاء والإكرام الذي حظي به أهل الشهداء في المجتمع الإسلامي، لم تفتر حرارته بمُضي الوقت، بل زادته الأعوام تثبيتًا وتمكنًا، فكما أن الشهداء ترفرف

---

(١) «هذا الحبيب محمد» (صـ٣٠٣).

(٢) هي أسماء بنت عميس، زوج جعفر بن أبي طالب، وأم أولاده، وتزوجها بعده أبوبكر الصديق، ثم علي بن أبي طالب.

(٣) النسائي في «الكبرى» (٨١٦٠)، أحمد (١٧٥٠)، ابن أبي شيبة - بهذا اللفظ - (٣٦٩٧٤)، الطبراني في «الكبير» (١٤٦١).

أرواحهم حول العرش، فإن أسَرهم كانت تحتل في نفوس المسلمين أعز مكانة، وإنها لترتفع حتى تجلس على عروش القلوب!

فهذا صدِّيق الأمة أبوبكر رضي الله عنه، يداعب صغار الشهداء كأرقِّ ما تكون المداعبة، ويُجِلُّ كبارهم كأعزِّ ما يكون الإجلال، ويعرف لهم قدرهم، ويذكر فضلهم ويعلنه أمام الناس!

فقد (دخل رجل على أبي بكر الصديق، وبنتٌ لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره، يرشفها ويقبِّلها، فقال له الرجل: من هذه؟ قال: هذه بنت رجل خير مني سعد بن الربيع رضي الله عنه، وكان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرًا، واستشهد يوم أحد)[1].

وعن أم سعد بنت سعد بن الربيع (أنها دخلت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا خليفة رسول الله من هذه؟ قال: هذه بنت من هو خير مني ومنك! قال: ومن خير مني ومنك إلا رسولُ الله ﷺ!؟ قال أبو بكر: رجل قبض على عهد رسول الله، تبوأ مقعده في الجنة، وبقيتُ أنا وأنت!)[2].

❑ ❑ ❑

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٤٤)، «فتح الباري» (جـ٧ صـ٣٥٣).

(٢) الحاكم (٦٥٥٣)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ضعيف (جـ٩ صـ٣١٠).

الفصل الثالث

أخلاقيات المجاهدين مع القتلى

ومما يدل دلالة أكيدة على روائع الأخلاقيات الحربية في السيرة النبوية، أن قتلى الأعداء شملتهم هذه الأخلاقيات، فإن كان هؤلاء القتلى قبل المعركة حملوا في قلوبهم غيظًا وبُغْضًا للمسلمين، وكانوا أثناء المعركة حريصين أشد الحرص على إزهاق أرواح المسلمين، فإن المسلمين عاملوا هؤلاء القتلى معاملة حسنة، تمليها عليهم شريعتهم السمحة، فإنهم وإن كانوا أعداءهم فهم آدميون، وللآدمي - وخاصة الميت - حرمته، ثم إنهم أفضوا إلى ما قدَّموا، وأمرُهم عند ربهم في كتاب لا يضل ربهم ولا ينسى.

ومن هذه الأخلاقيات مع القتلى، أن الإسلام نهى عن التمثيل بهم، وسمح بإعطاء الكفار جثث قتلاهم، وأمر بدفن من بقي من القتلى ومواراتِه في التراب، وراعى مشاعر أهله الأحياء!

النهي عن التمثيل بالأعداء

التمثيل بالقتلى: العبث بأجسادهم بعد موتهم، من قطع الأنوف والآذان، أو بتر الأيدي والأرجل، أو بقر البطون، أو غير ذلك من الأفعال المشينة، التي تتنافى مع الكرامة الآدمية، وقد نهى النبي ﷺ قواده وجنوده عن فعل ذلك، فعن بريدة بن حصيب رضي الله عنه **أن النبي ﷺ قال: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»**[1].

---

(١) أبو داود - بهذا اللفظ - (٢٦١٣)، أحمد (٢٧٢٨)، الدارمي (٢٤٣٩)، زاد أحمد: «ولا =

وكان بعض الجاهليين يمارسون هذه الأفعال بعد انتهاء حروبهم، وقد مثل بعض كفار قريش ببعض أصحاب النبي ﷺ في غزوة أحد، ومن ذلك ما فعلته هند بنت عتبة بحمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، فقد (وقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يجدعن الآذان والآنُف! حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدمًا وقلائد! وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها[1] وحشيًا غلام جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها! فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها)[2]، (ثم علت على صخرةٍ مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحن جزيناكمْ بيوم بدرِ ... والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ما كان عن عتبةَ لي من صبرِ ... ولا أخي وعمِّه وبِكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري ... شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدري
فشكرُ وحشيٍّ عليَّ عُمْري ... حتى ترمَّ أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب فقالت:

خزيتِ في بدر وبعدَ بدرِ ... يا بنتَ وقّاعٍ عظيم الكفرِ
صبَّحكِ اللهُ غداة الفجرِ ... بالهاشميين الطوال الزُّهرِ
بكلِّ قطّاعٍ حسامٍ يفري ... حمزة ليثي وعليٌّ صقري
إذ رام شيبٌ وأبوك غدري ... فخضبا منه ضواحي النَّحر
ونذرُكِ السُّوءَ فشرُّ نذر)[3]

= أصحاب الصوامع».

(١) الخدَم: جمع خدَمة، وهي الحلقة المحكمة، والقلائد: جمع قِلادة، وهي العقد الذي يلبس في الرقبة، والقرط: ما يلبس في الأذن، والمعنى أعطتهم حُليَّها، واستعاضت عنه بما قطعته من أجسام الشهداء.

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٧٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (جـ٤ صـ١٨٧)، «فتح الباري» (جـ٧ صـ٣٥٢).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (جـ٤ صـ١٨٧، ١٨٨)، «الإصابة» (جـ٨ صـ١٤١).

وحتى بعد تمثيل الكفار ببعض أجساد الشهداء من المسلمين، فقد نهاهم الإسلام عن فعل ذلك إلا بالمثل في العدد والحجم بلا زيادة، من باب العدل والمساواة التي جاء بها هذا الدين الحنيف، والعفو مع ذلك أعلى وأفضل.

فعن ابن عباس قال: «لما وقف رسول الله ﷺ على حمزة رضي الله عنه، فنظر إلى ما به وقال: «**لولا أن تحزن النساء ما غيَّبته، ولتركته حتى يكون في حواصل الطيور، حتى يبعثه الله مما هنالك**»، قال: وأحزنه ما رأى به، فقال: «**لئن ظفرت بقريش لأمثلنَّ بثلاثين رجلًا منهم!**»، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٦- ١٢٧]، ثم أمر به فهُيِّيء إلى القبله، ثم كبر عليه تسعًا، ثم جمع إليه الشهداء، كلما أتي بشهيد وضع إلى جنبه، فصلى عليه وعلى الشهداء اثنتين وسبعين صلاة! ثم قام على أصحابه حتى واراهم، ولما نزل القرآن عفا رسول الله وتجاوز وترك المثل[1]».

منحُ الأعداءِ أجسادَ قتلاهم

ومن حسن معاملة المسلمين للقتلى، أنهم كانوا إذا غلبوا على جسد قتيل، وبذل لهم أهله أموالًا في مقابل الحصول على جسده، منحوهم جسد قتيلهم، ولم يقبلوا منهم ثمنًا! كما فعل النبي ﷺ مع بني مخزوم، فقد (سأل بنو مخزوم بن يقظة رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسد نوفل بن عبدالله بن المغيرة - وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فقتل، فغلب المسلمون على جسده - فقال رسول الله ﷺ: «**لا حاجة لنا في جسده ولا بثمنه، فخلي بينهم وبينه!**». قال ابن هشام: أعطوا رسول الله ﷺ بجسده عشرة آلاف درهم!)[2].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١١٠٥١)، وقال الهيثمي: فيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف، «مجمع الزوائد» (جـ٦ صـ١٢٠).

(٢) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٩٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (جـ١٤ صـ١٤١).

فليعرف هذا أو يراجعه في كتب السيرة من يتهمون الإسلام بما ليس فيه، ويلزقون به ما هو منه براء، ولينظروا إلى من يدفنون المسلمين وهم أحياء في مقابر جماعية! أو يفعلون بهم أفعالًا لا يمارسها العقلاء مع الحيوانات العجماوات، فضلًا عن أن يوقعوها ببني آدم، الذين كرمهم الله وفضلهم!

يا ابنَ الكرام الا تدنو فتبصرَ ما   قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا؟

حُرمة الآدمي

كان الجاهليون إذا انتهت الحرب بينهم، يقوم المنتصرون بدفن جثث قتلاهم، ويتركون جثث قتلى أعدائهم في العراء، تتناوشها سباعُ الأرض الكاسرة، وطيورُ السماء الجارحة، وكانوا يتفاخرون بذلك، ويعدُّونه من علامات القوة والعزة عندهم، ومن علامات الضعف والذل للأعداء، فهذا عنترة بن شداد يقول:

ولقد خشيتُ بأن اموتَ ولم تَدُر   للحربِ دائرة على ابْنَيْ ضَمضَمِ

الشاتِمَيْ عِرضي ولم اشتِمْهما   والناذِرَين إذا لمَ القَهُما دَمِي

إن يفعلا فلقد تَركتُ اباهُما   جَزَرَ السِّباعِ وكُلُّ نَسْرٍ قشعَمِ

وسجل مثله عبيدُ بن الأبرص إذ قال:

ولرُبَّ سَيِّدِ معشرٍ   ضَخمِ الدَسيعَةِ[1] قد رَمَينا

حتى تَركنا شِلْوَهُ   جَزَرَ السباعِ وقَد مضينا

وجاء الإسلام فشق طريقًا غير هذا الطريق، وسنَّ سننًا بخلاف تلك السنن، فأمر بمواراة قتلى الأعداء في التراب، حتى وإن تحللت الجثث، وتساقطت لحومها!

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب فطرحوا فيه، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها! فذهبوا

---

(١) ضخم الدسيعة: عظيم الخلقة والطبيعة.

يحركوه فتزايل لحمه! فأقروه[١] وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة!»[٢].

مراعاة المشاعر

ومن هذه الأخلاقيات أن راعى المسلمون مشاعر المسلم القريب من القتيل الكافر، حينما يرونه متأثرًا بما يرى ما صار إليه حال قريبه، فيخففون عنه ما يحسه، ويدعون له بالصبر والثبات، فعن عائشة (أن رسول الله ﷺ أمر بالقليب فطرحوا فيه، فوقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: **«يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا!»**، فقال أصحابه ﷺ: يا رسول الله تكلّم أقوامًا موتى!؟ فقال: **«لقد علموا أن ما وعدكم ربكم حق»**.

فلما أُمِر بهم فسحبوا عُرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يسحب إلى القليب، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أبا حذيفة، والله لكأنه ساءك ما كان في أبيك»**، فقال: والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله، ولكن إن كان حليمًا سديدًا ذا رأي، فكنت أرجو أن لا يموت حتى يهديه الله إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قالت: فدعا له رسول الله)[٣].

❑ ❑ ❑

---

(١) أقرُّوه: أبقوه مكانه.

(٢) أحمد في «المسند» (٢٦٤٠٤)، «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٧).

(٣) الحاكم في «المستدرك» (٤٩٩٥)، ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٨٨).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أخلاقيات المجاهدين مع الأسرى والسبايا

لقد عامل الإسلام الرجال المأسورين، والنساء المسبيات في الحروب، معاملة لم يُعاملوا بمثلها في تاريخ الحروب، فقد أوصى أتباعه بحسن معاملتهم، والرحمة بهم، ونهى عن قتلهم صبرًا، وعاونهم على دفع الفدية المطلوبة منهم، بل ومنَّ وعفا بدون مقابل، على الكثيرين من الرجال والنساء، الأفراد والجماعات، وهاكم غيضًا من فيض هذه الأخلاقيات.

استوصوا بهم

كان من هدي حبيبنا ﷺ أن يوصي جنوده في الحروب بإحسان معاملة الأسرى، وكان أصحابه رضي الله عنهم يبادرون إلى تنفيذ هذه الوصية، حتى إنهم كانوا يُؤثرون الأسرى على أنفسهم في الطعام والشراب وغيرهما.

حدّث ابن إسحاق - في معرض حديثه عن وقعة بدر - (أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه، وقال: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**»، قال أبو عزيز بن عمير: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءَهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها! قال: فأستحيي فأردُّها على أحدهم، فيردُّها علي ما يمسها!)[1].

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ٣٩).

الرحمة بالسبي

ومن أخلاقيات الحروب في السيرة النبوية الرحمة بالسبايا، فلا ترويع ولا تعذيب، ولا يُعرَّضن لموقف تتأذى منه قلوبهن، ومن ذلك ما حدث مع النبي ﷺ وبلال ﷺ، حين مرّ بامرأتين من السبايا على قتلى قومهما، فزجره النبي ﷺ بسبب ذلك.

عن إسحاق بن يسار قال: (لما فتح رسول الله ﷺ القموص حصن ابن أبي الحقيق، أتِي رسولُ الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى معها، فمر بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها.

فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «**اعزبوا عني هذه الشيطانة**»، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقي عليها رداؤه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، فقال رسول الله ﷺ لبلال ﷺ - حين رأى من تلك اليهودية ما رأى -: «**أنزعت منك الرحمة يا بلال، حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟**»)[1].

النهي عن قتل الصبر

ومن هذه الأخلاقيات أن الإسلام نهى أن يقتل الأسير صبرًا، بحيث يحبس بغير طعام ولا شراب حتى يموت، كما كان يفعله بعض أهل الجاهلية، بل كما يفعله الآن من لا رحمة في قلوبهم، ولا أخلاق عندهم.

عن عبيد بن تعلى قال: «غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأتي بأربعة أعلاج من العدو، فأمر بهم فقتلوا صبرًا! فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر، فوالذي نفسي بيده، لو كانت

---

(١) «تاريخ الطبري» (جـ٢ صـ١٣٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» (جـ٧ صـ٧٣٩).

دجاجة ما صبرتها، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأعتق أربع رقاب»(١).

إنه أرقُّ الناس قلبًا

وكان النبي ﷺ لو استعطفه أحد في أحد من الأسرى يعفو ويمنّ من رقة قلبه، ومن رقة قلبه أنه بعد أن قتل النضر بن الحارث - وهو من هو عداء ومحاربة الله ورسوله - بعد غزوة بدر، بلغته أبيات عن ابنته تستعطفه ليمنَّ على أبيها بعدم القتل، فأبكته الأبيات وودَّ لو بلغته الأبيات قبل أن يقتل، ولكن سبق السيف العزل.

حدث ابن عبد البر عن الواقدي قال: (ولما انصرف رسول الله ﷺ من بدر، كتبت إليه قتيلة ابنة النضر بن الحارث في أبيها - وذلك قبل إسلامها -:

هل يسمعنَّ النضرُ إن ناديتُه؟ ... بل كيف تُسمِعُ ميِّتًا لا ينطقُ؟!

ظلت سيوفُ بني أبيه تنوشُه! ... لله أرحامٌ هناك تشقَّقُ!

صبرًا يُقادُ إلى المنيَّةِ مُتعَبًا ... رَسْفَ المُقيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ!

أمحمدٌ ولدتْك خيرُ نجيبةٍ ... من قومِها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ

ما كان ضرَّك لو مننتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المُحنَقُ

النضرُ أقربُ من أسَرْتَ قرابةً ... وأحقُّهم إن كان عتقٌ يعتقُ

فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، بكى حتى أخضلت الدموع لحيته! وقال: «لو بلغني شِعْرُها قبل أن أقتله لعفوت عنه!»)(٢).

معاونة السبايا

لقد بلغت أخلاقيات المسلمين مع السبايا مبلغًا عظيمًا، فقد أعانوهن على

---

(١) أبو داود (٢٦٨٧)، أحمد (٢٣٦٣٨)، ابن حبان - واللفظ لها - (٥٦١٠)، الطبراني في «الكبير» (٤٠٠٢)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٧١).

(٢) «الاستيعاب» (جـ٤ صـ١١٠٤، ١١٠٥)، «الإصابة» (جـ٨ صـ٧٩، ٨٠).

التخلص من الرق، وربما أعطوهن أكثر من ذلك، مما لم يرد على خواطرهن، كما حدث من النبي ﷺ مع ابنة سيد يهود بني المصطلق، فقد أتته مستعينة به على دفع ما عليها، فأكرمها النبي ﷺ وتزوجها، وكان ذلك سببًا في عتق جميع قومها رجالًا ونساء!

فعن عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه! فأتت رسولَ الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها! وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت.

فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: **«فهل لك في خير من ذلك؟»**، قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«أقضي كتابتك وأتزوجك»**، قالت: نعم يا رسول الله، قال: **«قد فعلت»**.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله، فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتِق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق! فما أعلم امرأة كانت أعظمَ بركة على قومِها منها)[1].

يمُنُّ على أبي عزة

وها هو النبي الكريم ﷺ يسأله الأسير أن يتفضل عليه بعتقه، لأنه لا يملك

---

(١) أحمد (٢٦٤٠٨)، أبو داود (٣٩٣١)، الحاكم (٦٧٨١)، ابن حبان (٤٠٥٤)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٧٤).

فدية لفكاك نفسه، فيتفضل النبي ﷺ عليه بالعتق، فيلهج لسانه بمدح النبي والثناء عليه شعرًا.

قال ابن اسحاق: «وأبو عزة الجمحي كان محتاجًا ذا بنات، فكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليَّ، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه ألا يظاهر أحدًا، فقال أبو عزة في ذلك يمدح رسول الله ﷺ، ويذكر فضله في قومه:

من مُبْلغٌ عنّي الرسولَ محمدًا ... بأنك حقٌّ والمليكُ حميدُ؟

وأنت امرؤٌ تدعو إلى الحقِّ والهُدى ... عليك من اللهِ العظيمِ شهيدُ

وأنت امرؤٌ بُوِّئْتَ فينا مَبَاءةً ... لها درجاتٌ سهلةٌ وصعودُ

فإنك من حاربتَه لمحارَبٌ ... شقيٌّ ومن سالمتَه لسعيدُ»[1]

يمُنُّ على صِهره ويردُّ فِديته

وممن نالته أخلاقيات المسلمين في الحروب، صهر النبي ﷺ وزوج ابنته زينب ﵂، فلما وقع في الأسر، وأرسلت السيدة زينب قلادتها في فداءه، مع من أرسل من أهل مكة، عرض النبي ﷺ - مجرد عرض - على أصحابه ﵃ إطلاقه وردّ القلادة[2] إن أرادوا ففعلوا.

عن عائشة قالت: (لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: **«إن رأيتم أن تطلقوا لها**

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٣ صـ٢١٢).

(٢) إنها قلادة ابنة تلك المرأة، التي أنفقت أموالها على نبي هذه الأمة، لتبليغ دعوة الله، وهي السيدة خديجة بنت خويلد.

أسيرها وتردوا عليها الذي لها»، فقالوا: نعم...)[1].

أكرمُ الخلق وبنتُ كريم العرب

إن كان حاتمُ الطائيُّ نال في الجاهلية بجدارة لقبَ (أكرمُ العرب)، وكان يقول للواحد من خدمه وعبيده:

اوقدْ فإن الليلَ ليلٌ قَرُّ والريحُ يا واقدُ ريحٌ صِرُّ
علَّ يرى نارَك من يمُرُّ إن جلبتْ ضيفًا فأنت حُرُّ

فإن النبيَّ محمدًا ﷺ هو أكرم الإنس والجن، بل أكرم الخلق على الإطلاق، وأشرفهم في الدنيا والآخرة:

لقد أكرم اللهُ النبيَّ محمدا فأكرمُ خلق اللهِ في الناس أحمدُ
وشقَّ له من اسمِه ليُجِلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

ولقد نال كرمَ النبيِّ ﷺ ابنُ حاتم وابنتُه كما نال غيرهما، وهذه ابنته تقع في سبي المسلمين، مع من وقع من قومها، فيمُنُّ عليها، ويكرمها مدة إقامتها في المدينة، ولا يسمح لها بالسفر حتى تجد من قومها رفقة مأمونة، تحافظ عليها وتبلغ بها أخاها، ويعطيها كسوة تلبسها، ويمنحها راحلة تركبها، ويهبها نفقة تتبلغ بها، وكأنها من كرام الأضياف أو أعزة الجيران، لا من سبي الحرب:

ونكرمُ جارَنا ما دام فينا ونتبعُه الكرامة حيثُ مالا

ولتقرأ - وفقك الله - هذه الواقعة التي روتها بعض كتب السنة، وقصتها كتب السيرة: (... فجُعلت بنتُ حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يحبسن فيها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه - وكانت امرأة جزلة -، فقالت: يا رسول الله

---

(١) أبو داود (٢٦٩٢)، الحاكم في «المستدرك» (٥٠٣٧، ٦٨٤٠)، البيهقي في «السنن» (١٢٦٢٨)، «الاستيعاب» (جـ٤ صـ١٤٠١).

هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، قال: «من وافدك؟»، قالت: عدي بن حاتم، قال: «الفارُّ من الله ورسوله!؟»، قالت: ثم مضى رسول الله وتركني.

حتى إذا كان من الغد مر بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، قالت: حتى إذا كان بعد الغد مر بي، وقد يئست منه، فأشار إلي رجل من خلفه: أن قومي فكلميه، قالت: فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي منَّ الله عليك، فقال: «**قد فعلت، فلا تعجلي بخروج، حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني**».

فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه، فقيل: علي بن أبي طالب، وأقمت حتى قدم ركب من بليّ أو قضاعة، قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسولَ الله فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت: فكساني رسول الله وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام)[١].

يعفو عن الثمانين

وها هو ﷺ لا يعفو ويمنُّ على الأفراد فحسب، بل يمنُّ على العشرات دفعة واحدة، كما فعل مع الذين تسللوا قبيل صلح الحديبية، ليقضوا عليه ﷺ وعلى أصحابه ﭫ! فعن أنس بن مالك ﭬ: (أن ثمانين رجلًا من أهل مكة، هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غِرة النبي وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم[٢]! فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ...﴾ [الفتح:٢٤]).

---

(١) أحمد (جـ٤ صـ ٣٧٨)، الطبراني في «الأوسط» (٦٦١٤)، «الطبقات الكبرى» (جـ١ صـ ٣٢٢)، «سيرة ابن هشام» - واللفظ له - (جـ٥ صـ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) استحياهم: استبقاهم أحياء ولم يقتلهم.

يمُنّ على هوازن

وإن كان النبي ﷺ عفا عن عشرات ممن تسللوا لقتله هو وأصحابه، فإنه لم يتردد في أن يعتق قبيلة كاملة وقعت في أسره، بعد أن قاتلته وكانت حريصة على محوه من فوق هذه البسيطة، ألا وهي قبيلة هوازن، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

قال: وقام رجل من هوازن، فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا مالحنا الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

فقال لهم: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم»**.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: **«وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»**، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: **«أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسان ست فرائض، من أول سبي أصيبُه، فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم»**)[1].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٥٣٠٤)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ٧٥)، «الطبقات الكبرى» =

وتمعَّن أيها القاريء الكريم، لما كان الأسرى والسبي قد وزِّع على المسلمين بمختلف فصائلهم، ولم يكن مع النبي ﷺ منهم إلا القليل، وكان أمر عتق الأسرى أو الاحتفاظ بهم من حق الصحابة، دل النبي ﷺ أهل الأسرى على طريقة لتخليص أسراهم، ألا وهي طريقة الاستشفاع بالنبي علانية حتى يؤثروا في قلوب الصحابة، وبدأ النبي ﷺ بنفسه، فمَنّ على من تحت يده وأيدي أقاربه، ثم وعد من بخلت نفسه بالعتق، بأن يعطيه - إن أعتق - مقابلًا لذلك فيما بعد!

لا ينسَون الجميل

وقد علَّم النبي ﷺ جنوده نبيل الأخلاق وكريمها، ومنها أن المرء لا ينسى جميلًا صُنع فيه، أو معروفًا قدم إليه، مهما مرّ عليه من الزمن، فكان الصحابي إذا ما رأى أحدًا في الأسرى ممن أسدى إليه جميلًا، يبادر إلى النبي ﷺ ليشفع فيه، فيرد النبي له حريته بل أهله وأمواله، وهذا ما حدث مع الصحابي ثابت بن قيس رضي الله عنه والزبير بن باطا، حين أُسِر مع من أسر من بني قريظة.

قال ابن إسحاق: (كان الزبير بن باطا قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بُعاث، أخذه فجزَّ ناصيته ثم خلى سبيله، فجاءه ثابت - وهو شيخ كبير- فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك!؟ قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم مجازي الكريم.

ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه قد كانت للزبير علي مِنة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهَبْ لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: «**هو لك**»، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته

= (جـ١ صـ١١٤، ١١٥)، «الاستيعاب» (جـ٢ صـ ٥٢٠).

وولده، قال: «هم لك»، فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هب لي ماله، قال: «هو لك»، فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك فهو لك.

قال الزبير لثابت: مافعل الذي كان وجهه مرآة صينية، يتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان - يعني: بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة -؟ قال: ذهبوا قتلوا.

قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو حتى ألقى الأحبة! فقدمه ثابت فضرب عنقه)[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) «سيرة ابن هشام» (جـ٤ صـ٢٠٢، ٢٠٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (جـ١٤ صـ ١٤١)، وفيه قال له: برئتْ ذمتك، ولن أصُبَّ فيها دلوا أبدًا - يعني النخل - فألحِقني بهم، فأبى أن يقتله، فقتله غيره.

الفَصْلُ الخَامِسُ

أخلاقيات المجاهدين في الغنائم

الغنائم ما يخلفه الجيش المنهزم في الحرب، من أموال وأسلحة وغيرها، بعد أن يُقتل أو يفر مدبرًا أو يقع في براثن الأسر، ولم يكن من حق الأنبياء السابقين إذا دخلوا معركة أن يأخذوا الغنائم، أو أن يعطوها لأقوامهم وجنودهم، (قال العلماء: كانت غنائم من قبلنا يجمعونها، ثم تأتي نار من السماء فتأكلها)[1]، وهذه بعض أخلاقيات الغنائم وأحكامها.

أحِلت لي الغنائم

لما جاء نبينا محمد ﷺ جعل الله ﷻ أخذ الغنائم خاصية من خصائصه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعطيتُ خمسًا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلّ، وأحِلت لي الغنائم ، وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»**[2].

إزالة الخلاف

لما لم تكن حيازة الغنائم والحصول عليها من خصائص الأنبياء السابقين، كان أصحاب النبي ﷺ هم أول من شهدوا إباحة أخذ غنائم الأعداء على أساس ديني،

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (جـ٥ صـ٣).

(٢) البخاري (٤٢٧)، مسلم (٥٢١)، أحمد (١٤٣٠٣)، ابن أبي شيبة (٣١٦٤٢)، ابن حبان (٦٣٩٨)، الدارمي (١٣٨٩)، البيهقي في «السنن» (٩٥٨).

ولكن كيف تقسم ولم تنزل في بداية الأمر آيات تشرح طريقة التقسيم، فظن كل فصيل من فصائل جيش المسلمين في غزوة بدر، أنه أولى من غيره بأخذ أكبرقدر منها، وكان اختلافهم بسبب ما يعانونه من فقر شديد، فأنزل الله ﷻ قرآنا يتولى فيه قسمة الغنائم.

قال أبو بكر الجزائري: «أمر القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ - بعد انجلاء الموقف بقتل المشركين وأسرهم - أمر بجمع الغنائم فجمعت، واختلف الأصحاب المجاهدون ﷺ فيمن هو الأحق بها؟ فقال الجامعون لها: هي لنا، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين وطلبهم: والله لولا نحن ما أصبتموها، إذ نحن الذين شغلنا العدو عنكم حتى أصبتم الذي أصبتم.

وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ في العريش خشية أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم بأحق بها منا، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١] وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسمًا للخلاف، ثم أنزل قسمتها في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١] وبهذا حسم الخلاف وانتهى نهائيًا، والحمد لله رب العالمين»[(١)].

وقال الشيخ الغزالي: «إن الجوع والعُري حينما يطول أمدهما، يتركان في النفوس ندوبًا سيئة، ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح، على أن هذه الأزمات إن أحرجت العامة، وأهاجتهم إلى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذراريهم بحرص ومجاهرة، فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا، وأن يكتموا أحاسيس الفاقة المُلِحَّة، فلا يتنازعوا على شيء! وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسلمين، وافتتح به

---

(١) «هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب» (صـ١٧٧).

السورة التي تحدثت عن القتال في بدر»[١].

نزع ما في الصدور

ومن الأخلاقيات الحربية التي علمها النبي ﷺ لأمته في أمر الغنائم، أن تنزع من القلوب كلَّ الإحن التي قد يشعر بها بعض الجنود في التقسيم، وخاصة إذا حصل في التقسيم نوع من مراعاة ظروف البعض دون البعض، حتى لا يتعايش المسلمون في المجتمع ويكون بينهم شيء من التباغض.

وقد وقع هذا الأمر مع فريق الأنصار، حينما خص النبي ﷺ ببعض العطايا من الغنائم بعض قريش وبعض العرب دون الأنصار، فحمل الأنصار في نفوسهم من الموقف، فجمعهم النبي ﷺ فأزال ما في نفوسهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.

فدخل عليه سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء! قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟»، قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي، وما أنا؟ قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد، فقال: قد

(١) «فقه السيرة للغزالي» (صـ ٢٥٣).

اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: «يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وَجْدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلالًا فهداكم الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟»، قالوا: بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟»، قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم لقلتم - فلصدقتم وصدقتم -: أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك! ومخذولًا فنصرناك! وطريدًا فآويناك! وعائلًا فأغنيناك! أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم!؟

فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار! ولو سلك الناس شِعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله وتفرقنا)[1].

قال الدكتور البوطي: «اختصَّ النبيُّ ﷺ أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة الأصلية بين المقاتلين! وهذا العمل منه من أهم الأدلة التي استدل بها عامة الأئمة والفقهاء على أنه يجوز للإمام أن يزيد في عطاء من يتألف قلوبهم، بل يجب عليه ذلك عندما تدعو

---

(١) رواه أحمد - وهذا لفظه - (١١٧٤٨)، أبو يعلى (١٣٥٨)، ورواه - عن أنس - البخاري (٤٠٧٦)، مسلم (١٠٥٩)، الترمذي (٣٩٠١)، ابن حبان (٧٢٦٨)، بألفاظ متقاربة، وفي بعضها اختصار.

إليه المصلحة، ولامانع من أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم.

ومن هنا كان لهؤلاء الناس سهم خاص باسمهم في الزكاة، يجتمع تحت يد الحاكم، ليعطي منه - كلما دعت الحاجة - لمن يرى أن المصلحة الإسلامية تدعو إلى تألف قلوبهم»[1].

وكم في هذا الموقف المؤثر من درس؟ انظر - أكرمك الله - إلى تصرف النبي ﷺ، لما نقل سعد إليه موقف قومه سأله النبي ﷺ: **«فأين أنت من ذلك يا سعد؟»** ليتعرف النبي على رأي زعيمهم، وليعلم إلى أين بلغ صدى هذا الموقف، ثم انظر إلى رد سعد: «يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي»، لا كذب ولا مواربة بين الأحبة، وإنما الصدق والصراحة!

ثم انظر إلى تذكير النبي ﷺ للأنصار رضي الله عنهم بنعمة الله عليهم بهذا الدين، ونعمة احتضانهم لأعظم نبي، ولما لم يردُّوا على نبيهم أدبًا واحترامًا، واعترافًا بما قال وتسليمًا، ذكر النبي ﷺ ما لهم من عظيم فضل وعالي قدر وثابت حب، ثم بيَّن لهم حقارة الدنيا بجوار ما أكرمهم الله ﷻ به، ثم ختم الحديث بالدعاء لهم ولذريتهم، فلم يستغرق النبي ﷺ سوى لحظات، حتى فاضت العيون بدموعها، بعد أن حُركت القلوب بإيمانها، وإنَّ حقًا على كل مسلم يسمع هذا الحديث أو يقرؤه، أن تفيض دموعه حبًا وشوقًا، لهذا القائد الموفق الحكيم، ولهؤلاء الأنصار الأبرار الأطهار، وأن تهتف روحه بما هتفت به روح شاعرهم حسان بن ثابت قائلًا:

سمَّاهُمُ اللهُ انصارًا لِنصرهِمُ ... دينَ الهُدى وعَوانُ الحربِ تَستَعِرُ

وجاهدوا في سبيلِ اللهِ واعترفوا ... لِلنائباتِ فما خاموا وما ضجِروا

لا أريد مالاً

ومن أخلاقيات الحروب في سيرة الحبيب المحبوب ﷺ - وخاصة في شأن

---

(١) «فقه السيرة للبوطي» (صـ ٢٩٣، ٢٩٤).

الغنائم وتوزيعها - ما وقع من تجمع أصحاب النبي ﷺ حوله بعد غزوة حنين، وهم يطلبون إليه أن يوزع ما فتح الله به عليهم، حتى اضطر إلى الوقوف بجوار شجرة السَّمُر، فاختطفت الشجرة رداءه! حتى قال لهم: «يا أيها الناس ردُّوا عليَّ ردائي»!

فقد (... ركب النبي ﷺ راحلته، وتعلق به الناس يقولون: اقسم علينا فيأنا بيننا، حتى ألجؤوه إلى سمرة فخطفت رداءه! فقال: «**يا أيها الناس ردوا علي ردائي، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعَمٌ لقسمته بينكم، ثم لا تلقوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذوبًا**».

ثم دنا من بعيره فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطى ثم رفعها، فقال: «**يا أيها الناس، ليس لي من هذا الفيء إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فردوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارًا ونارًا وشنارًا**»)[1].

لو نظر أعداء الإسلام إلى هذا المشهد، لقالوا فيه ما ترشح به أفئدتهم على ألسنتهم من بغض وكراهية! ولوصفوا النبي ﷺ بالعجز وضعف الشخصية، ولوصفوا الصحابة بالتكالب على حطام الدنيا، وعدم احترامهم لنبيهم، والعجلة وعدم الصبر!

ولو علم هؤلاء سعادة الرجل من الصحابة وتشرفه، حينما يناوله النبي ﷺ ولو درهمًا واحدًا يعود به، فيُسأل عنه فيخبر أن النبي ﷺ هو الذي أعطاه إياه، لعذروهم ولما طالت ألسنتهم، فإن أعطاهم قليلًا فإنه يكون عندعقولهم أغلى، وعلى قلوبهم ألذ من جبال الدنيا ذهبًا وأحلى!

---

(١) البخاري (٢٦٦٦)، النسائي في «الكبرى» (٦٥١٥)، وفي «المجتبى» (٣٦٨٨)، أحمد - وهذا لفظه - (٦٧٢٩)، عبد الرزاق (٩٤٩٧).

قليلٌ ما أتيتَ به ولكن قليلُك لا يُقالُ له قليلُ

ثم فكر في تواضع النبي ﷺ مع أصحابه وحسن معاملته لهم، ثم كيف طمأنهم بأن شيئًا عنده لا يضيع، وأنه لا يريد لنفسه شيئًا من المال، وعلمهم بالوسيلة المتاحة درسًا في الأمانة وذكرهم بالآخرة.

حُرمة الغُلول

ومن أخلاقيات المسلمين في الحروب ألا يأخذ أحد شيئًا من الغنائم قبل توزيعها، فهذا لا يحل له، وهو الذي سماه الله الغلول، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٦١]، وقد جاء النهي عنه في سنة النبي ﷺ صريحًا، لأنه مال عام، لا يخص أحدًا دون أحد، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسقيَ ماءَه زرعَ غيره، ولا أن يبتاع مغنمًا حتى يقسم، ولا أن يلبس ثوبًا من فيء المسلمين، حتى إذا أخلقه رده فيه! ولا يركب دابة من فيء المسلمين، حتى إذا أعجفها ردها فيه»**[1].

وأخبر النبي ﷺ أن هذا الغلول لا تؤجل عقوبته إلى الآخرة، وإنما تعجل العقوبة لصاحبه في القبر قبل الآخرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهبًا ولا ورقًا، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عبدًا له، وهبه له رجل من جذام يدعى: رفاعة بن زيد، من بني الضبيب.

فلما نزلنا الوادي، قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله، فرُمي بسهم فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئًا له الشهادة يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: **«كلا، والذي نفس**

---

(١) أبو داود (٢٧٠٨)، أحمد - واللفظ له - (جـ٤ صـ١٠٨)، ابن أبي شيبة (٣٢٥٦٥)، الطبراني في «الكبير» (٤٤٨٢)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ١٢٤).

محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه نارًا، أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم»، قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار!»)[1].

لا أملكه

ومن الأخلاقيات الحربية، أن علم النبيُّ ﷺ أصحابه ﷺ أن المال العام لا يملكه أحد، حتى ولو كان هو القائد نفسه! فهل القائد إلا فرد من أفراد المجتمع؟ وهو لا يملك إلا جزءًا ضئيلًا من هذا المال، فكيف تخوِّل لبعض المسؤولين نفوسُهم أن يتصرفوا في المال العام بغير وجه حق؟ وكيف يسمح بعض العامة لأنفسهم أن يستهلكوا الأموال العامة ويستخدموها، فضلًا عن أن يتلفوها!؟

أما جنود النبي ﷺ وأصحابه فقد حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، حتى إن الفاروق عمر ﷺ - بعد أن صار للمؤمنين أميرًا - استشعر أن الله سائله عن عثور الدابة، إذا ما عثرت في أي طريق من طرق أي: قطر من أقطار إمارته: كيف لم تمهد طريقها وتصلح سكتها!

ولا غرابة في هذا إذا تذكرنا أن معلمه هو النبي ﷺ، وهو الذي جاءه جندي في جيشه، وقد أصيب ظهر بعيره بالدَّبَر، فأخذ من الغنيمة خيطًا، ليخيط بها البرذعة التي يضعها على ظهر بعيره، فلم يأذن له إلا بمقدار ما يملك - كما يملك غيره - من نصيب في هذا الخيط!

فقد (جاء رجل من الأنصار بكبَّة من خيط شعر، فقال: يا رسول الله أخذت هذه الكبة، أعمل بها برذعة بعير لي دبر، فقال ﷺ: «أما نصيبي منها فلك!»، قال: أما

---

(١) البخاري (٦٣٢٩)، مسلم - وهذا لفظه - (١١٥)، مالك في «الموطأ» (٩٨٠)، أبو داود (٢٧١١)، النسائي في «الكبرى» (٨٧٦٣)، وفي «المجتبى» (٣٨٢٧)، ابن حبان (٤٨٥٢)، الحاكم (٤٣٤٧)، البيهقي في «السنن» (جـ٩ صـ ١٠٠).

إذا بلغت هذا، فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده!)[١].

المراقبة والأمانة

وتعلم أصحابُ النبي ﷺ من نبيهم المراقبة والأمانة، فإذا لم يطلع عليهم أحد من البشر، فإن الله ﷻ ناظر إليهم ومطلع عليهم، وقد استشعروا وقوفهم بين يدي الله يوم القيامة للسؤال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥- ٢٦]، عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: «جاء عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، فقالت له أمرأته: قد علمنا أنك قاتلت، فهل جئتنا بشيء؟ قال: هذه إبرة خِيطي بها ثيابَك! قال: فبعث النبي ﷺ مناديًا: ألا لا يغُلنَّ رجلٌ إبرة فما دونها! فقال عقيل رضي الله عنه لامرأته: ما أرى إبرتك إلا قد فاتتك!»[٢].

الحقُّ أحقُّ أن يُتبَع

ومن الأخلاقيات التي تعلمها جنودُ النبيِّ ﷺ منه في الحروب، ألا يأخذ أحدٌ ثمرة مجهودِ غيره، وخاصة إذا كان بسيف الحياء، وكلٌّ أولى بحقه، والحقُّ أحقُّ أن يُتبع، فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: (رأيت رجلين يقتتلان مسلم ومشرك، وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبَه المشرك على المسلم، فأتيته فضربت يده فقطعتها، واعتنقني بيده الأخرى، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت، فلولا أن الدم نزفه لقتلني، فسقط فضربته فقتلته، وأجهضني عنه القتال، ومر به رجل من أهل مكة فسلبه.

فلما فرغنا ووضعت الحربُ أوزارَها، قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلًا فسلبه له»، قلت: يا رسول الله قد قتلت قتيلًا وأسلِب، فأجهضني عنه القتال، فلا أدري

---

(١) أبو داود (٢٦٩٤)، أحمد (٦٧٢٩)، البيهقي في «السنن» (١٢٧١٢).

(٢) عبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٩٤)، ابن سعد في «الطبقات» (جـ٤ صـ٤٣)، الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (جـ١ صـ٢١٩).

من استلبه؟ فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله أنا سلبته فأرضِه عني من سلبه، قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: تعمِد إلى أسدٍ من أسْدِ الله، يقاتل عن الله تقاسمه سلبه!؟ اردد عليه سلبَ قتيله، قال رسول الله ﷺ: «صدق فاردد عليه سلب قتيله»، قال أبو قتادة: فأخذته منه فبعته، فاشتريت بثمنه مخرفًا[1] بالمدينة، وإنه لأول مال اعتقدته)[2].

❑ ❑ ❑

(١) المخرفة والخُرفة: ما يُجتنى في الخريف من الفواكه والثمار.

(٢) البخاري (٢٩٧٣، ٤٠٦٦)، مسلم (١٧٥١)، أبو داود (٢٧١٧)، مالك في «الموطأ» (٩٧٣)، ابن أبي شيبة (٣٣٠٩٠)، البيهقي في «السنن (١٢٥٤١).

الخاتمة

(نتائج وتوصيات)

وبعد هذه الجولةِ الميدانية، في الجوانبِ الأخلاقيةِ الحربية، في سيرةِ هذا النبيِّ العظيم ﷺ، تتبيَّنُ لنا - ولكلِّ عاقل مُنصفٍ - أمورٌ، وتلوحُ أمامَ أعيننا نتائجُ، من أهمِّها:

١- أن الدينَ الإسلاميَّ دينٌ كامل ونظامٌ شامل، وأن الشرعَ ثوبٌ[1] مناسبٌ موافقٌ - في مقاسِه وشكلِه ومنافعه - للثقلين من كلِّ جانب، لأن مصدرَه إلهيٌّ ومنبعَه ربَّاني، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٢- أن الإسلامَ يواكبُ الحضارة، ويدعو إلى التقدم في قواعدِه الرئيسة، وينبذ التخلفَ وكلَّ فكر رجعي يصادمُ الفطرة والعقل.

٣- أن النبيَّ محمدًا ﷺ أرسله اللهُ كأنموذج للبشر، ليسيرَ الناسُ على هديه، ويعيشوا وفقَ منهجه، وأن البشرية المعذبة التي يُحدقُ بها القلق وتلفها الحيرة من كل جانب، لا طمأنينة لها في الدنيا، ولا سعادة لها في الآخرة، إلا باتباع ما أنزل عليه.

٤- أن النبيَّ محمدًا ﷺ قام بتربيةِ كوادرَ من أصحابه ﷺ في فترةٍ وجيزة من عمر البشرية، يعجزُ عمالقة المُربِّين وكبارُ المصلحين، عن الإتيان بعشر معشارها في أضعاف هذا العمُر!

---

(١) لما أسلم الصحابيُّ الجليل لبيدُ بن ربيعة ﷺ، وكان في الجاهلية أحدَ أصحابِ القصائدِ المعلقاتِ السبع، لم يقل - بعد إسلامه - شعرا إلا بيتا واحدا ألا وهو قوله:

الحمدُ للهِ إذ لم يأتني أجَلي ... حتى اكتسيتُ من الإسلام سربالا

٥- أن الأخلاق في الإسلام قد احتلت قطاعًا عريضًا منه، وأنها ثمراتُ العقيدةِ الصحيحةِ ونتاجُها، وأنها الميزانُ الذي يُوزنُ به صوابُ العباداتِ من خطئِها.

٦- أن القوة والعزة من شعاراتِ هذا الدين، ولكنها لا تُستخدم إلا في الخير والحق، وفي الدفاع عن أهلِها، لا في ظلم الضعفاء، والاعتداءِ على الآمنين، والبطش بالآخرين، وفي هذا قلت:

بالبيِّناتِ جَاءَ ... سامحَ مَن اسَاءَ

حرَّم الاعتِداءَ ... صلَّى عليهِ اللهُ

بالمُعجزاتِ أُيِّدَا ... ومَدَّ للكونِ يدَا

وشافِعُ النَّاسِ غدَا ... صلَّى عليهِ اللهُ

٧- أن أعداءَ الإسلام يتربصون بالإسلام وأهله الدوائر، ويحيكون له الشبهات للنيل منه والصدِّ عن سبيله، وأن هذا كله لا يرجع إلا إلى نحورهم، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٩].

وبعد استعراضِنا لهذا الجانبِ العظيم من جوانبِ سيرةِ النبيِّ ﷺ، وبعد عرض غيض من فيض النتائج التي يستطيعُ دارسُ سيرةِ الحبيبِ ﷺ أن يستنبطها ويتوصل إليها، أوصِي نفسي وأفرادَ أمتي وعقلاءَ البشر بالآتي:

١- أوصي نفسي وأفرادَ أمتي بشكر الله ﷻ على أن كتبنا من المسلمين، وجعلنا من أتباع أكرم النبيين، وأن نسأله أن يحفظ علينا هذه النعمة، فيحيينَا مسلمين، ويميتَنا موحِّدين.

٢- أوصي نفسي وأفرادَ أمتي بأن نحافظ على هذه النعمةِ الجليلة، ونعرفَ قدرَها وقيمتها، ونفتخرَ ونعتزَّ بها:

ومِمَّا زادني شرفًا وتِيهًا ... وكِدتُ بأخمُصي أطأ الثريَّا

دُخولي تحتَ قولِك: يا عبادي وان صيَّرتَ احمدَ لي نبيًّا

٣- أوصي نفسي وأفرادَ أمتي أن نقرأ عن هذا الدين - وخاصة سيرة النبيِّ ﷺ وأخلاقه - وأن نطبق ما نقرؤه، ونعلِّم أسَرَنا وأصحابَنا ومجتمعاتِنا ذلك ليعُمَّ النفع وتنتشرَ الفائدة.

٤- أوصي نفسي وأفرادَ أمتي بأن نبرزَ معالمَ عظمةِ الإسلام وجوانبَ روعتِه لغير المسلمين، في بلادنا وفي بلادهم، بما نستطيعُه من إمكانياتِ الدعايةِ ووسائل الإعلام، بأسلوبِ عرض ميسَّر وبطرق مهذبة.

٥- أوصي نفسي وأفرادَ أمتي بأن نتعرفَ على الإجاباتِ النموذجية - التي قرَّرها العلماءُ المتخصصون - التي تردُّ على شبهاتِ أعداء الإسلام، وأن نبيِّنها للسائلين عنها من المسلمين، وللطاعنين من غيرهم.

٦- أوصي المسؤولين عن الجوانب العسكرية، والمعنيِّين بالشؤون الحربية، أن يُكثِّفوا دراساتِهم وبحوثَـهم في سيرة النبي ﷺ، حتى يخرجوا بأكبر كمٍّ من العِبر والفوائدِ والنظم والقواعد، التي يُستفاد بها في الواقع العقدي والعملي، وأن يُلقنوا هذا لتلاميذِهم، وينشروه بين من تحت أيديهم.

٧- أوصي المسؤولين عن الجوانبِ الأخلاقيةِ في الأمة، في دور العلم والتربية المختلفة، أن يبيِّنوا لتلاميذِهم وطلابهم أخلاقياتِ نبيِّهم ﷺ ورعيلِه الأول، بدلًا من التركيز على المبادئ الأخلاقيةِ المتسللة إلينا عن فلاسفةِ اليونان وغيرهم، والتي ليس لمعظمها حظ من الواقع التطبيقي، وإنما تميلُ إلى الخيال، وتجنح إلى المثالية.

٨- أوصي إخواننا في البشريةِ من غير المسلمين، أن يقرأوا عن الإسلام - عقيدة وشريعة وأخلاقًا - قراءة واعية متأنية، ليس فيها تعصبٌ أو تحيُّزٌ أو حكمٌ مسْبَق، حتى يتثنى لهم أن يحكموا حكمًا صائبًا غيرَ جائر، بعيدًا عن المؤثراتِ الخارجية.

٩- أوصي إخواننا في البشريةِ من غير المسلمين، ألا يتعرفوا على الدين الإسلاميِّ من خلال ما يكتبُه عنه أعداؤُه، أو يصفُه به خصومُه، فالمتهَمُ بريءٌ حتى تثبتَ إدانته، ﴿...وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾ [البقرة:١٨٩]، ولا أن يحكموا عليه من خلال سلوكياتِ بعض المسلمين، فلا يُعرفُ الحقُّ بالرجال، وإنما يُعرفُ الرجالُ بالحق!

سبحانك اللهمَّ وبحمدِك، نشهدُ ألا إله إلا أنت، نستغفرُك ونتوبُ إليك، وصلى اللهُ وسلم وبارك على نبيِّه وحبيبه محمدٍ وعلى آلِه وصحبه أجمعين.

الشيخ
عبد العزيز أحمد عبد العزيز
هاتف / ٠١١٢٨٢٩٥٨١ - ٠١٢٤٠٠٨٣٢٤

❑ ❑ ❑

مراجع الكتاب[1]

١- الأذكياء / أبو الفرج بن الجوزي.

٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب / أبو عمر بن عبد البر.

٣- الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني.

٤- تاريخ الأمم والملوك / محمد بن جرير الطبري.

٥- تاريخ دمشق / أبو القاسم بن عساكر.

٦- تفسير القرآن العظيم / عماد الدين بن كثير.

٧- جامع البيان في تفسير القرآن / محمد بن جرير الطبري.

٨- الجامع الصحيح / محمد بن إسماعيل البخاري.

٩- الجامع لأحكام القرآن / أبو عبد الله القرطبي.

١٠- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية / فايد حماد محمد عاشور / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الثالثة / سنة ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

١١- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه / عباس محمود العقاد / مطبعة دار الهلال / القاهرة / الطبعة الأولى / سنة ١٩٦٩ م.

١٢- سنن ابن ماجه / ابن ماجه القزويني.

١٣- سنن أبي داود / أبو داود السجستاني.

---

(١) المراجع مأخوذة من سيديهات الموسوعات الكمبيوترية، عدا أرقام (١٠، ١١، ١٨، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٤٧).

١٤- سنن البيهقي / أبو بكر البيهقي.

١٥- سنن الترمذي / أبو عيسى الترمذي.

١٦- سنن الدارمي / أبو محمد الدارمي.

١٧- السنن الكبرى / أحمد بن علي النسائي.

١٨- سيد رسل الله وأباطيل خصومه / عبد الصبور مرزوق / مطبعة وزارة الأوقاف / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٤م.

١٩- سير أعلام النبلاء / شمس الدين الذهبي.

٢٠- السيرة النبوية / محمد بن إسحاق بن يسار.

٢١- شرح النووي على صحيح مسلم / يحيى بن شرف الدين النووي.

٢٢- شعب الإيمان / أبو بكر البيهقي.

٢٣- صحيح ابن حبان / محمد بن حبان.

٢٤- صحيح ابن خزيمة / محمد بن خزيمة.

٢٥- صحيح مسلم / مسلم بن الحجاج النيسابوري.

٢٦- الطبقات الكبرى / محمد بن سعد منيع.

٢٧- العلاقات الدولية في الإسلام / محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي / القاهرة.

٢٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري / ابن حجر العسقلاني.

٢٩- فقه السنة / السيد سابق / دار الفتح للإعلام العربي / القاهرة / سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٠- فقه السيرة / محمد سعيد رمضان البوطي / طبعة ١٦ / دار السلام القاهرة سنة١٤٢٧ هـ).

٣١- فقه السيرة / محمد الغزالي / دار الكتب الإسلامية / القاهرة / الطبعة الثامنة / سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٣٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير / عبد الرؤوف المناوي.

٣٣- المجتبى / أحمد بن علي النسائي.

٣٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / نور الدين الهيثمي.

٣٥- المستدرك على الصحيحين / أبو عبد الله الحاكم.

٣٦- مسند أبي يعلى / أبو يعلى الموصلي.

٣٧- المسند / أحمد بن حنبل.

٣٨- مسند البزار / عمر بن علي البزار.

٣٩- المصنف / ابن أبي شيبة.

٤٠- المصنف / عبد الرزاق بن همام.

٤١- المعجم الأوسط / أبو القاسم الطبراني.

٤٢- المعجم الصغير / أبو القاسم الطبراني.

٤٣- المعجم الكبير / أبو القاسم الطبراني.

٤٤- الموطأ / مالك بن أنس.

٤٥- نهاية الأرب في فنون الأدب / شهاب الدين النويري.

٤٦- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار / محمد بن علي الشوكاني.

٤٧- هذا الحبيب محمد يا محب / أبو بكر جابر الجزائري / دار العقيدة ٤٨ بالإسكندرية / الطبعة الأولى / سنة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

❑ ❑ ❑

الفهرس


تم بحمد الله


أخلاقيات الحروب في سيرة الحبيب المحبوب ﷺ
مكتبة أولاد الشيخ للتراث
٣٥٦٢٨٣١٨ - ٣٧٤١٠٧٠٤